القائمة القصيرة لجائزة ماريو بارجاس يوسا للرواية

أولجا ميرينو

# الغريبة

ترجمة: محمد الفولي

مكتبة #911

صفصاف
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

مكتبة | سُر مَن قرأ

أولجا ميرينو

# الغريبة

**محمد الفولي/** مترجم وكاتب مصري من مواليد 1987. يعمل مترجمًا ومحررًا في وكالة الأنباء الإسبانية. ترجم 20 عملًا من الإسبانية إلى العربية صدر منها 16 عملًا حتى الآن. ألف مجموعة قصصية عنوانها "تقرير عن الرفاعية" وصلت إلى القائمة القصيرة لجائزة ساويرس الأدبية مرتين متتاليتين.

**الغريبة**
**طبعة 2022**
**رقم الإيـــــداع: 2022/2249**
**الترقيم الدولي: 978-977-821-234-3**
**جميع الحقوق محفوظة ©**

مكتبة ٢٠٢٢٨٦
t.me/t_pdf

الناشر
محمد البعلي

إخراج فني
علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation of the novel LA FORASTERA © Olga Merino, 2020.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

أولجا ميرينو

# الغريبة

رواية

مكتبة | سُر مَن قرأ

#911

ترجمة: محمد الفولي

صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW SEFSAFA NET

**بطاقة فهرسة**

**إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،**
**إدارة الشئون الفنية**

ميرينو، أولجا
الغريبة/ أولجا ميرينو ، ترجمة: محمد الفولي
الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٢
٢٤٤ ص، ٢٢ سم
تدمك ٣-٢٣٤-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص الاسبانية
أ- الفولي، محمد
ب- العنوان

٨٦٣

رقم الإيداع: ٢٢٤٩/ ٢٠٢٢

مكتبة
t.me/t_pdf

# المحتويـات


| | |
|---|---|
| 11 | شجرة الجوز |
| 21 | غريقة البئر |
| 34 | التوأمتان |
| 43 | حانة توماس |
| 62 | مصنع الطحين القديم |
| 88 | روح إيميتريا |
| 103 | مستنقع الزمن العالق |
| 115 | الواهفة تيودورا |
| 127 | ظرف بلون الحمص |
| 143 | جمعية العجائز الخيرية |
| 160 | حدّ أشجار اللوز |
| 172 | لحم وظلام |
| 185 | الكلبة كورّا |
| 196 | عيد الخبز |
| 206 | الجمعة |
| 216 | السبت والأحد |
| 232 | الاثنين |
| 239 | البحر |

إلى برايان جاهاجان وإنريكي دي إريث

تخليدًا لذكراهما.

قطعوا القمح.

الآن:

عُزلتي أفضل

صوفيا دي ميلو برينير أندرسن «سورور ماريانا - باجة»

كان على أحد

أن يبقى هنا

لتصفية حسابات

اللحظات الهشَّة؛

وعلى آخر أن يقول للشتاء

بصوت حاسم

حين يأتي يوم الخروج لملاقاته

وتسليمه ساحة الحياة:

«لا شيء أتيتَ لأخذِه

ثمينٌ حقًا،

فالسعادة سلَّمناها إلى العصافير

وباتت في مأمن».

أندريس ترابييو. «نهاية الصيف».

t.me/t_pdf

لا يعرفون الأمر، لكنني هنا في خير حال، مع البستان والكلبين، ودروبي، وساقيّ. البوابة المُسيَّجة مفتوحة دائمًا، فأنا لا أخشاهم، رغم نمائمهم. يعلمون أنني أُخفي بندقية في غرفة الحبوب، وهي «ساراسكيتا» قديمة عيار اثنا عشر. يحسبونني مجنونة؛ لأنني أتردد على المقبرة وأتحدث بصوت مرتفع أمام قبر أمي، حيث أثمل وأضحك وحدي ولا أختلط بأحد تقريبًا. لا أقص شعري أيضًا منذ وفاتها. يقولون إن ثمة خطبًا في رأسي. قد أكون مجنونة من فرط رجاحة عقلي. أنا أعرف ظلال نفسي وحقيقتي.

مكتبة

هنا، لا يتعاملون مع الغرباء بمودة إلا لو استبقتهم بِمَوَدَّتِك. إن بذل مثل هذا الجهد لم يلائمني قط. ما أُفضِّلُه، مراقبتهم. إنهم لا يعرفون شيئًا، ورغم ذلك يتحدثون ويتحدثون ويتحدثون. يتهامسون. أما أنا فأُطبق فمي، رغم الأمور التي رأيتها. لقد أطلقوا عليّ ألقابًا. أدرك الأمر لأن «إبراهيما"، وهو أَفْضَلُ أصدقائي - أو ربما صديقي الوحيد - حكاه لي. إنه الوحيد الذي يناديني «أنجي»، كما اعتاد أن يناديني الرسام الإنجليزي. يسموننني ابنة عائلة ماروتو، وهو لقب عائلتي من ناحية الأب. «ماروتو» هي الكلمة التي يصفون بها في هذه النواحي الجبلية فحول الكباش المُكرَّسة للتكاثر. يطلقون عليّ أيضًا لقبيّ «معتوهة المنزل»، ومختلة «إل أتشويلو»؛ الاسم الذي عُرِفَتْ به سابقًا هذه الأراضي التي كانت لنا طيلة سنوات كثيرة. ينادوننني أيضًا بالساقطة الإنجليزية.

ليس لديّ تلفاز ولم أعد أقرأ الجرائد. أحيانًا، أفتح الراديو ليلًا لسماع الأغاني وأصوات أخرى غير صوتي. يظنون أنهم يدركون فحوى الأمر، لكنهم ليسوا على صواب. أراهم حين أنزل إلى القرية في أي يوم جمعة،

حين تصل شاحنة السمك، وفي أيام الآحاد. يشيحون بوجوههم، حينما تتقاطع طرقهم معي. قد يبتسم آخرون كالقطط، ويلكزون بعضهم بأكواعهم، وهم يترصدونني بطرف أعينهم. ينظرون أيضًا إلى حذائي ذي الأربطة الذي لطالما استخدمته أمي. لا أحب أن ينظرَ أحدٌ إلى قدميّ. ترسُمُ الواهفةُ [1] الصليبَ كلما رأتني. يُحييني بعضهم ويسألونني كيف هو حالي، وإن كنت في حاجة إلى شيء ما. يفعلونها لمجرد السؤال، كأنني لا أعرف الحماقات التي يتفوهون بها من وراء ظهري. ثمة آخرون يُغلقون ستائرهم بمجرد رؤيتي، وقِلّة قليلة تُقدِّرني. هنا، حتى ولو فضل البعض إنكار الأمر، نحن جميعًا عبارة عن نصف أقارب: أبناء زنا محارم، أبناء عمومة مع أبناء عمومة، أعمام مع بنات أخواتهم التافهات.

يمكنني تخيُّل ما يقولونه. في الحانة، ومعصرة الزيتون، وحلقات الكراسي التي تُخرجها القابلات في الهواء الطلق أمام بيت الواهفة، وفي الكنيسة: ضرورة حبسي، وأن حالتي تدهورت منذ رحلت أمي، وأن المخدرات هي مَرَدُّ الأمر، كما حدث مع أخي، وأنه على الأرجح لا بُد من هدم المنزل لأنه بات خربًا، أو أن فلانًا قد رآني أتحمَّمُ عارية في بِركة النهر.

يخترعون أيضًا أمورًا قذرة.

يتهامسون بمسألة أنني أتفاهم مع القسِّ، ولهذا يصعد كثيرًا لِيُحضر لي طرود الإحسان. يقولون إننا نتسافد كالكلاب في وضح النهار فوق العشب وأسفل شجرة البرقوق التي أمرت العمة إيميتريا بزراعتها قبل موتها، أو في أي مكان هنا، حين تملؤنا رغبة كالبهائم، سواء بملابسنا أو نصف عاريين، بسرعة مَن يسعون للهرب، ومن دون تمهُّل في كلامنا. حدث هذا مرة واحدة فقط، وداخل المنزل. صحيح أننا فعلناها من دون

---

1 - خادمة الكنيسة المسؤولة عن الموهف، وهي غرفة تُحفظ فيها الأغراض المقدسة. (المترجم).

أغطية أو فراش، لكنها كانت داخل المنزل في الليلة التي عرفت فيها أن أمي لن تبصر شمس الصباح، وطلبتُ استدعاءه. كانت خاكوبا، وهي ابنة عُمومة بعيدة لأمي، تسهر على الجثة في الأسفل داخل غرفتها، ونحن نتعانق في العلية، إلى جوار صندوق خشب الجوز حيث ترقد بندقية صيد الأرانب البرية والسمَّان والحَجَل؛ سلاح أعمامي الذي علمتني أمي كيفية تلقيمه بالذخيرة، تحسبًا لتسلل أي مجرم إلى المنزل.

كل الأمور جاءت بي إلى هنا، والحق أنني هنا في خير حال، لولا بعض الأيام التي تُكدر فيها الرياحُ أجواء المنزل، حين تسقط حفن التراب من بين العوارض الخشبية وتُقرقع دِرَفُ نوافذ الغرف الخاوية. لطالما أرعبني ليلًا، في بداية بقائي وحيدة حين ماتت أمي، صرير دوارة الرياح غير المُشَحَّمة، والآهات شبه البشرية لدِّيكها المجنون الذي يتحرك من دون وجهة محددة، وَفقًا لدفقاتها.

بين البستان، وصدقة الدولة، ونباتات القنطريون، لديّ كل ما أعوزه. أقايض عبوات الحليب بما أحتاجه من متجر «إل تشانو». لا يروقني طعم الحليب حتى وأنا مريضة. يعرف الأب أندريس - كما يدعونه - هذه المسألة ولا يأبه «إل تشانو» بها. لديه كل شيء في متجره: مسامير، وخيوط للحياكة ومصابيح ومبيدات حشرية وقهوة ومسَّاحات. أحلُّ الكلمات المتقاطعة بالقلم الرصاصي والممحاة في يدي، تحسُّبًا لارتكاب أي خطأ. يحتفظ لي «إل تشانو» بصفحتها التي تظهر في جرائد الأحد. يتعاقد معي ديونيسيو، رئيس عمال مزرعة «لاس برينياس» لقطف الزيتون في كل شتاء. أعمل من دون تأمينات وبنصف ما يدفعه لعمال اليومية. إنها مسألة مرتبطة بالقوة الخشنة، إذ يقول ديونيسيو إننا معشر النساء لسنا ماهرات في القطف، فالرجال هم مَن ينفضون أشجار الزيتون ويحملون الصُّرر. نمضي ثلاثتنا في أثرهم لجمع الثمار

الساقطة خارج الشِّباك إلى أن تلتهب أصابعنا من برد الصباح، فارتداء القفازات غير مسموح به لأنه يؤخر الحصاد. لطالما حكت أمي أن ثمة وقتًا اعتادت فيه العجائز ومعهم الأطفال على التبوُّل في أيديهم لعلاج الشرث [2]. يستدعيني رئيس العمال أحيانًا في حصاد الأناناس والفطر الزعفراني، لكنه لا يفعلها في موسم حصاد الفلين. ملكية «لاس بريناس» بالغة الضخامة. يقولون إنها ابتلعت منذ نحو قرن أو أكثر غابة كاملة كانت في الأصل ملكية عامة. هذا ما يقولونه، وهذا حال هذه الأرض منذ كان الزمن زمنًا: أشواك مكسورة ويوميات عمل بائسة.

بين الحين والآخر أخرج بإكرامية ما من خاكوبا التي ودَّت أن تكون أمي أو أمًا لشيء ما. لهذا السبب تبنَّتني لفترة حين حَلَّ العام الذي حدث فيه كل شيء سيئ وودَّت أمي أن تعود إلى الضيعة بأرمدة أبي للبقاء هنا. أقول لها، كلما ذهبت لرؤيتها في دار المُسنِّين، ألا تعطيني نقودًا، وإنني في خير حال. أجاريها في هذه المسرحية الهزلية، رغم أنني آخذ في النهاية ورقة العشرين يورو التي تمُدُّها إليّ، وأطبقها أربع مرات، ثم أضعها في الجيب الخلفي لبنطلوني، قبل أن أجعلها ترقد وأمنحها قبلة هاربة، من دون أن تلامس شفتاي جلدها.

تكفيني صُحبةُ الكلبين. الكلب السلوقي والكلبة الهجينة بوَبرها الأصفر. لقد وصلتْ إلى المنزل منذ خمس سنوات. عثرنا عليها ذات ليلة تتجول بين السور العفن الذي نَصَبَه أبي والسقيفة التي أحتفظ فيها ببعض التوافه وأدوات الحقل والمُجَمِّد. أتذكر أننا كنا صيفًا لأن رائحة الهواء الساكن بَدَتْ كَدُود الأرض أو إفطار بائت بعد تسخينه. آنذاك، كان قمح الغير يصل إلى باب بيتنا. طردتها أمي لأنها أنثى، لكن الكلبة

2- تورم في الأصابع ينجم عن تكرار التعرض إلى الهواء البارد. (المترجم)

عادت في اليوم الثاني، والثالث، حتى أقنعتُها بالاحتفاظ بها، حينما أدركنا أنها مُصَابة بثلاثة جروح من عدة مقذوفات أسفل فرائها. كنتُ أنا مَن عالجها. حلقتُ ظهرها بثبات كبير، ووجدت أن البثرات الثلاث بدأت تخضَرُّ فعلًا عند حوافِّها. وضعَتْ أمي خِرْقَة قماش لتغلي - واحدة من تلك الخرق التي تستخدم للف الخبز- ثم مسحتُ بالخرقة الرطبة الساخنة فوق الجراح حتى أزلتُ قشرتها. أخرجتُ الطلقات، وصرفتُ الصديد بالضغط بنعومة إلى أن تبرعم الدم النظيف في النهاية، بلمعان مختلف، كالخياشيم، أو ثمار الكرز الجديدة.

الدم أحمر لأنه يُنذر: إما بالألم، أو بالخطر، أو بأنكِ لستِ حُبلي.

نظَّفتُ الجراح بالميثيلين الأزرق، وهو ما كان لدينا لعلاج الدجاج. تحملتْ الكلبة هذا العذاب بثبات كبير إلى درجة أنني سمَّيتها «القبطانة». قَصَّت أمي قطعة قماش طويلة من ملاءة لتضميدها وقالت: «لطالما آمن الناس كثيرًا بعمتك إيميتريا، فكانوا يسيرون خمسة فراسخ وأكثر، كي تُعالجهم أو لسؤالها عن هذا الأمر أو ذاك، بل كانوا يأتون إليها من بيوت المزارع الموجودة في الوادي. حتى خادمات «لاس برينياس» كن يأتين في الخفاء، للسؤال عنها». كعادتها ألحقتْ أمي آنذاك كاف الملكية لوصف العَمَّة. لطالما قالت «عمتك إيميتريا»، «أباكِ»، «أخاكِ»، لتفرِّق نفسها عن بقيتنا. ربما آمنوا فعلًا بالعمة إيميتريا، لكنهم قالوا أيضًا إنها باتت مجنونة.

قرب الغروب، ودَّت «القبطانة» أن تصعد معي الزقاق المنحدر. بالنسبة إلى الكلب السلوقي، فهو انطوائي، ومُتمَلِّص بصورة أكبر، لهذا ظَلَّ يركض في الفناء. أحيانًا، حينما أفرغ من أعمال البستان، أو حين تتخدر رأسي من كثرة القراءة، أصعد المنعطف لأرى كيف يُغير النور

صبغة الحشائش، فَأَزُرُّ عينيّ لمحاولة اكتشاف خدع الألوان. لديّ عين جيدة، وأحب ابتكار أسماء جديدة لها. لقد علمني الرسام الإنجليزي هذه الخدعة. أتذكر الكثير من عباراته، كلمة كلمة، ونبرته الدقيقة وهو يقولها: «ما من أحد رسم لون الدم مثل رامبرانت». أحمر هو الدم. أحمر هو النبيذ واللحم والأرض والنار. كان اسمه نايجل تانر.

من مكاني هنا في الأعلى، عند منعطف الطريق الصاعد نحو الميناء، الذي يتَّصل لاحقًا بالطريق الإقليمي نحو قرطبة، يُمكن رؤية بيتي جيدًا: ها هو ذا جداره الجانبي المكسو باللبلاب الأحمر وها هي ذي براعم السُّدم الأبيض التي تنمو فوق سقفه. تتكاثر الآن زهور الخشخاش والملفوف الطويل في الأرض التي سبق أن زرعت أمي فيها المريميَّة والبقدونس والنَّعْنَاع. يروقني حاله هكذا، وهو شبه منسي، كصَدفة وسط الأحجار، كجزيرة مغروسة وسط أرض بائرة. لقد توقفت عائلة خلدون، منذ نحو أربع سنوات وبعد وفاة أمي بقليل، عن زراعة الأراضي المحيطة به التي كانت لنا في وقت سابق. حيث كان القمح موجودًا، لم تعد تنمو الآن إلا نباتات الخلنج والقستوس والحراشف البرية وصولًا إلى ضفة الطريق الذي يتلوى بعد اجتياز أشجار السنديان، متضائلًا إلى الدرب المفضي إلى النهر وإلى بيت «لاس برينياس».

عبر هذا الدرب تحديدًا، يقترب الآن أحدٌ ما من الطريق المؤدي إلى بيتي.

يا له من أمر غريب! لم أرَ أحدًا يصعد وقليلون هم الجيران الذين يغامرون بالمجيء إلى هنا. أُميِّزه الآن. إنه ذكر وأسود. إنه إبراهيما من دون شك. أبدأ في هبوط المنحدر بهدوء والكلبة أمامي. أتعجب من مجيئه مرة أخرى، على الرغم من انتهاء قطف الزيتون وعدم وجود

أعمال كثيرة في مزرعة «لاس برينياس»، خاصة وأننا كنا معًا بالأمس. تُقلقني هيئتُه، وخصوصًا قبضتيه المضمومتين وإلحاح خطواته الواسعة. يجتاز إبراهيما البوابة المُسيَّجة ويهتف باسمي في الهواء: «أنجي. أنجي». لا تُخفف المسافة من نبرة الغم في صوته. يخرج الكلب السلوقي للقائه، لكن لدى وصوله قرب ساقيه لا ينحني إبراهيما لمداعبة رأسه. أناديه فيلتفت. لا يبدو مُحيَّاه بخير. تُداهمه «القبطانة» لكنه لا يُبدي ردَّة فعل. أقطع الأمتار الفاصلة بيننا راكضة، وإذا به يصرخ:

- لقد رأيت ميتًا.

- لكن ما الذي تقوله؟

ينحني إبراهيما فوق الأرض. ساقاه مفتوحتان ويداه فوق فخذيه.

- هل نعرفه؟

يرفع إبرا كتفيه ويهُزُّ رأسه، ثم يسند ظهره إلى جدار البوابة المُسيَّجة، إلى جوار شجرة التين، حيث يترك دَرَّاجته عادة.

- إنه رجل وشنق نفسه في التَلِّ.

ميت آخر. انتحار آخر. هذا هو أول ما يطرأ على رأسي، لكنني أفضِّلُ عدم البوح به. أُقنعه بمرافقتي لرؤية الجثة، ثم نمضي في طريقنا نحو غابة البلوط تاركين البيت خلفنا. تستبقنا «القبطانة» ومعها «بلوتو»، الكلب السلوقي، كأنهما خَمَّنا وجهتنا. ربما هما قادران على الوصول بعينين مغمضتين. يسيران بخفة في المقدمة، لأن الدرب المفتوح وسط أشجار السنديان منبسط. نواصل تقدمنا بخطوات واسعة من دون أن نتحدث.

شهر مارس أفضل فترة طوال العام لصعود التل. لطالما قال أبي هذا، فقد اعتاد أن يصعده ليستمتع بتأمل الربيع، قبل أن يهاجر شمالاً إلى برشلونة. كان يُحدثني عن الحقول جالسًا إلى المائدة، والمفرش المشمع مفرود فوقها، بعد عودته من الحانة ليواصل الشرب، وهو ينتظر انتهاء أمي من إعداد الطعام. أتذكر الوجوه وبعض الأحداث والعبارات الدقيقة: «في كل مرة يحل فيها هذا الوقت، اعتدت الصعود لرؤية المرتفعات وميلاد الأراضي المبذورة من أعلى نقطة في التل». إنها تلك العبارات التي تتشابك في الرأس. تزداد وعورة الدرب الآن، فيَمُدُّ لي إبراهيما ذراعه ذات العروق النافرة، ومن جانبي أستند بيدي الحُرَّة إلى كُلِّ ما أجده في طريقي: إلى بروز صخرة مرتفعة؛ إلى نبتة زعتر، ومن بعدها إلى فرع شُجيرة بُطْم عدسي. يسبق الكلب السلوقي هو الآخر الكلبة التي تظل مُصرَّة على الصعود، فتغرس قائمتيها الخلفيتين في المنحدر بجهد كبير تصحبه رجفة خفيفة. إن «القبطانة» العجوز تتشبث بنزهاتها بشغف!

نستعيد أنفاسنا في قمة التل. أجلس إلى صخرة تطل على سفح الجبل الآخر. يظل إبراهيما واقفًا. يبدو أنه قد فقد بوصلة المكان الذي رأى فيه ما رآه. يبحث عن مؤشرات فيما حوله، بيد مستندة إلى فخذه وأخرى تظلل حاجبيه. تمتد التضاريس الخشنة تحت قدميّ. يميني، نحو مغرب الشمس، يتيه المشهد وسط صفوف أشجار العنب المتعرجة التي لا نهاية لها بين أنسجة الأرض المحروثة لأول مرة، وسط تتابع الروابي المتدرجة بمقاييس زرقة مختلفة تزداد قتامتها كلما زاد بُعدها؛ أما ناحية المشرق، فيتعاظم انحدار السلسلة الجبلية مع الأغصان المتكاثفة الملتفة والأجراف. نتبادل أنا وإبراهيما النظرات ونفهم بعضنا بعضًا من دون الحاجة إلى كلمات. يُزعجنا التناقض المُتجلّي لرغبة الموت أن

يستقر هنا وسط كل هذا الجمال، وكذلك تلك الكآبة الخفية التي تطفو في الهواء، رغم فورة الخُضرة الوليدة. إن الربيع عنيف، برجفان هوائه، وطقطقة حبوبه النابتة، وفوران حشراته، أو نهم فراشة سوداء ترفرف بجناحيها فوق أشواك نباتات الجولق. من مكاننا هنا في الأعلى، ما من روح ترى وسط رحابة الريف.

فجأة، يبدأ «بلوتو» و«القبطانة»، بعد أن نسيت وجودهما تقريبًا، في النباح. ظَلّا يتجولان منذ فترة عبر المكان، وَفقًا لهواهما. تزداد حِدّة زمجرتهما بمرور الوقت. ثمة شيء خفي في أنين الكلبة المكتوم؛ في إصرار نباحها المتتالي الذي يؤكد أنهما قد استبقانا في البحث. ينظر إليّ إبرا بعينين كما الجمر ويقول:

- إنهما على بُعد نحو ثلاثمائة متر.

ننزل، مسترشدين بصوتهما، عبر منطقة مليئة بالحصى، وإبراهيما أمامي كمتراس، تحسبًا لانزلاقي فوق أحجار الجير. يُسمع صوت الكلبين بصورة أكبر كلما تقدمنا، ويتعاظم سخطه في كل مرة. نرفع سحابة من التراب في المنعطف الأخير، حين نترك أنفسنا ننزلق إلى مساحة جرداء تنبسط فيها الأرض. على بعد عدة خطوات، يبزغ الفزع فجأة: نرى الكلب السلوقي، الأصغر والأرشق، بأضلاعه البارزة بعد المجهود الذي بذله، يثب على قائمتيه الخلفيتين ليلامس بين الفينة والأخرى بِخَطْمه قدمي المشنوق، الذي يتأرجح بلا سبب ومن دون وجهة. تظل «القبطانة» على النقيض ثابتة فوق الأرض. أصابها الإرهاق على الأرجح من تشمم الجسد، لكن عضلاتها لا تزال مشدودة ولا تتوقف عن النباح مغمومة.

أقترب بحرص. لا بُد أن الرجل - لأنه فعلًا رجل - قد صعد إلى أقصر

أغصان شجرة الجوز، وبمجرد أن جلس هناك، ربط الحبل بالغصن العلوي، ثم تأكد من العقدة وترك نفسه يسقط. الوزن والارتفاع كافيان. تنظر إليّ «القبطانة» بين الفينة والأخرى مبهورة بمغناطيس الموت، لكنها لا تتحرك خارج دائرة الظل. يبدو «بلوتو» بمرور الوقت مستثارًا من استثارته نفسها. أرى الآن أن مُؤَخَّرة بنطلون المشنوق ملطخة بالغائط.

أقترب ببطء، ويُخمن إبراهيما، الذي مكث في الخلف، أنني أنوي ضم ساقي الرجل لإنزاله وتخفيف حرجه، فيطعن أذنيّ بصرخة:

- لا تلمسيه. تكتسي يداه باللون البنفسجي بالفعل. لا تلمسيه.

أقول له من دون أن أتوقف عن النظر إلى الرجل الذي يتأرجح في الهواء:

- إنه السيد.

أتراجع خطوة للخلف، ثم خطوتين، فثلاث خطوات. تتقهقر ساقاي وحدهما، بغض النظر عن رغبتي. إنه هو. ما من شك في هذا. إنه دون خوليان. مالك أراضي «لاس برينياس». عيناه مفتوحتان بصورة مهولة ويداه لونهما كالنبيذ.

مكتبة
t.me/t_pdf

# غريقة البئر

لم أنمْ هذه الليلة أيضًا. أستيقظ الآن فجأة، بعد غفوة خفيفة، غارقة في عرقي، وألهث، كأنني قد أفلتُّ من القاع الموحل لنهر التيمز في اللحظة ذاتها التي تسبق اختناقي غرقًا. أُبعِد الأغطية، ثم أنهض وأخرج من الغرفة. تمضي الكلبة خلفي. أهبط السلالم كعمياء، فيأنُّ خشب درجاتها مع وقع قدميّ الحافيتين فوقها. أضع السترة فوق كتفيّ، أفتح الباب الكبير، الذي بات يتراقص فوق محاوره، وأنظر إلى الليل والحقول المظلمة. لا تنفصل «القبطانة» عني منذ أول أمس؛ منذ هبطنا من التل، كأنها تُحدس أن الجثة لا تزال تتأرجح داخل رأسي، بسروالها الجملي الملطخ بالغائط، وقميصها المضلع الذي لا تشوبه شائبة - كحال ملابس أثرياء الريف - وحبل الخوص المعقود حول رقبتها، ولسانها المنتفخ بين أسنانها، والحذاء السخيف المُلمع الباحث عن الأرض. ثمة نسمة خفيفة هزت قُصة شعر صاحبها الذي تراوح بين الشيب والشُّقرة. دون خوليان خلدون مالدونادو، مالك وسيد «لاس برينياس»، مشنوق عند شجرة جوز.

ما إن عثرنا على الجثة في الأرض الخاوية، مضينا فورًا في طريق العودة، نازلين المنحدر من دون أن نتوقف إلى أن وصلنا إلى البركة حيث رطَّبنا وجهينا بالماء البارد. لم نتحدث، لكنني عرفت ما يجري في رأس إبراهيما الذي مضى مطأطئ الرأس في المنعطف الأخير من الطريق نحو منزلي. دعوته إلى الدخول لإقناعه بضرورة إبلاغ الحرس المدني.

- أنتِ مجنونة.

- لا تنطقِ هذه الكلمة الداعرة بفمك!

مَرَّر إبراهيما يده فوق فكه، منزعجًا من رد فعلي المستاء:

- اعذريني. لم أرغب في قول هذا، لكننا لن نذهب إلى أي مكان.

أفلتُّ سؤالي غير مقتنعة به من الأساس:

- وماذا لو أن أحدًا رآنا؟

- مَن؟ لم يتقاطع طريقنا مع أحد.

ربما كان من الأفضل أن نطبق فمنا وأن نبقى هادئين، لكن الشكوك حثتني على التحرُّك، فالحقيقة تطفو وتظهر دائمًا. لهذا أبديت إصراري:

- سيكون الأمر أسوأ بكثير، لو ذهبتُ وقلتُ لهم إن الرجل الأسود الجميل الموجود في «لاس بريناس» لم يود أن يقترب من نُقطة الشرطة لإظهار وجهه. علاوة على ذلك، إنه السيد. اللعنة!

أبعد إبراهيما أحد المقاعد بيده وجلس إلى مائدة المطبخ واضعًا رأسه بين يديه:

- وحينما يطلبون مني وثائقي، سأخرج لهم النسخة الملعونة، أليس كذلك؟

يعمل إبراهيما بأوراق سنغالي آخر، شخص يُدعى مامادو، ومن المحتمل أن رئيس العمال ديونيسيو ودون خوليان لا يعرفان أصلًا هويته الحقيقية. هنا، في هذه القرى التائهة في وسط العدم، لا يسأل أحد كثيرًا. يتشابه كل العمال الأفارقة، بنفس الصورة التي يروننا بها نحن معشر البيض كمجرد حثالة رخوة. ما الذي وجب علينا أن نفعله؟ أن نصمت، كأننا لم نرَ شيئًا؟ هل كنت أرتكب خطأ؟ لم أتمكن من التفكير بوضوح، بل إن الزمن نفسه بدا مغروسًا بإبر في وسط التل في

تلك اللحظة التي انطلق فيها الكلبان يعويان حين شَمَّا الجثة.

غمغم إبراهيما:

- نحن الاثنان... أكان هذا الأمر يجب أن يحدث لنا نحن الاثنان!

وجدت نفسي قادرة على تخيل أسئلة الحرس المدني في النقطة: «أين كنتما ذاهبين؟»، «ما الذي كنتما تفعلانه معًا؟»، «متى آخر مرة شاهدتما فيها دون خوليان؟»، «هل لاحظتما أي شيء غريب في تصرفاته؟»، «هل جاءته زيارة في الليلة السابقة في ملكيته؟»، «هل من مؤشرات على تفكيره في الانتحار؟». على الرغم من ظنوني، استمررت في عنادي:

- حسنًا.. قل إننا سنطبق فَمَّيْنا، وإن أحدًا سيعثر على جثة السيد المدلل، لأنه إن آجلًا أم عاجلًا سيعثر أحد ما عليها. إلى أين سيذهبون إذن للاستقصاء عن الأمر؟ أول شيء، في مزرعة «لاس بريناس». سيودُّون أن يتحدثوا مع «بياض الثلج»، ورئيس العمال، ومعك.

أطلقوا في القرية لقب «بياض الثلج» على الأوكراني فيتالي؛ لأن جلده شديد البياض لم يكن قد ذاق بعدُ فصول صيفنا الذبَّاحة. يعمل هو وإبراهيما في أراضي عائلة خلدون، ويسمح لهما ديونيسيو رئيس العمال - بمباركة مالكها - بالعيش في مرأب المزرعة الذي يفصله سياج البستان عن البيت والإسطبلات القديمة. إن المأوى بالنسبة إليهما وإليّ هو الأخدود الأخير الذي يباعد بيننا وبين الخراب. لم يعلم دون خوليان أصلًا في أي مكان ينامان؛ لأن المزرعة ضخمة. لقد بِيعت الحَصَّادة وآلات تكييس الحبوب منذ فترة. أعرف الأمر لأن إبراهيما حكاه لي. لم أدخل بيت الأسياد من قبل ولا أظنني فاعلة هذا أبدًا. لن أدخل بيت «لاس بريناس». لا، لن أدخله، رغم أنني أطأ أراضيهم يوميًا حينما أصعد إلى التل، أو أنزل إلى القرية، أو أنحني لجمع ثمار الزيتون الساقطة فوق

الصقيع، واللامعة كحبات مِسْبَحة من الكهرمان الأسود. تقول خاكوبا إن أبي لو كان موجودًا في هذا العالم وأدرك أنني أركع على ركبتيّ في أراضي عائلة خلدون لصفعني على وجهي. كان سيفعلها من دون أن ينطق كلمة واحدة. لم يكن أبي رجلًا يميل إلى الحديث، حتى وهو بين الأحياء.

طلب إبراهيما إليّ بعض الماء. حينما مددت له الكوب، أمسكته يده بصعوبة بسبب رجفتها، وبدا كأنه يشق عليه التنفس. وَدَّ أن يقول شيئًا، لكن شفتيه تأخرتا في البوح به:

- وإن لم تسرْ الأمور جيدًا؟ قولي لي يا أنجي، قولي لي ما الذي سنفعله لو تعقدت الأمور.

**«أنجي، أنجي، لا يمكنك أن تقولي إننا لم نحاول قط»** [3]. تثير الأغنيات القديمة داخلي ذكريات لا أرغب في المساس بها.

وضعت قرصًا مهدئًا للأعصاب أسفل لسانه، بالصورة التي يوصيك الأطباء أن تنفذها حين يلتهمك القلق وأقنعته بالتوجُّه إلى نقطة الحرس المدني في «إل سالوبرال» قبل أن يحُلَّ الليل علينا. لا توجد نقطة شرطة، ولا طبيب، ولا حتى طبيب بيطري، في ضيعتنا أما القسُّ فيأتي حين يأتي لأنه مسؤول عن سبع أبرشيات حول جانبي السلسلة الجبلية. شرعنا نسير بنفس الصورة التي وصلنا بها من التل: يغطينا التراب وبأذرع قد ثقبتها الأشواك. نزلنا المنحدر وقطعنا الخمسة كيلومترات التي تفصل بيتي عن الضيعة، واجتزنا الأرض المشاع، ومن بعدها الطريق المحفوف بأشجار الحور، ثم تركنا خلفنا ورشة ماجانيا للصاج

3- مقطع من أغنية «أنجي» لفريق رولينج ستونز وورد في النص الإسباني مكتوبا بالانجليزية. (المترجم)

وحانة توماس، وانعطفنا عند منحنى محطة البنزين، بخطى جيدة، كأننا نهرول تقريبًا، وهذا لكيلا نضطر إلى تقديم تفسيرات لم يتجرأ أحد أصلًا على مطالبتنا بها. لقد وشت سرعتنا بنا وساد الصمتُ الساعةَ التي استغرقناها للسير حتى إل سالوبرال. سرت مُرتابة نوعًا ما؛ لأنني لم أعرف إلى أين سيقودنا كل هذا، وهو الأمر الذي ما زلت أجهله حتى الآن.

ما إن عبرنا عتبة الباب وعبارة «**الكل من أجل الوطن**» المكتوبة في القوس الذي يعلوه، بدأت أشعر بالغثيان والعرق البارد وخدر يمضي كصف من النمل المفزوع فوق جسدي، وبتشنج يمتد من ساعدي حتى أنامل أصابعي ومن بطني حتى صدري. يحدث هذا الأمر لي غالبًا في أماكن معينة؛ حين أدخل أماكن مغلقة خلَّفَ فيها الزمن صدأه المغموم. أشعر حينها بشيء ما، بطاقة، بهزة، بهمسات، وضوضاء مكتومة. إنه قلق الأرواح المتراكم وصدى الموت وثقل ما حدث؛ كأن الجدران قد تشربت بالحزن. ثمة شيء سيئ حدث داخل هذه الثكنة. لا أعرف كيف يُمكنني تسميته، لكنه أمر مختلف. لطالما بدا لي أثناء نزهاتي على ضفاف نهر التيمز في لندن مع نايجل - أو بعدها كلما اقتربت من الأكواخ الخشبية القديمة الموجودة عند المرافئ - أنني قادرة على الشعور بضوضاء السلاسل، ورائحة صدأ الحديد، ومحاولات الغرقى البائسة للعوم، وعبق العرق العتيق للأجساد التي تُفرغ براميل السكر وحزم القطن وصفوف الذبائح من بطون السفن. إنها أمور تخصني وحدي. أنا وحدي. لطالما حدث نفس الشيء لعمتي العزباء إيميتريا. اعتادت أمي أن تقول إن مَرَدَّ هذا الأمر هو دَمٌّ عائلة ماروتو الثخين.

استجوبنا أفراد الحرس المدني الثلاثة مرارًا وتكرارًا، في البداية معًا ثم على حِدَة، للتحقق من عدم وجود أي تناقضات أو ربما للقضاء على

الملل. وجهوا لي أسئلة أقل وبدون رسميات: «هل تعرفين المُتوفَّى؟ هل صحيح أنكِ تعيشين وحدك في بيت "إل أتشويلو"»؟ حينما انتهى التحقيق معي، اقتادني أحدهم من ذراعي نحو الغرفة المجاورة، حيث كانوا قد أدخلوا إبراهيما وأجروا التبديل. أطعتهم دون امتعاض، فأنا لست مهتمة بالتسبب في مشاكل. لم تحتوِ الغرفة سوى على خزائن أرشيفية، وتقويم مزود بدوائر، وفراش يتسع لشخص واحد وغطاء مهترئ تفوح منه رائحة رجولية. افترضت أن حراس الورديات ينامون هنا. جلست إلى حافة الفراش وحاولت أن أميِّز صوت إبراهيما عبر الجدار. نبرته مفزوعة ومتلعثمة إثر حالة التنبلة الناجمة عن القُرص المهدئ. أجاب على عدة أسئلة وجهوها له. من ضمن ما سمعته منها بوضوح: أي شيء ملعون كان يفعله في هذا المكان النائي، وأين هو الهليون، إذا ما كان قد صعد إلى التلال لقطف بعض منه. تخيَّلته يبتلع لُعابه واقفًا بقدم تتقدم تلك الأخرى ليُخفي بربلة ساقه الطعنة الموجودة عند عظمة الظنوب في ساقه الثانية؛ تلك الندبة المروعة الناجمة عن شجار خاضه مع أحد أبناء بلده. بعدها تردَّدَ صوت ضحكات، وضوضاء مقاعد تُجر فوق الأرض، ومكالمة هاتفية. مَرَّ بعض الوقت، لا أعرف كم منه، إلى أن ساد الصمت، ثم انفتح الباب بعدها.

صدقونا واشتروا لنا شطائر. كان لا بُدَّ أن ننتظر الصباح ليرافقونا حتى شجرة الجوز الواقعة في الأرض الجرداء لصعوبة السير في الجبل وسط الليل الحالك، على أن نترقب بعدها وصول القاضي لإنزال الجثة. ثمة أشجار جوز كثيرة مبعثرة في المنطقة. إنها أشجار تُفضل النمو دون صحبة، بمفردها، وبتعالٍ، لتتفتح أفرعها كما يحلو لها. نحو الحادية عشرة صباحًا، وصل القاضي ومساعده من الإدارة القانونية. في تلك الأثناء، كان الأهالي قد عثروا بالفعل على سيارة دون خوليان الـ«لاند

رو ڤر» مفتوحة، ومفاتيحها موجودة فيها، إلى جوار الطاحونة القديمة عند الطريق النازل مع مجرى النهر، تحت ظلال بيت عائلة خلدون. اشتغل أبي في هذه الطاحونة، ولهذا السبب حينما اضطرت العائلة إلى الرحيل إلى برشلونة، رفضوا التعاقد معه في مصنع السيارات - وهو المصنع الأفضل - لأنه عجوز ويعاني من التهاب الشعب الهوائية بعد أن نسجت ذرات الطحين شباكها كطبقة من الكتان الشفاف فوق رئتيه.

ها هو الفجر آتٍ من جديد. أصعد السلالم مع «القبطانة» وأدخل غرفتي التي كانت في وقت سابق للعمة إيميتريا. اعتدت وأمي على قيد الحياة أن أنام معها في غرفتها الواقعة فوق المطبخ بالضبط، كلٌ منا على فراش يلتصق رأسه بالحائط، أعلى المدفأة؛ لنستغل حرارة جمراتها في الشتاء، لكنني لم أعد قادرة على النوم هناك. ما زلتُ أنظفها. هذا صحيح. إنها الحجرة الوحيدة التي أنظفها من الغرف التي لم أعد أستخدمها. في أيام الإثنين... في أيام الإثنين أمسح البيت بالماء: أبدأ بالمطبخ، ثم السقيفة المائلة الواقعة تحت التعريشة - حيث يوجد مرش الماء - ثم المرحاض، ومن بعده حجرتي، وفي النهاية غرفة أمي والرفُّ الذي ترقد فوقه جرّة أرمدة أبي المصنوعة من الخزف.

في ذاكرتي، لا يزال أبي جالسًا إلى جوار النافذة التي يرقب منها شوارع الحي غير المُعبَّدة، بحثًا عن أي أثر للتل والحقول وسط التكتلات السكنية نصف المشيدة، كفلاح خارج إطاره المكاني ينتظر أن تصفو السماء ليخرج وينزع جذيرات الأشجار. نحن في النهاية لم نرحل قط عن الضيعة، على الرغم من أننا ابتعدنا عنها كثيرًا. لقد ظللنا ملتصقين بوحل دروبها؛ هناك حيث تفقد المدينة اسمها. لطالما سُمعت تغريدات سعيدة من صوت نافذتنا؛ غناء عصافير الحَسُّون وهي تتسلق الواجهة غير المُجصَّصَة، حيث عُلِّقت يافطة كُتب عليها «مشروع السكن النقابي»

إلى جوار نير وجعبة من الأسهم [4]. أتذكر العصافير، وخاكوبا وزوجها اللذين عاشا في الطابق الأول في قفص صغير، مثل قفصنا، وراء نافذة مُزوَّدة بشبكة من الأسلاك، لكيلا تدخل إليهما فضلات الطيور.

اعتاد أبي أن يتحدث قليلًا، بكلمات أحادية المقاطعة؛ بكلمات تبدو كأنها قد عُجِنَت إلى أقصى حد كعجين الفخار. لم يكن رجلًا اجتماعيًّا. رغم ذلك، تجده ينزل إلى حانة المرأة الجاليثية[5]، كبقية البنائين وعمال المصانع؛ سواء المصانع السيئة أو المصنع الجيد الوحيد: مصنع السيارات. كان يستند بكوعه إلى المشرب أو يجلس إلى الطاولة معهم، وعلى الرغم من أنه قد يضحك على مزاحهم أو يتمتم بجملة ما بنبرته الحادة، بدا لي متقوقعًا على نفسه في كل الأوقات تقريبًا. بدا بعيدًا أشد البعد، ربما عند التل. لكنه على أي حال كان يترك نفسه محاطًا بثرثرتهم ودخان سجائرهم. حينما غيَّروا ورديته، اعتدت أن أتأمل تعبيره التائه عبر الواجهة الزجاجية، بعد خروجي من المدرسة. إنه أكبر من اللازم على أن تكون له ابنة في سِنِّي. أنا زَلَّتُه. لطالما راقبته بريبة، وهو منغمس في ذاته ويجترُّ همومه وينظر إلى مرور الوقت في ساعة معصم يده الرخوة. ما الذي كان ينتظره أبي؟ لطالما أرعبتني أصوات الرجال وطقطقة أصداف الحلزونات المختلطة بنشارة الخشب أسفل أقدامهم، كلما أرسلتني أمي لمناداته من «حانة الجاليثية». اعتادوا هناك أن يثقبوا ملاعق القهوة بخرَّامة لكيلا يتمكن المدمنون من تسخين الهيروين عليها، وكان لا بُد من طلب مفتاح للدخول إلى المرحاض؛

---

4- شعار حركة الفلانخي الإسبانية المستوحاة من الفاشية. أسّسها خوسيه أنطونيو بريمو دي ريبيرا، نجل الديكتاتور الإسباني بريمو دي ريبيرا، وتمكن الديكتاتور فرانثيسكو فرانكو لاحقًا من استغلالها أثناء وبعد الحرب الأهلية الإسبانية في توطيد حكمه، و«السكن النقابي» كان من ضمن مشروعاتها (المترجم).

5- نسبة إلى إقليم جاليثيا الإسباني. (المترجم)

مفتاح مربوط بحبل قذر متفتل. لم يكن هناك أي مصباح، ووجب على المرء أن يتبول في العَتَمَة.

لا أزال راقدة بعينين تحدقان في عوارض السقف كي أُطيل الزمن حتى انبلاج الصباح. لم أَذُقْ طعم النوم منذ يومين. تُرعبني احتماليةُ عودة أزمنة الأرق السيئة، مثلما حدث حين عُدتُ من لندن إلى الضيعة واضطرت أمي إلى لصق جفوني بلاصق طبي، ورغم ذلك لم أنمْ. لا تزال روح أمي ترفرف بين الجدران. صحيح أنني لم أعد أستشعر بقايا رائحتها في الملابس، لكنني أسمع صوتها، أو صدى صوت لم يكن لها بالكامل واعتادت أن تحكي لي به همسًا قصصًا رافقتني في طفولتي. تلك القصص المكررة التي لم تفهم هي أصلًا معناها.

– حين أدركوا أن المرأة قد ألقت بنفسها، كان القنديل لا يزال مشتعلًا فوق خرزة البئر.

قاطعتها:

– ما هي خرزة البئر يا أمي؟

– الجدار الحجري الذي يحوطه.

– ولِمَ احتاجت إلى الضوء؟ كانت ستنتحر!

أجابتني أمي وبين يديها خرقة لنفض التراب:

– أليس من المفترض أنك تحفظين القصة!

لم أرها جالسة قط إلا لتأكل، بل إنني أحيانًا لم أرها تجلس لتأكل أصلًا. حين أقمنا في برشلونة، اعتادت أمي أن تنظف بيتنا ليلًا بعد أن تفرغ من تنظيف منازل الآخرين، باستثناء أيام الآحاد، التي لطالما

فعلتْ فيها هذا الأمر في الصباح الباكر.

- أحبُّ أن تحكيها أنتِ لي.

ابتسمت أمي، فهي أيضًا كان يطيب لها التوغُّل عبر ضباب قصص المَيْتات العنيفة والأشباح التي تُروى في الضيعة، لكنها تظاهرت بالكسل، فالتصقت أنا التي لم تكمل سنواتها العشر بعدُ بتنورتها ومضيتُ خلفها حتى المطبخ. وجب تحضير العشاء، فأبي كان على الأرجح ساعتئذٍ في قطار الضواحي الذي يجلبه من المصنع السيئ؛ مصنع الخزف الذي عَيَّنوه فيه لإخراج قِطعه من الفُرن المقاوم للانصهار. اعتاد أن يصل منه متشبعًا برائحة غريبة تبدو كالأدوية، جراء الكيماويات التي يضعونها فوق خليط الرمال، وبالمثل أن يقول إن مَرَدَّ هذه الرائحة هو البُوتاس. آنذاك، كان أخي جابي لا يزال يعيش معنا، لذا وجب على أمي إخفاءُ النقود في إحدى السيقان المعدنية لفراشها، بعد لَفِّها في هيئة أسطوانية وربطها بشريط مطاطي. لطالما عبرت موسيقى جيتاراته وهزيمُها الراعدُ الجدرانَ الورقية ووصلت إلى المطبخ، رغم إغلاق باب غرفته. ثمة أغنية مُملَّة في الكاسيت كانت تتحدث عن الأوهام العفنة. قد تُكدر الأغاني حياتك. «**من دون حب في أرواحنا أو مال في معاطفنا، لكن، أنجي، لا يُمكنك أن تقولي إننا لم نحاول قط**» [6]. أنا أيضًا حاولتُ، لكنني كنت خائفة. المهم أنني وددتُ العودة لسماع القصة، لأنه كحال بقية القصص التي اعتادت أن تحكيها لي، ثمَّة تفاصيل تتغير، إما بمحوها أو بالمبالغة فيها. لطالما أبهرتني بتعديلاتها الصغيرة، لهذا أصررتُ:

- لماذا ألقت السيدة نفسها يا ماما؟

---

6- مقطع من أغنية لفريق «رولينج ستونز» وورد في النص الإسباني مكتوبا بالإنجليزية. (المترجم).

- لأنها صعبة الإرضاء. نزلت السيدة السلالم في قميص نومها، والقنديل في يدها، وما إن وصلت إلى البئر، إلى جوار الإسطبل، حتى فكّت الدلو من الدعامة العلوية، ثم أفلتت الحبل من البكرة. وضعت دلوًا في فم البئر، وأمسكت الآخر في يدها، قبل أن تمُدَّ الحبل على الأرض في اتجاه بيت «لاس برينياس».

- لماذا؟

- اصمتي وانتظري.

لم تعرف أمي الكتابة إلا لِمامًا، ولهذا وجب على أبي أن يكتب لها أرقام الحافلات لكيلا يختلط عليها الأمر كلما خرجت من الحي لتنظيف بيوت الآخرين. لم تعرف الكتابة تقريبًا، وعلى الرغم من ذلك بدت كلماتها، كلما حكت قصص الضيعة، كأنها مكتوبة في عالم آخر؛ كأن صوتًا عتيقًا، ليس لها، وقوامه من أصوات أخرى ورياح وتراب، يهب من فمها.

- هل ألقت نفسها عارية؟

- كما ولدتها أمها، وتركت كل شيء موضوعًا إلى جوار القنديل كي يعرفوا مكانها وأين هي. شارك خمسة من خدم المزرعة في إخراجها بقوة أيديهم، واضطر أحدهم إلى نزول البئر مربوطًا بحبل غليظ أمسكته بقيتهم.

نفذت أمي واحدة من توقفاتها الدرامية أثناء الحكي وسُمع صوت طقطقة البصل في المقلاة.

- والميتة؟ لماذا تركت حبل البئر ممدودًا قبل أن تقفز؟

- هذا هو نفس ما سألته الخادمات العجائز للعمة إيميتريا كانت عمتك

قد بدأت تعمل خادمة في بيت «لاس برينياس» وهي في الحادية عشرة؛ لأن الأمور كانت على هذه الحال آنذاك. أنا أصلًا لم أكن قد وُلدت، ولا أبوك نفسه.

وددتُ أن أعرف حتى أقل التفاصيل أهمية:

- وما الذي حدث بعد ذلك؟ ما الذي فعلوه.

واصلت أمي:

- ما إن اجتازت صرخات الخدم مدخل البيت، حتى أَمَرَ السيد خلدون الصغير بتسريج حصانه واجتاز أرض «لاس برينياس» ممتطيًا إياه، بحثًا عن القسِّ، والعمدة والطبيب. ترك الأطفال والحقول في عناية الخدم واستغرق ثلاثة أيام في العودة إلى المنزل.

تبدو أسماء الأساطير قديمة وغريبة وبعيدة عن الواقع.

- لقد حكت لي عمتك إيميتريا أن عائلة خلدون هم مَن سرقوا الأرض منكم.

- كيف؟

- لأنهم استغلوا الوضع. لم يرغب جدُّك في الذهاب إلى الحرب في كوبا، واضطر أبوه لبيع آخر رقعة أرض صغيرة بثمن بخس ليشتري بديلًا له. لقد أهدروا أرض المزرعة في نهاية المطاف بينهم جميعًا. آل ماروتو يحملون لعب الورق والنبيذ في دمائهم.

- ولماذا لم يرغب في الذهاب إلى الحرب؟

- لأن الجنود كانوا يعودون وكأن الجنون قد مَسَّهم! اعتادوا أن يقولوا

إن العذراء أو شياطين من لَحْمٍ ودَمٍّ ظهرت لهم.

أغلقت أمي الموقد ونشّفت يديها في مئزرها:

– كانوا يُقدِّمون الأرز والخبز الأسود طعامًا للجنود. لم يكن لديهم ماء أصلًا، ولأنهم ضعفاء، أصيبوا بالحمى في مستنقعات الأدغال. لهذا السبب شعر جدك بالخوف.

عبر بئر السلم مَيَّزْنا أبي، بِسُعاله المتعاظم وضوضاء خطواته فوق الدرجات. صمتتْ أمي فجأة وناولتني أربعة أطباق زجاجية بلون العنبر كي آخذها إلى الطاولة. أربعة أطباق، كما هو الحال في كل ليلة، على الرغم من أن أخي جابي لم يتناول عشاءه معنا؛ لأنه لم يشعر بالجوع قط. بينما أعود أدراجي، تردد الصوت المعدني لِولُوج المفتاح في القفل، ووضعت أمي إصبعها فوق شفتيّ لإسكاتي وهمستْ في أذني:

– لقد سرقت عائلة الغريقة أرضكم. كل «إل أتشويلو» كانت لكم، لكن آل خلدون ابتلعوها.

بذراعيّ المعقودتين هنا فوق فراش العمة إيميتريا، أسمع الآن صدى الماء المتمركز في العمق وأفهم عبر ضباب الطفولة أن غريقة البئر كانت موجودة ذات مرة، وأنها قريبة بعيدة لدون خوليان خلدون مالدونادو، وأن الموتى ينادون بعضهم بعضًا.

# التوأمتان

ها هي ذي نواقيس الموت مرة أخرى. دقَّت ثلاث مرات يوم الثلاثاء، أي بعد يوم من عثورنا في التل على دون خوليان. يتردد صداها الآن في مساء الخميس بعد أن أصبحت الضيعة كلها تعلم بوقوع المأساة. تعلن النواقيس أن حفل تأبين ذكراه سيبدأ في السادسة. إنه قُدَّاس من دون ميت، فقد دفنوا السيد بالأمس وسط أحبائه في العاصمة. فعلوها تقريبًا في الخفاء، كإجراء صِرْف. انتظرتْ تيودورا الواهفة وصول التوأمتين كي تقرع الأجراس تكريمًا لهما أو بدافع الاحترام كما يقولون؛ كأن حياتنا لا تزال عالقة في زمن الرؤوس المحنية المكشوفة وقت مرور الأسياد. تعيش شقيقتا خوليان خلدون في المدينة. لم أرهما قط، لكنهم يؤكدون في البلدة أنهما متطابقتان، طويلتان، وضخمتان، ولهما قدمان صغيرتان ضئيلتان مقارنة بجسميهما. يسمونهما هنا «توأمتي لاس برينياس» أو «الخلدونتين». يتهامسون بخصوص أنهما عقيمتان لأن أيًّا منهما لم تنجب. إنهم يتحدثون ويتحدثون ويتحدثون؛ ليس عن أنفسهم أبدًا ولا عما يلتهمهم من الداخل.

بوابة المقبرة مواربة، إلا أنني أعجز عن رؤية دميان. ليس موجودًا بين القبور ولا في محيط الكوخ الذي يحتفظ في داخله بمُعدَّات الحديقة. لا بد أنه في الكنيسة، مثل البقية. أدفع البوابة فيتجاوب مصراعُها ذو القضبان المنتهية بأطراف مدببة بصرير ترحيبي. يسود الصمت، باستثناء خطواتي فوق الحصى، ونسيم ما بين الأغصان، وصوت القرع البرونزي؛ ذلك الرنين البطيء والمَهيب: في البداية الناقوس الضخم، ومن بعده الناقوس الصغير الذي لا يُسمع إلا مع خفوت صدى الأول في الهواء. يعني قرع الناقوسين مرتين متتاليتين عند نهاية كل تتابع

أن الميت ذكر. لو أنها امرأة، ستصبح ثلاث مرات. لو أن الميت طفل، لغدا القرع أحزن وأبطأ، لكن ما من أطفال يموتون هنا لسبب بسيط وهو أنهم لم يعودوا يولدون؛ فكل مَن هُم في سن الإنجاب والتنشئة رحلوا منذ سنوات - وهي حقًا سنوات كثيرة - كما فعل أبواي، وخاكوبا، وزوجها وآخرون. علمتني أمي لغة الأجراس وطقوسًا أخرى هضمتها هنا من دون أن أدرك بنفس الصورة التي امتَصَّني بها الإيقاعُ الدوريّ للريف وتتابع الفصول، فذابت بقايا كل ما كنت عليه ذات مرة. حرق خشب أشجار التين سيئ. لا يجب زراعة الثوم والقمر إزميمًا [7]. أكثر شجرة تُحب أشعة الشمس، البلوط. أشجار الزيتون الجبلية تنتج زيتًا أكثر وأفضل من نظيراتها في الوادي. تتبدل الفصول حين يصيح الديك في غير وقته. السحب البيضاء الصغيرة المتراكمة تذير بسقوط حبات البرد. يتتابع العام وفقًا لمواعيد حرث الأرض وإراحتها. إنه ذلك التعلم البطيء.

من دون أن أعرف السبب، تقدمتُ نحو نهاية المقبرة، قرب تلك الأرض المائلة إلى الحُمرة التي يدعونها «باحة المشنوقين» ويحتلها الآن حوض مزروع بالأضاليا. كانوا يدفنون هناك بصورة منفصلة رُفَات من يتجرَّؤون على الانتحار. في قديم القِدم، لم يدفنوهم أصلًا، وإنما كانوا يضعون أجسادهم فوق مِحَفَّات، كأنهم قوم سوء، ويلقونها بعد ذلك في مكب النفايات كي تأكل غربان القيظ لحمهم. هذه أرض المنتحرين. قتَلَ ثلاثةُ أشخاص أنفُسَهم في العام ونصف العام الأخيرين، باحتساب دون خوليان. إنهم ثلاثة رجال تحديدًا: رفائيل، الحَلَّاق، شنق نفسه بحزامه المربوط في قضبان رأس سريره. وضعوا عدة مبررات لموته في محاولة لهضمه، كأن الانتحار لا بُدَّ له من مبرر، فقالوا إنه لم يعتدْ

---

7- الهلال إذا دق في نهاية الشهر وتقوس. (المترجم)

على ترمُّله، وإن عمره كان اثنين وتسعين عامًا، وإنه كان مريضًا. لم تكد تمُرُّ سوى ستة أشهر على وجوده في المقبرة، حتى انتحر خوان كاريثو، وهو جارٌ من قرية تقع على بعد عشرين كيلومترًا. ما زلت أتذكر القصة والتعليقات التي انتشرت في الضيعة جيدًا، خاصة وأن شقيق جده انتحر هو الآخر. على ما يبدو، فإن كاريثو صعد سهل الزيتون مع شروق الشمس وبندقيته فوق كتفه. أخذ وقته كي ينتقي شجرة -أكثرها انتصابًا على الأرجح - ثم جلس أسفلها واستند بظهره إلى جذعها، كحالي أنا الآن. كان صباحًا وليدًا في شهر مارس، ومَن يعرف: هل بلَّلَ الصقيع سرواله حين جلس؟ هل أخذ وقته لتأمل المشهد الطبيعي، أو فكر في أحد ولو لثانية واحدة قبل أن يزهق روحه؟ أم هل أنه - على النقيض - أسرع في تنفيذ الأمر، منقادًا باندفاع أعمى؟ لقد نزع فردة حذاء واحدة، اليمنى، ومن بعدها جوربه، ووضع سلاحه بين ساقيه، موجهًا فوهته عند طرف ذقنه، ثم سحب قفل أمانه وضغط الزناد بإصبع قدمه الكبيرة. مجرد طلقة واحدة. لا بُد أن صداها تردد أعلى الجبل. عثر راعٍ كانت نعاجه تجتر آخر ما بقي من شجريات زيتون «إل ميمبريار» الصغيرة على الجثة. في اليوم التالي، صعد إخوة المنكوب المسكين بحقائب بلاستيكية لجمع بقايا دماغه المبعثرة من فوق زهور المارجريتا البرية التي افترشت الأرض كسجادة صفراء.

يتجول الموت هنا بنواياه السيئة منذ الأبد. يعرف سكان هذه الأراضي الأمر جيدًا. ربما الكآبة هي ما يدعو إلى الفناء، أو الضباب الذي يُغلِّف الأمور ويتشابه معها كثيرًا. تفهَّمتُ في النهاية جيدًا روح هذه الأراضي، كأنني وُلدت فيها. أعرف معنى الوَحْدَة الكئيبة لمظاهرها الطبيعية، والمقام الكامل لمَغَرَّاتها [8]، وبالمثل خُضرتها التي تبدو زرقاء، هناك

8- جمع مغرة وهو وحل من تراب قاتم يُصبغ به. (المترجم).

في الأعلى، حيث تتراكب التلال. أعرف كيف تتواطأ همساتها: أزيز الصرانيخ، ونبش حيوانات خُلد الماء، والحراشف البرية التي تهزها الريح، وكيف يتكاثف الصمت معها بصورة أكبر. الزمن مغمور منذ قرون بماء الحاضر الراكد الأبدي، وهنا تتطابق كل لحظة مع اللحظات التي تليها. فوق منزلي، وفوق أعلى صخرة، على الجانب الآخر من المنحدر، يمتد الاتساع وغريزته النهمة في صورة أغطية متراكبة من الأراضي المزروعة والبائرة. أقاليم غائمة ومفرودة على امتداد خط الأفق الغليظ. الريف يُفرغ رأسك. لو استسلمت لعناقه العذب، سيجردك من جسدك، شريحة تلو الآخر، فالأرض الجائعة تُطالب بحقها؛ ذلك الذي كان لا يجب ألا يرحل عنها قط مع شتات الجوع.

لقد ظلَّت هذه الأراضي طيلة قرون حصنًا يقف في ظهر العالم والطرق الرئيسية والتاريخ، أما الآن فنحن قِلَّة ومُتصاهرون إلى أقصى حد فيعرف أيُّ أحدٍ مَن الذي فعل ماذا، حتى وإن طمس الزمن الأحداث. بمجرد أن أشحذ أحاسيسي، أسمع همسات وإذا بروائح صدئة تدخل من منخريّ. الدم أحمر ورائحته كالحديد.

– قولي لي يا أمي. لِمَ هرب الرجال من الضيعة؟

– رحلوا إلى أعالي الجبل، ليلًا وسيرًا على الأقدام، تحت قيادة دييجو أيورا، الأكتع. ثمة شقيق للعمة إيميتريا رحل معهم. هذا هو ما قالوه. هناك كثيرون لم يعودوا من الحرب. كُلُّ مَن مكث هم العجائز والكسحاء ومَن ظَنَّ أن ليس لديه ما يخشاه.

أتراجع، ثم أنعطف يمينًا وأقترب عبر الزقاق من كُوَّة الدفن الأسمنتية الموجودة في الصف الثالث أسفل حلية القراميد، حيث ترقد أمي. أحيانًا، أجلب إليها زهور الكحلاء وإكليل الجبل من مسيراتي عبر التل. آتي

كثيرًا. لا أترك وقتًا يمر كي تنسج العناكب شباكها في زوايا المحراب أو كي يجد الطمي والتراب مُستَقرًا لهما في الفتحة. أنا لا أُصلّي، لأنني لست من المصلين، لكنني أرافقها. أجلس فوق العشب وأتحدث معها مستندة لواحدة من أشجار السرو، التي يطلي دميان جذوعها بالجير حتى منتصفها لكيلا يأكلها فطر الفارس الرمادي.

قولي لي، يا أمي، ما الذي عَذَّبَ السيد خوليان كي يشنُقَ نفسه؟ ما الذي كان يَعُوزه؟ قولي لي. في البداية قتل العجوز رفائيل نفسه، ومن بعده خوان كاريثو ببندقية، والآن خوليان، صاحب مزرعة «لاس برينياس». أين أقحمت نفسي؟ أنا التي جئت هاربة من الموت ومن الأشباح ومن النهر الذي ظل يناديني. أشعر بالخوف أحيانًا يا أمي؟ لِمَ هذه الانتحارات الكثيرة في هذه الأراضي؟ ولِمَ هذا التضاد، إذ تحدُث بصورة شبه دائمة في الربيع حين تتبرعم الحياة! تُفضّلين الصمت اليوم. أنت مُستغرقة في أمورك. لطالما قصصتِ عليّ وأنا طفلة حكايات مشابهة عن المشنوقين الذين لا يرقدون في سلام وكيف يتجولون ليلًا في الضيعة بحثًا عن العزاء. هل تتذكرين؟ اعتادت العائلات أن تأتي يائسة حتى «إل أتشويلو»، لتسأل العمة إيميتريا عن السبب. ما زلت أتخيل أنني أنظر إلى فمك هذا الذي يتحدث ولم يكن كله لك، وبالمثل سماع صوتك الذي جذبني بسحر الخرافات والموت في حقبة الطفولة. اعتدتِ أن تقولي: «إنها أشجار الجوز، فهي تطلق أبخرة خبيثة في الهواء تُصيب الناس بأمراض عصبيَّة وأشياء على شاكلتها». أتتذكرين؟ «اعتقد البعض أن الناس تقتل نفسها بسبب الريح التي تدخل في آذانهم وتصيبهم بالجنون. يظن آخرون أن مَرَدَّ الأمر هو الدم الزنخ، من زواج الأقارب». أو أنه الماء الذي يشربونه، أو الزيتون، أو الارتفاع. ثمة ليالٍ فضَّلتِ فيها أن تقولي إن الذنب ذنب المَجَريِّين الذين وصلوا منذ قرون

إلى هذه الأراضي بقيثاراتهم والحُزن المخفي في صناديقهم. لطالما قلتِ إنه لهذا السبب ظَلَّ الإقليم يتمازج فيه الشُّقر ذوو العيون الزرقاء والخضراء والزرقاء المائلة إلى الرمادي. هؤلاء الشُّقر، كحال مالك أرض «لاس برينياس». ذكرتِ «المَجَريِّين» فقط، لكنني علمتُ مؤخرًا أن ألمانًا وسويسريين وفلمنكيين، وأناسًا من الشمال كانوا موجودين هنا. كُلهم عرضة للاكتئاب ولم يُخلقوا لنار الصيف المستعرة في هذه الأراضي. لقد حكى لي القس أن كارلوس الثالث جلب مستوطنين لهذه الجبال، منذ نحو قرنين ونصف مع حركة إعادة التعمير التي دشّنها، لتطهير السُّبل من قطاع الطرق وجَلْب الازدهار للأراضي غير المأهولة. وجب عليهم أن يكونوا كاثوليكيين وأن يمتهنوا الحرث، وأن ينسجموا مع العيش في شتات المنازل المنعزلة في أرض يصعب الوصول إليها، والتنقل فوق الأحصنة وما هو أكثر. وعدوا كل عائلة مستوطِنة بأرض مساحتها خمسون فانيجا [9] ومعول ومعزقة وديك وخنزيرة أم، لكن مقاول الأفراد حاك مؤامرته جيدًا وأرسل في النهاية أقزامًا، وعجائز، ومرضى، وشحاذين، ومنشقين، وكسالى، ورجالًا قليلي القوة لا يعرفون الريف. كانوا مجرد ممثلين كوميديين من مسارح مغمورة وفضوليين شيطانيين قضوا حياتهم بين الحُمَّى والجنون والنبيذ، كأنها إحدى لعنات الكتاب المقدس. بدوا جميعًا كالجثث. يقول القسُّ إنه قرأ عن الأمر وإنهم زرعوا بذرة الانتحار الخاوية في هذه الأراضي.

كلها أساطير بهرتني وأنا طفلة حتى جاء اليوم الذي توقفتِ عن الكلام فيه فجأة وكسرتِ مرآة الحمام بالمطرقة ووددتِ أن تعودي إلى الضيعة، تاركة إياي ورائك. هل تتذكرين يا أمي؟

---

9- وحدة قياس اسبانية. (المترجم).

ها هو الأنين الجنائزي للنواقيس من جديد يا أمي. لا بُد أن حفل التأبين انتهى. وداعًا، أمي، سأعود سريعًا. أجتاز البوابة، وأنعطف عند الناصية بخطوتين واسعتين، أسند عودي إلى الحائط الجانبي، حابسةً أنفاسي. لا أودُّ أن أصادف أحدًا في الشارع، ولا حتى القس. أتقدّم بصمت، وظهري ملتصق بالجِصّ، خطوة تلو الأخرى، من دون أن يغيب عن بصري الشارع الذي يُفضي إلى بوابة الكنيسة الضخمة. من المستحيل أن يكتشف أيُّ أحد وجودي هنا، عند السياج الخلفي للمقبرة، وراء أشجار التوت البري بعناقيدها الحمراء والسوداء. سأعود إلى المنزل حينما يودعون بعضهم، ويقدمون التعازي، ويتفرقون. إن سرتُ بخطى جيدة، سأصل إلى «إل أتشويلو»، في غضون ساعة.

أجلس أرضًا لأدخِّن، بعد تربيع ساقيّ كالهنود. تغرب الشمس. أظن أنني مَيَّزتُ عبر درب العصور القديمة، هيئة شخص يقترب جارًّا قدميه، وهو يستند إلى عكاز ومعه حقيبة بلاستيكية في يديه. إنه هو بلا شك. إنه روداليس، «فزاعة الطاحونة». مظهره لا يُمكن إخطاؤه. يدعونه روداليس تحديدًا بسبب البقع الموجودة في معطفه اللامع المتسخ دائمًا والواصل حتى قدميه. لا ينزعه قط؛ لا هو ولا قبعة الحاصد التي يرتديها على الدوام، سواء كانت تمطر أم تثلج، وهذا رغم أنه هنا، في تِيهنا وسط هذه الجبال، ما من شتاء يمر من دون ثلج. يُخيفني العجوز روداليس. أنهض كزنبرك، أنفض التراب من فوق مُؤخَّرة بنطلوني، وحين أستعد للدوران، يرفع يده ليُحييني. عليّ أن أنتظر. أُفضّل أن أكون على وفاق مع هذه الدمية المتحركة. ها هو يأتي، بمعطفه البني كالسُنبلة، وياقته العريضة، كأيام السبعينات. أقول له:

- كيف أحوالك؟

- لقد أتيتُ لأجلب بعض الهندباء البرية.

تبدو رائحة روداليس كَدُخَان النار والبول معًا. من دون أن ينظر إليّ تقريبًا، ينطلق بتسرُّع وشهوة ليجمع الهندباء البرية التي تنمو ملتصقة فيما بينها، كأنني سأسرقها منه. يعرف أنني أنظر إليه، لكنه يستمر فيما يفعله محني الظهر، وذيل معطفه مفتوح كجناحي خفاش مكسورين. يسألني:

- ألا تحبين الهندباء البرية؟

- اعذرني. أفضل الخَسَّ الذي ينمو في بستاني.

يقول ضاحكًا بضحكته الناقصة المكتومة:

- إنها طرية ولذيذة.

- جميل. أنا سأمضي الآن.

لا أعرف لماذا أتحاشاه. ثمة ما يدعوني إلى تفاديه.

- هل سترحلين يا «ماروتا» [10]؟ هل معكِ تبغ؟

أقول له نعم وأخرجه من جيب معطفي، مع الورق والفلاتر. يعتدل روداليس، ويحرر ذيل معطفه الذي كان قد تشابك مع شجيرة عُلّيق، ثم يقترب. ما إن بدأت في لَفِّ سيجارة له يقول:

- انظري إليهما. انظري إليهما. ها هما تان تأتيان من هنا.

- مَن؟

---

10- نسبة إلى عائلة مار[illegible] (ال[illegible]

- هل أنتِ حمقاء؟ مَن ستكونان؟ أقصد التوأمتين من عائلة خلدون.

بينما ألتفت، تقطع سيارة أجرة الشارع من بعيد. ثمة رأسان شقراوان في المقعد الخلفي. لا أعرف إن كنت أراهما أم أنني أتخيل الأمر. رأسان شقراوان، جسدان يتشحان بحداد يتراوح بين الرمادي والأسود، وهو نفس لون أرض «لاس برينياس».

# حانة توماس

الأحد هو يوم الشُّرب. أرتدي بنطلون الجينز النظيف، وأعْقِصُ شَعْري في ضفيرة، ثم أهبط المنحدر، وأمضي عبر الدرب الترابي في اتجاه الضيعة؛ نحو حانة توماس. أشرب إلى حَدِّ الملل، إذا سمح فمي لي بالأمر. إما وحدي وإما مع الرجال الذين ينضمُّون إليّ، بعد أن اعتادوا على وجودي مع مرور السنين. أُقلِّد دائمًا إيماءاتهم، حين نبدأ في لعْب الورق، وهم يُقيِّمون تضاريس النساء اللاتي يظهرن في التلفاز، كأنني رجلٌ منهم. أصمت وأظل كامنة في مكاني، فهنا، ما من أحد يوجه أسئلة زائدة عن الحد.

النهار بات طويلًا. إنها السادسة مساء ولم تجد الظلال مستقرًّا لها بعد. أنا على وَشْك الوصول. عدد السكان نحو مائة شخص على أقصى تقدير، وكل منهم له منهله ومكانه. تقع حانة الأشخاص العاديين والمزارعين أصحاب الأرض في ميدان الكنيسة في وسط الضيعة، أما حانتنا ففي ضواحيها، قبل محطة البنزين. إنها حانة الغرباء والقوم المجانين المُرِيعين. إنها حانة المختلفين والعزاب العُجز والسكارى ومَن لم يؤمنوا بالنقود. حانة مَن مَسَّتهم رياح الحياة. لا تحضر أي امرأة إليها سواي؛ إلا في بعض الأحيان المتباعدة حين تأتي الأرملةُ التي تعيش مع شقيقها الأعزب في بيت المستنقع. ما من أحد يتجرَّأ على دخول أرض ليست ملكه.

يروقني توماس وحانته، رغم فوحان رائحة الرطوبة والكِلْس والرخام من جدرانها شديدة الغلاظة بلونها الذي يشبه الزبدة الزنخة، والتي تتدلَّى منها صور مؤطَّرة مثبتة بمسامير. مجرد صور بالأبيض والأسود لمطربي الروك ونجوم هوليوود القدامى. في الواقع، إنها ليست حانة أو

أي شيء أصلًا، بل إنها متجر أمه القديم حيث كانت تبيع مستحضرات لحم الخنزير، والبقوليات وزيت الجمعية التعاونية، ثم أضيفت إليه عدة أمتار مأخوذة من المخزن بعد هدم الجدار الفاصل وتركيب مشرب فُصِّل خصيصًا لهذا الغرض. عمل توماس في العاصمة كساعي بريد، لكنهم أجبروه على التقاعد مبكرًا، فعاد إلى الضيعة. يعيش في الأعلى، مع أمه العجوز، وحتى وقت قريب حظي بصديقة من القرية المجاورة؛ نصف خليلة تعمل في الخزف. أحيانًا، يُشغِّل توماس بعض الأفلام لتسليتنا. أفلام الغرب المتوحش أكثر ما يروقنا جميعًا. لا يوجد نقاش حولها. لقد شاهدنا فيلم «ظهيرة مشتعلة» [11] نحو أربعين مرة. أحفظ كلمات الأغنية بحذافيرها. «**لا تنبذيني يا عزيزتي**»[12]. يمكنني أيضًا أن أعيد تمثيل المشهد الذي يكتب فيه جاري كوبر وصيته، انتظارًا لوصول قطار منتصف النهار، لقطة تلو الأخرى.

توماس ليس شخصًا سيئًا، فهو مثلي: مجرد صعلوك آخر مهجور في غرفة مهملات القرية. ينتمي كلانا إلى الجيل الذي أضاع نفسه بين المتعة والانتظار. عقص شعره اليوم في ضفيرة شيباء شعثاء. توماس «هيبي» عجوز سهل المراس يجيد اختيار الموسيقى ولهذا لا يُشغِّل إلا الموسيقى التي يجب تشغيلها. «ذا رولينج ستونز»، «ذا كينكس»، «ذا سميثز»، وأيضًا «بينك فلويد» و«جينيسيس»، «وذا كلاش». كله وفقًا لأحوال المساء. «**لقد قاومت القانون، لكن القانون انتصر**» [13]. يشغل توماس كل الأغاني التي اعتدتُ سماعها حين وصلت إلى لندن، حين

---

11- ورد الفيلم في النص بالاسم التجاري الذي عُرف به في إسبانيا وهو «Solo ante el peligro» أو «وحيدًا أمام الخطر». بعد البحث تبين أن المقصود هو فيلم «High Noon» من إخراج فريد زينمان. (المترجم).

12- ورد مقطع الأغنية في النص الإسباني مكتوبًا بالإنجليزية. (المترجم).

13- مقطع من أغنية لفريق «ذا كلاش» وورد في النص الإسباني مكتوبًا بالإنجليزية. (المترجم).

كانت الشمطاء تاتشر قد قست على عمال المناجم بالفعل، وبدأت تلتفت إلى العاملين في مجال الفنون التصويرية. يتفهم توماس، من دون أن يعرف شيئًا أن بعض الأغنيات قادرة على قتلي. يخدمني بثقة ويتحدث قليلًا. في بعض الأحيان، قد يشغل موسيقى الـ«ريغي» لإبراهيما ويتركه يلف سجائره. لا يروقني تدخين حشيشة الرجل الأسمر. لا أحتاجها، إذ تجعلني أتوعك، وتُخدر رأسي، فتختلط عليّ الأصوات. ما أفضِّلُه هو النبيذ.

من مكاني هنا يمكنني قراءة اللافتة الموجودة فوق عتبة الباب العلوية: «حانة تومي»، كما في أغنية «ذا هو»: «**تومي هل يمكنك سماعي؟**». ثمة شخص ربط كلبه في الحلقة المثبتة بالجدار. إنها كلبة روداليس. صحيح. تعرفت عليها بسبب الحبل المتسخ المتصل بطوقها، وفرائها المتسخ هو الآخر أيضًا.

أعبر ستارة شرائط الألومنيوم التي يفترض أنها ستُنقذنا من البعوض القادم. يقف روداليس، مستندًا إلى المشرب، وينظر إليّ مبتسمًا بفمه الذي يشبه حيوان ابن مقرض. أردُّ تحيته بجفاء. لا أعرف ما هو لقبه أو ما هي كنيته، هذا إن كان لديه أي منهما أصلًا. يُجفف توماس بعض الأكواب بخرقة ويضعها على الرف السفلي للخزانة الزجاجية أسفل المِساحة المُخصَّصة لعرض الزجاجات. يُحييني بضربة في طرف الذقن. أطلب إليه كوبًا من النبيذ، ولا يبخل عليّ بشيء. التلفاز مفتوح، لكن بلا صوت، ويعرض أغنية لـ«داير سترايتس».

فضَّلَ بقية الطاقم - بقية قوى الهدم الحية - الجلوس في نهاية الحانة حول مائدة قصيرة: القسُّ أندريس، ودميان حفَّار القبور، وسباستيان ماجانيا صاحب ورشة الصاج، وشقيق الأرملة أركاديو «الدباغ»، الذي

يدعونه هكذا؛ لأن والده امتهن هذه الصنعة. أعلم أن لديه قطيعًا من الماعز بالقرب من المستنقع. نحن جميعًا هنا، بالتمام والكمال. نحن سلاطين التقلبات.

أقترب من جوقة الثرثارين. يُحييني القسُّ بقبلتين تقتربان أزيد من اللازم من فمي. ينظر إليّ، ثم يوجه نظرته على الفور نحو شراب الـ«خوتابيه» مع الكوكاكولا. لقد ألقى عظته ظهرًا على الأرجح ومكث في الضيعة لتمضية المساء. حينما يعرف مُسبقًا أنه لن يحضر العظة، يتركها مكتوبة ومعها خبز الذبيحة المقدسة كي توزع الواهفة تيودورا المناولة على النساء المفرطات في التقوى. أصافح البقية بيدي. تتحرك المقاعد القصيرة عديمة الظهر الآن ليفسحوا لي مجالًا، ثم نجلس.

أحب دردشة الرجال، فهي عمومًا كوميدية وصادقة وعامرة بأهداف محددة وبسيطة، لكن الحال ليست هكذا اليوم، فمع وفاة السيد ازدهرت الشائعات والقيل والقال والأساطير القديمة والخرافات وتصفية الحسابات والفزع الديني. كلها أمور راسخة في أذهانهم. أنا نفسي لا أستطيع الفكاك من عناق هذا اللبلاب. مَرَّ أسبوعان وما زلنا نلُفُّ وندور حول الموضوع نفسه بإصرار ذباب الخيل؛ لأنه حين تشهد الضيعة انتحارًا في أي منعطف في هذه المنطقة الجبلية، يخشى الناس أن يتبعها سريعًا وفي الأيام اللاحقة انتحار آخر، كما ينتشر الطاعون بسلسلة عدواه الخفية.

يقول ماجانيا:

– يحدث هذا الأمر في بعض العائلات. أقصد مسألة الانتحار، كأنها في دمائهم.

يرتدي الميكانيكي بذلته الزرقاء كعادته. لم أره قط في أي زي آخر. لا

يعود عليه عمل السيارات بمال كثير؛ لأن السيارات أصلًا لا تمُرُّ هنا، لكنه ينجو في هذه الحياة على أي حال عبر إصلاح أغراض القرية: مرجل، أو محرك مسبح، أو درَّاسة قمح، أو فرَّامة لحوم. لقد ركَّب لنا وصلة الكهرباء ولم يعارض السيد خوليان الأمر. ما زلنا نمتص الكهرباء من العمود الذي يصعد تياره إلى لاس برينياس.

يجيبه دميان، حفار القبور:

- لكن رفائيل الحلاق شنق نفسه هو الآخر، وعلى حد علمنا، لم يرتكب أحد من أهله هذه الفعلة قط.

- رفائيل حالة فردية. أغلب مَن ينتحرون يحملون فوق كاهلهم ميتًا آخر من العائلة، كعناقيد الكرز التي تتشابك مع بعضها.

- يأتي المنتحرون دائمًا اثنين تلو اثنين.

- يصيبون بعضهم بالعدوى.

- إنها جيناتهم.

- كلها أكاذيب. إنه الإحباط والبؤس. كم عدد الناس الذين اضطروا إلى الرحيل عن هنا في الخمسينيات؟ ألا تتذكرون؟ لقد اضطرت عائلة ماروتو إلى الرحيل.

ينظر ماجانيا إليّ. أومئ برأسي لكنني لا أقول شيئا. أجل، لقد اضطر أبواي إلى الرحيل عن هنا من دون معرفة أننا سنضطر إلى العودة، أو ربما خمن أبي الأمر؛ لأنه لم يود قط بيع بيت الضيعة؛ الشيء الوحيد الذي كان لدينا.

- حسنًا.. عائلة كوباليدا الذين عاشوا عند منحدر «إل خارّاميو» لم

ينقصهم شيء، وكاتالينا شنقت نفسها بكُلَّابة في الحظيرة.

كلمة «كُلّابة» وحدها تهُزُّني. بأي إحباط ربطت الحبل بذلك الجزء المعدني البارز؟ كاتالينا هذه هي أول امرأة مشنوقة أسمع أحدًا يتحدث عنها.

- انتحرت كاتالينا؛ لأن خطيبها تخلى عنها، قبل ثلاثة أيام من زفافهما.

- انتحرت بفستان الفرح. حضرتُ السهر على موتها. وضعوا في تابوتها ملاءاتِ شوارِها التي طُرّزت فوقها الأحرف الأولى من اسمها واسم خطيبها المختفي.

فستان الفرح؟ يا للفزع! أغلق عينيّ وأرى هذه المرأة تتدلّى من خطاف. وحيدة ومنبوذة، ونسيجا التُّل والأورغندي بلونهما الأبيض يصلان حتى كاحليها، والدجاج ينقر قدميها بلا مبالاة.

- حتى النساء يشنقن أنفسهن هنا.

مكتبة
t.me/t_pdf

- يا أخي هذا هو الخراء بعينه.

- وعائلة بوليدو؟ ما الذي لديك لتقوله لي عنهم؟ في البداية فعلها الأب، ومع مرور السنوات، قتل أبناؤه أنفسهم، كلهم شنقًا. أصابهم الفزع وشنقوا أنفسهم جميعًا، واحدًا تلو الآخر، عند أشجار مزرعتهم.

- لم يود أحد أن يذهب للعيش في بيت عائلة بوليدو، وهذا لأن القسَّ ذهب آنذاك مع مِرَشَّة الماء المقدس وصلواته لمباركة البيت.

- هذه حالة منعزلة بذاتها، أكثر من اللازم.

- يقولون إن أحد سكان «إل سالوبرال» قطع رقبته بسكين الذبح.

الموت يُبهرهم. يتناولون الانتحار بعفوية مذهلة، كأنه لا شيء، فيبدو مَن يأخذ خيط المحادثة كأنه سيتحدث مثلًا عن المطر الذي لم يهطل؛ أو كأنه ما من حاجز موجود بين الحياة والموت. أيًّا كان الشخص، فهو يُصاهر أو يعرف عائلة شخص آخر انتحر هنا، أو في الأرض المجاورة، أو تلك التي تليها. مَن ينتحرون يتَّكلون على موتى آخرين؛ على عادة نزاع الموت لمَن سبقوهم. يتحدث الرجال عن المنتحرين باحترام، بتوقير نوعي، كأن ثمة هالة من الغموض تضعهم في مكانة فوق الأحياء.

يحكي القسُّ، كأنه تعليق عابر:

- قَصَّ عليّ دون إجناثيو أن طبيبًا نفسيًّا جاء إلى الضيعة منذ عدة سنوات، في منتصف الثمانينات تقريبًا، وذهبتُ لمقابلته.

إنها مفاجأة تجعلني أحدِّق في عيني أندريس:

- الطبيب النفسي؟

- طلب إذنًا للبحث في أرشيفات الكنيسة؛ في سجل الوفيات. من المعروف أنه زار عدة قرى في الإقليم.

أسأله بإصرار:

- لماذا؟

- بسبب الإحصاءات. معدلات الانتحار هنا آخذة في الارتفاع. تضاعفت، وأغلبهم ماتوا شنقًا.

أوَدُّ أن أسمع المزيد حول زيارة الطبيب النفسي للضيعة، وتحقيقاته، لكن ماجانيا يعيد المحادثة إلى الشأن الذي يخصنا؛ إلى السيد:

- ما أعجز عن تفسيره هو كيف تمكّن دون خوليان من تحمُّل الأمر طيلة هذه السنوات.

يقول الدفَّان بالثقة التي يوفرها له عمله:

- الموت صبور.

حتى في أقسى فترات الشتاء، حينما تمطر ثلجًا، يرتدي دميان صندلًا وجوربًا صوفيًا يبدو فارغًا عند طرفه. لقد اضطروا إلى بتر أصابع إحدى قدميه بسبب السُّكري، ويبدو أنه يُحب ألا ننسى الأمر. يسقي دميان أشجار السرو، ويزيل الأعشاب الضارة ويغلق بوابة المقبرة حين يحل الليل. كان دميان من سَدَّ كُوَّة الدفن الخاصة بأمي بالأسمنت.

- حين يُعشِّش هذا الأمر في أدمغتهم، يبدؤون في الانهيار.

مَن يتحدث الآن هو توماس. في الحقيقة. لا يهُم كثيرًا مَن يتحدث أو ما الذي يضيفه إلى التكهنات. كل ما أفعله غالبًا هو الإنصات ومحاولة فصل الحقائق الواضحة كالألماس عن أنصاف الحقائق.

- يقول إن السبب هي الديون.

- الديون؟ عائلة خلدون لديها مال وفير.

- حصاد الزيتون كان سيئًا.

- تدر الأرض عليهم مالًا وفيرًا.

- الأراضي ليست مالا. إنها سبب للاستياء ووجع الدماغ.

يعلن رنين الستارة المعدني عن وصول رعية جُدد: إبراهيما وفيتالي، في ملابس العمل. يطلب الأوكراني كوبًا من الـ«أغواردييينتي» المحلية

بدون إضافات، وهو أقرب شيء إلى الفاكهة، أما إبراهيما فشرابًا كحوليًا بطعم التفاح مع الثلج في كوب طويل. أتعجب من الأمر، فأنا لم أره يشرب شيئًا سوى الجعَّة. لا يتحدث عن الدين، لكنه يلتزم بصيام رمضان، ويحتفل بطريقته بعيد الأضحى.

يقتربان ويجلسان إلى المائدة المجاورة، فتتسع الدائرة. أسألهما بدون مقدمات:

- هل لديكما أنباء؟ التوأمتان، هل وصلتا؟

يهُزُّ فيتالي «بياض الثلج» رأسه. لم يفتح إبراهيما - الذي جلس إلى جواري - فمه إذ ظلت نظرته تحدق إلى الأرض. يُفقده موت السيد تركيزه. لا يرتدي ما يغطي ساقيه بالكامل، رغم أن الصيف لم يأتِ بعد، بل يرتدي بنطلونًا رياضيًّا مقطوعًا عند الركبة. إن تعافي أنسجة جسد هذا الفتى سيئ، فندبة ساقه ما زالت تبدو طرية، وهذا رغم مرور ثلاث سنوات على تعرضه للطعن. تبدو الندبة كحاشية جيلاتينية مطرزة أفتح لونًا من بقية بشرته كحال راحتي يديه.

أُصر:

- لا شيء على الإطلاق؟

- كنت أروي البستان حين وصلتا، لكنهما لم تريانى.

يلتفت فيتالي، بعد أن كان ظهره للمشرب ويشير إلى توماس كي يقرب إليه الزجاجة:

- كانت التوأمتان بعيدتين أكثر من اللازم كي توجِّها إليّ التحية. خرج ديونيسيو لاستقبالهما وحمل حقائبهما. رحلت سيارة الأجرة التي

أوصلتهما على الفور. لم تظهرا بعدها طيلة المساء. كانتا لا تزالان داخل البيت الكبير حين رحلنا.

- التوأمتان لم تأتيا للبقاء هنا. لا بُد أنهما جاءتا لتقليب الأوراق ونهب ما تجدانه في متناولهما.

لقد قرأ ماجانيا أفكاري.

يسأل داميان الآن:

- وأنت يا أسمر، ما قولك؟

يرفع إبرا كتفيه ويتجرَّع رشفة من شرابه. بعدها، ينظر أركاديو «الدباغ»، الذي ظل صامتًا حتى تلك اللحظة إليّ وينطق:

- بيعي الشاليه إلى التوأمتين يا «ماروتا».

تنفجر ضحكات الرجال، باستثناء فيتالي وإبرا، إذ يكتفيان بالابتسام فقط، لكنهما على الأرجح لم يفهما المعنى الساخر للأمر. يقهقه «الدباغ» بفم مفتوح يظهر لثته الملتهبة وأسنانه المقطوعة بمنشار. أعرف أنه يفكر في السياج العفن، وتجصيص السقيفة الضارب إلى السواد، والعشبة الخبيثة الموجودة فوق السقف. ربما في نهديَّ المتهدلين. أضحك أنا الأخرى، أو أتظاهر بالضحك، ثم أتجرع رشفة. أكاد ألقي النبيذ في سقف فمي. أتحمل نظرته إلى أن أجبره على الإشاحة ببصره. خذ حذرك يا جثة، نحن إناث الذئاب نعرف أين علينا أن نعض.

يمعن روداليس النظر إلى تسامرنا، لكنه لا يتدخل. يملأ توماس كوب روداليس بالـ«كلاريتي»، وهو نبيذ باهت يبدو كمياه مخلوطة بألوان الماء، أو مياه غسيل ملابس ملطخة بالدم. يُقدمه له مجانًا. ربما لأنه

ليس في حاجة إلى أن يشرب كثيرًا كي يثمل ويتوقف غالبًا حين يصل إلى معياره المضبوط. ذات مرة، حينما أفرط في الشرب، قطع روداليس شوارع القرية بلحيته القذرة كنبيٍّ وهو يترنح ليطلق لعناته الكحولية وشتائمه في الهواء: «لا تختبئوا يا أولاد الساقطة. سيأكل الدود ألسنتكم داخل التوابيت. يا قطيع الجبناء، يا مقرون منكَ لهُ. أعرفكم جيدًا وأعرف كل ما فعلتموه وكل ما فعله أهاليكم. ألا تتذكرون الأكتع، دييجو أيورا؟ ستحترق مؤخراتكم بجمرات الجحيم قبل أن تعترفوا بالحقيقة. أنتم موتى». يأتي كثيرًا على ذكر دييجو أيورا، الذي يظهر أيضًا في قصص طفولتي. لطالما حكت أمي لي أنه كان ضمن من فروا إلى الجبل. لم يكن بذراع واحدة، لكنه امتهن الحدادة، وصغّرت حرارة الفرن من حجم لحم ذراعه. حينما يُنهك روداليس من الحديث وينتهي ثمله، يعود إلى الطاحونة. أعرف أن القسَّ أندريس يجلب له هو الآخر العدس وبعض علب التونة، وإذا لم يحدث هذا، ينصب روداليس فخاخه ويخرج لسرقة الفطر أو لاصطياد السلطعونات من النهر.

ما إن هدأت الضحكات، حتى قال حفار القبور:

- دون خوليان عاش وحيدًا جدًا في «لاس برينياس».

يشير القس إلى إبرا و«بياض الثلج»:

- وحيدًا؟ وماذا عن هذين الهجينين؟ أيضًا، هناك ديونيسيو، رئيس العمال، الذي يمتلك بيتًا هناك، أليس كذلك؟

- وَفقًا لما يُقال، فَخُوليان كان على خلاف قاتل مع التوأمتين.

- لم يعد يذهب أصلًا إلى العاصمة، وكل الشؤون الإدارية تولاها ديونيسيو.

- التعيس المسكين. لم يعد قادرًا حتى على ركل كرة بقدمه.

لا بُدَّ أن ديونيسيو في قمة الحزن. أعرف ما أعرفه، لكن أُفضل الاحتفاظ به لنفسي.

يقول توماس:

- جاء في ذلك اليوم وثمل كثيرًا. في النهاية اضطررت إلى طرده. صحيح أنني فعلتها بطريقة جيدة، لكنني في النهاية طردته. مكث هناك في الخارج لبرهة طويلة، عند الرصيف المُبلط، وظل يصرخ بكلام فارغ: أن ثمة مأساة ستسقط فوق رؤوسنا، وأنه سيحين وقت ندرك فيه الأمر. كلها أمور على هذه الشاكلة، ثم صعد إلى «لاس برينياس» سكرانًا إلى أقصى حد.

- ما حدث هو أن السيد قد مَسَّه الجنون.

- مَسَّه الجنون؟ هذه هي حالنا. نحن مجانين لأننا فقراء.

إن آراء إبراهيما الحصيفة الصغيرة تُفحمني.

- خوليان خلدون كان مهووسًا بمسألة أبيه.

- لكن إن كانت سنوات كثيرة قد مَرَّت!

- الأمر سيان. الأمر كان محفورًا في رأسه: «ألقت جدتي نفسها في البئر. شنق أبي نفسه. أنا أيضًا سأشنق نفسي».

- كانت أم جدته هي مَن انتحرت.

- لا، بل جدته.

- وما أهمية الأمر في حالتنا؟

- أن ذريتهم ترتكب نفس خطيئة ذبابة اللحم [14].

أسمع وأكاد ألا أصدق. الجدة أو أيًّا كانت ماهيتها في عائلة خلدون قد انتحرت؟ إنها غريقة بئر طفولتي، لكن.. ابنها؟ أو والد خوليان انتحر هو الآخر؟ لم تُشرْ قصص أمي إليه قط. أم أنني لا أتذكره؟ هل عرفته هي أصلًا؟ ربما كانوا قد رحلوا عن الضيعة حين انتحر ابن الغريقة. أسأل:

- متى حدث هذا الأمر؟

يصنع دميان، حفَّار القبور، إشارة بيده في الهواء كأنه يعود عبر الزمن أربعة عقود إلى الوراء:

- يااااه! فرانكو [15] كان ما زال يحرِّك ذيله.

فجأة، يرفع روداليس، الذي لم يعُدْ أيٌّ منا يوليه اهتمامه، صوته وينطق من مكانه فوق المشرب:

- أنا آخر من رأى السيد خوليان حيًّا.

مع تعليقه، تنطلق ضحكات الآخرين مرة أخرى، كجوقة رنانة، فيقول روداليس غاضبًا من السخرية منه، وهو يحرك ذراعه كمن يسبح في البحر:

- اضحكوا، اضحكوا يا كلاب السوء. تعرف عيناي ما رأيته. لقد أبصرته وهو يخرج من سيارته. كان الحبل ملفوفًا فوق يده اليسرى

---

14- ذاكرة ذبابة اللحم قصيرة وتعود إلى تكرار نفس ما كانت تفعله منذ لحظات، حتى في حالة الخطر. (المترجم)

15- المقصود هو الديكتاتور الإسباني فرانثيسكو فرانكو. (المترجم).

وحذاؤه طويل الرقبة مُلمعًا.

نتبادل أنا وإبراهيما نظرة سريعة. العجوز لا يكذب.

- أشعل دون خوليان سيجارة وانطلق يسير ببطء عبر الدرب، بنظرة ثابتة نحو الأمام. لقد مضى نحو ما مضى نحوه بثبات.

- وكأننا سنصدق أنك رأيته يا مخادع.

- لقد فاقت ثمالتكم الحَدَّ.

أنا أصدقه. لا بُدَّ أن روداليس رآه، وإلا فكيف للعجوز أن يتخيل أن سيد أراضي «لاس برينياس» كان يرتدي حذاء الخيل. أي معنى يقف وراء ارتدائه؟ لماذا ارتداه، على الرغم من أن الموسم لا يبدأ إلا في أكتوبر؟ لا تبدو مسألة أنه رأى دون خوليان صباح اليوم الذي ذهب فيه للقاء شجرة الجوز حمقاء جدًا، فـ«الفزاعة» يعيش في أنقاض مصنع الطحين، بالقرب من المكان الذي عثر فيه الحرس المدني على سيارة الـ«لاند روڤر».

يقترب روداليس من جوقتنا، بخطى ثابتة ويجلس إلى المقعد الموجود بين إبراهيما وفيتالي اللذين يفسحان له المجال. يُرهبني قُربه، رغم أنه لا تفوح منه اليوم رائحة قذارته النفَّاذة، أو أنني على الأقل بِتُّ أتحملها.

يقول روداليس، ناظرًا إليّ بثبات:

- بعضكم لن يتذكر الأمر، إما لأنكم ترفضون تذكره، أو لأنكم لم تكونوا قد جئتم بعْدُ إلى الضيعة، لكن خوليان خلدون مالدونادو قتل نفسه في نفس السن الذي انتحر فيه والده؛ نفسه بالضبط. إنها نفس السنوات. ستة وستون عامًا.

ينطبع الرقم فوق جبهتي، بلون أحمر داكن يكاد يكون قرمزيًّا، ثم يخرج من فمي سؤالي، من دون أن أفكر فيه.

- في نفس اليوم؟

كان المزاح قد أخذ يخبو إلى أن تحوَّلَ إلى هُدنة تَرَقُّب. ترددت في الخلفية أغنية رود ستيورات «لقد كنت أمزح فقط»، على الرغم من أنني لم أود سماعها الآن. «**أهدرت كل هذا الوقت الثمين ولُمت النبيذ عليه**»[16]. النبيذ والزمن المهدران.

يقول حارس المقبرة ناظرًا إلى أظافره:

- قد يكون فصل السنة نفسه.

أُجري بعض الحسابات الخيالية في الهواء، وأترك مساحة معقولة بين كل انتحار وذلك الذي يليه. عُمر دميان كان كافيًا ليدفن أيضًا أبا خوليان، منذ نحو أربعين عامًا، أو أيًّا كان عدد الأعوام.

يواصل دميان حديثه بنظرة تائهة في مكان ما داخله:

- كان موسم الحرث. أتذكر الأمر كما هو بالضبط؛ لأن رائحة الهواء بدت كالدخان.

أو تقريبًا كما هي الآن. يضرم عمال المزارع النيران في الفروع الساقطة في محارق متفرقة عبر الجبال في مارس، بمجرد الانتهاء من تشذيب أشجار الليمون؛ لأن الأوراق تنثقب فورًا ويمكن ليرقات النحل النجار أن تقتل المزروعات والأشجار الجيدة. هكذا، تتعكر السماء هنا وهناك بدخان أبيض شديد الكثافة يبدو كأعراف الطيور، وتجر الرياح

16- مقطع من الأغنية وورد هو واسمها مكتوبين بالإنجليزية في النص الإسباني. (المترجم).

معها رائحة تبدو كعبق كنيسة مغلقة، أو خشب رطب لا يرغب في الاشتعال.

يبتسم روداليس بفمه ذي الأسنان الناقصة. أعتقد أنه يقول الحقيقة، وأن خلدون هذا وذاك، الأب والابن، اختارا نفس التاريخ لينتحرا. يا له من غَمٍّ! أتساءل كيف تمكَّن السيد من سَلسَلة أيامه حتى نقطة الموت العمياء، منتظرًا اللحظة الدقيقة نفسها التي أزهق فيها أبوه حياته. تفصل خمسة وثلاثون عامًا أو أربعون عامًا - أو أيًّا كان العدد - بين هذه المَيتة وتلك الأخرى. لقد انتظرها دقيقة وراء دقيقة، كممارسة لطقس ما، سيرًا وراء إيقاع الساعات والأيام حتى إشراقة ربط الحبل، ووضع عقدته فوق رأسه، والقفز من فوق غصن شجرة الجوز. ما الذي دار داخل عقله في اللحظة الأخيرة؟ هل شعر بالسلام؟ بالتحرر؟ هل سمع صوت أبيه وغريقة البئر؟ «تعال. تعال هنا، وسط هذه النعومة التي تطيب للمرء. كل الأمور هنا قابلة للاستغناء عنها ولا وزن لشيء». نحن جميعًا نمضي نحو بالوعة الموت. الأمر فقط أن خوليان قد اختار وقته.

ينتزعني صوت حفَّار القبور من داخل أفكاري:

- لم يَقْدِر أبو دون خوليان على تحمُّل الذنب. لقد ظلَّ يجترُّه طيلة سنوات إلى أن انتحر.

يسأله توماس، الذي صَبَّ لنفسه جرعة أخرى وجلس إلى مقعد ضمن جوقتنا:

- أي ذنب؟

يقول روداليس:

مكتبة
t.me/t_pdf

- أبو السيد لم يُفصِح عن سِرِّه.

لا بُدَّ أنه يعرف ما الذي يقوله. إنه أكبر مَنْ في هذه الزمرة.

- سره مع مَن إذن؟

يقول ماجانيا:

- كل ما تودُّه هو جولة أخرى من الشراب.

- كنت صبيًّا، لكنني أتذكر كل شيء. تعاملوا معي كأحمق، وتحدثوا أمامي كأنني لا أدرك شيئًا. رأيت أمورًا مثيرة في بيت «لاس برينياس». أعرف كل شيء.

- إذن. ابصُقْ ما لديك.

يشرب روداليس آخر ما في كوبه من نبيذ. يحدق إليّ ويقول:

- أنتم لا تعرفون شيئًا، وأنتِ أقل مَن يعرف، يا فتاة.

يصمت برهة ثم يُصِرُّ:

- هل تعرفين أن إيميتريا كانت مستحضرة أرواح؟ لقد اضطروا إلى ربطها. أنتِ لا تعرفين شيئًا يا «ماروتا».

يُصبح روداليس الآن هو مركز الاهتمام، ومع ذلك، ينطق عبارة تحمل تَحَدِّيًا جديدًا:

- أنتِ لا تعرفين مَن هو مَن في بيتك. لقد خدعوكِ.

يتردد في الشارع صوت النباح الحاد للكلبة، ومن بعده الرنين الهامس للستارة المعدنية مرة أخرى. إنه رئيس عمال «لاس برينياس». يظهر

من العدم كأننا قد استحضرناه بهذه المحادثة. يأتي مطأطئ الرأس. عمر ديونيسيو نحو ستين عامًا. الحياة في الريف خداعة وتجعله يبدو أكبر. إنه ضخم الجثة. ليس فارع العود، لكنه أطول مني بنحو شبر. ظهره عريض وجلده مدبوغ بشمس العراء. يقول:

- لِيَمُنّ علينا الرب بمساء طيب.

وقف على بُعْد خُطوتين من الباب، بعيدًا عنا، بيديه الموضوعتين في جيب معطفه. تنظر إليه الآن تسعةُ أزواج من الأعين بإمعان، بعد أن أصابنا الشلل، عاجزين عن النطق بأي كلمة. يتفادى رئيس العمال النظرات ويمضي في طريقه نحو المشرب ويجلس إلى أحد المقاعد المرتفعة. ينهض توماس على الفور من مقعده، محدثًا ضوضاء حين يجُرُّه، ثم يذهب للقائه.

- ديونيسيو، يا رجل.. هل حالك أفضل اليوم؟

ينصهر كلاهما في عناق قصير يتضمن تربيت توماس على كتفه مرتين. ثمة صمت جاف ومدبب يوشي بنا: عن أي موضوع آخر كنا سنتحدث لو لم ندمدم في غيابه حول موت السيد؟ لا بُد من ملء هذا الفراغ بأي كلمة، أيًا كانت. يصطاد القس نظرتي الطائرة في الهواء. لقد تفهمني، ولهذا ينطق على الفور:

- لا شيء في هذا المساء سوى أننا نقضيه هنا.

أقول لمجاراته:

- ليس لديك عظات أخرى اليوم، صحيح؟

يجيب القسُّ بقوله إن عليه أن يمر على الجمعية الخيرية لتقديم

المناولة. ينهض روداليس ويقول إنه سيمضي في طريقه إلى الطاحونة، فلديه مسافة طويلة ليقطعها. ينفك توتر الأجواء. ينحني الأوكراني في اتجاه إبراهيما، فوق الفراغ الذي خلَّفه روداليس ويهمس له شيئًا ما بصوت خفيض، وفمه يكاد يقارب أذنه. لو أنني آسف على رحيل العجوز، فهذا لأنني ما زلت أرغب في الاستمرار في سَبْر أغوار الأمر، وأن يحكي لي أي أمور ملعونة يعرفها عن بيتي. سأجد طريقة لانتزاعها منه في فرصة أخرى. أنظر إلى ديونيسيو، في وَحْدَته فوق المشرب، بكوب الـ«أجواردييِنتي» الموجود في يده، ونظرته الثابتة فوق خزانة الزجاجات. إنه لن يعرف قطّ الأسى الذي يجمعنا. كم من ليلة بكاها؟ لو علم أنني أعلم.. لو اعترفتُ أمام سرب كلاب الصيد الجائع هذا بما رأيته؛ لو حكيت لهم أن رئيس العمال كان يتضاجع دون خوليان، وأن كلًّا منهما أحب الآخر بطريقته، لسلخوه كذبيحة مقطعة إلى أربع أجزاء، قبل أن تُقيم الطيور آكلة الجيف وليمة في الضيعة على شرف رُفَاته.

# مصنع الطحين القديم

آخُذ عبوتي النبيذ المصنوعتين من الورق المُقوَّى وأضع تفاحتين في حقيبة ظهري وأمضي عبر الدرب أسفل ضوء الظهيرة المشع. ينبح الكلبان من وراء ظهري. لا يفهمان حقيقة خروجي للسير من دونهما ورغبتي في أن أعرف وأكتشف مدى عمق جهلي. السير والسير والسير وصولًا إلى مركز الضوء، وأنا أشعر بنبض الدم في فخذيَّ. تعلمتُ من الرسام الإنجليزي أن السير أحد أشكال التأمل. بدتْ له الحياة داخل المرسم أحيانًا ضاغطة بشدة، لذا كان يخرج للتمشية كي ينسى فشل فرشاته في الوصول إلى حيث يصبو. اعتاد أن يسير عبر شوارع الأكواخ الخشبية القديمة، إلى جوار نهر التيمز بين أدغال الحفارات والرافعات. أذرع السيدة تاتشر الشريرة التي هدمت الحي فوق رؤوسنا. كان نايجل يخرج في أي ساعة، فجرًا لو طاب له الأمر، من دون وجهة أو هدف محدد ليهيم تبعًا لغريزته. «الطريقة الوحيدة للنجاة هي الانجراف مع التيار». «Drifting». كان يقولها هكذا. إنها عبارات نايجل تانر. دَبَّاغ الجلود. لم أعرف آنذاك أن هذا هو معنى كنيته بالإنجليزية: دباغ الجلود. اعتدت في البداية أن أرافقه في نزهاته، كطيف. كنا نهبط السلالم الحجرية القديمة التي أكلها الوحل في وقت الجزر لنتمشى فوق الحصى؛ فوق قعر النهر نفسه.

أجتاز بخُطى خفيفة الأرض البائرة التي لطالما نما قمح السيد فيها، وأصل فورًا إلى صَفٍّ أشجار اللوز التي كانت تُبيِّن منذ زمن طويل حد أراضينا. لطالما كانت أشجار اللوز حَدًّا ودفاعًا، إذ تمتدُّ من بعدها ملكيات عائلة خلدون. أترك خلفي مرعى الماعز. لن أستغرق، في ظل هرولتي بهذه الصورة، أكثر من نصف ساعة لأصل إلى الطاحونة. تفوح

رائحة إكليل الجبل والزيتون المعصور في الهواء، وأنا أتقدم بين نباتات القستوس التي تهزها الريح. لكيلا أقترب أكثر من اللازم من بيت «لاس بريناس»، ألتف عبر الجزء الخلفي، الظليل، حيث تشحذ آخر بقايا برد الشتاء قواها. أعرف كل واحدة من ثنايا هذه الأرض، وأسماء الزعارير الموجودة فيها وإلى أين تُفضي كل تفرعاتها، على الرغم من أنني بالنسبة إلى أهالي الضيعة، ما زلت مجرد غريبة جاءت لِتَمُرَّ على المكان ثم قررَتْ أن تبقى. لم يعد الأمر يهمني، فهنا قد ألقيت فعلًا مرساتي.

لا أزال أفكر في تسامرنا يوم الأحد في حانة توماس. قال روداليس: «لقد خدعوكِ». إنه أمر ممكن، فالكذب يُساعد على العيش، لكن ما الذي خدعوني بخصوصه؟ «أنتِ لا تعرفين مَنْ هو مَنْ في عائلتك». هذا هو ما قاله روداليس. ما من أحد يعرف غيره تمام المعرفة. ما الذي أعرفه حقًا عن أهلي في نهاية المطاف؟ في عائلة أمي، يكثر الأيتام الذين لا لقب ولا أرض لهم، أما عائلة أبي فعلى الرغم من أنهم امتلكوا الأرض فعلًا، فقد أهدروها حتى آخر قطعة فيها: إما بتبذيرها على النساء أو بلعب الأوراق. حمض كلور الماء يجري في دمائنا [17]. بِيع جزء كبير من الأراضي، وفقًا لما حكته لي أمي وقريبتها البعيدة خاكوبا، بثمن بخس لإعفاء جدي من الذهاب إلى حرب كوبا، ولشراء بديل له مقابل ألف وخمسمائة بيزيتا، دُفعت سنتًا سنتًا، من تصدُّق عائلة خلدون عليهم، لكن الأمر انتهى باستيلائهم على المزرعة بالكامل حتى حَدِّ سياج البستان العَفِن. العين بالعين. أفترض أن هذا هو سبب البغضاء. إنها قصص قديمة صقلها مجرى الزمن كالحجارة الملساء ثم نَعَّمْها التَّكْرار وإضافة التفاصيل والزوايا الجديدة، فتحولت إلى أساطير. «هل تعرفين أن عمتك إيميتريا كانت مستحضرة أرواح؟». لقد حكت لي أمي أنها

17- كي تكتمل الصورة في ذهن القارئ، أود الإشارة إلى أن حمض كلور الماء مذيب. (المترجم).

كانت تعالج فراغ الصدر بأعشاب سانتا ماريا، وأنها لطالما أطلَّت عارية أمام البدر. هل لهذا السبب قيدوها؟ هل أصاب إيميتريا الجنون فعلًا؟

أنا أعرف ما أعرفه فقط وما عِشْته في الضواحي. لم يتحدث أبي وأمي كثيرًا فيما بينهما، وإذا ما فعلاها، كانا يتناقشان. «اجتماع آخر؟». «لا يروق لي هؤلاء القوم من النقابة أبدًا». كل ما سُمع عبر الجدار الورقي هي شكوى أمي القديمة المرتبطة بالنقود، وساعات العمل الإضافية، وضوضاء العمال، والشراب غير النافع، والغسيل الذي يُفسده غبار مصنع الأسمنت، والجِدَّة الذي يتعامل بها أبي مع أخي. تخلَّلَ كل هذا أحيانًا - في الفراغ القائم بين كل تأنيب والذي يليه - تنفُّس أبي برئتيه الممتلئتين بالطحين والمواد المُعاد تسخينها. صدره المواجه لفم الفرن الأحمر المستعر، وظهره لِطَلِّ يناير، مع نوافذ المصنع المفتوحة على مصراعيها. حينما سرَّحوه، سدَّدوا له أجره الأسبوعي الأخير. بطقم قهوة: ستة فناجين أطرافها مذهبة ولونها كالخرشوف، مع إبريق قهوة، وغلايَّة حليب، وسُكَّرية. لم نستخدم هذا الطقم قط. «انظري يا ابنتي، لكن لا تلمسيه، فيه شيء من عمتك إيميتريا». تقول أمي عبارتها وترفع بعدها مُؤَخَّرة الفنجان أمام النافذة لتنظر إليها على الضوء الخفيف إلى أن يتراءى عليها وجهُ امرأة جادة إلى أقصى حَدٍّ، وشعرها معقوص في ضفيرة. كان أمرًا مخيفًا. لم تغفر أمي لأبي قط بقائه من دون عمل ولا طرده أخي من المنزل، رغم أنه لم يكن أصلًا موجودًا معنا قط. كان جابي يأتي إمَّا ليأخذ النقود وإمَّا ليقضي أيامًا كاملة نائمًا. لم يكن أخي قبل رحيله سوى ذكرى للغياب. «هذا البيت لا يدخله إلا الرجال كما يجب أن يكونوا». صوت أبي كالرعد أمام فتحة الباب وجابي بحقيبته الرياضية «ميونخ 72» بحمَّالتها المائلة يقف فوق صحن سلم البيت عديم المصعد. كان عمر أخي سبعة عشر عامًا وأنا لم أُكمل بعدُ عامي

الحادي عشر. لم يعرف أحدٌ مِنَّا أنهما سيموتان تواليًا. كلٌ منهما وراء الآخر. حينما بِتْنا بلا رجال، عادت أمي إلى الضيعة، وتركتني في عناية خاكوبا من أجل الدراسة، إلى أن مللتُ وغادرتُ منزلها والحي والبلد وحللتُ «ضيفة على عائلة» كما اعتادوا أن يسموا الأمر آنذاك.

عدتُ إلى هنا بحثًا عن الصمت. مع ذلك، فإن هذا الهدوء ولحظات اتساع المشهد الطبيعي هي أكثر الأوقات التي أشتاق فيها إلى الحياة في لندن، وضوضاء شوارعها وطاقة الشباب والفرص التي أهدرتها. الحركة التي لا تتوقف وتعلو وتهبط تاركة إياك دائمًا في نفس المكان. في أي شيء أهدرتُ حياتي؟ ما الذي فررتُ منه؟ لم أشعر في أي مكان بالحرية كما شعرتُ في لندن، لكن هل هذه أصلًا الحرية؟ أيًّا كان الأمر، فأنا لم أعرف ما يجب عليّ فعله بها. وصلتُ تحديدًا مع انتهاء إضراب عمال المناجم، وقبل أن يبدأ إضراب عُمَّال طباعة الصحف في وابينج، ومعي خطاب باسمي من عائلة ستستضيفني لأنظّفَ بيتهم وأعتني بطفلين كريهين يسيل مُخاطهما، مقابل فِراش وطبق بطاطس مهروسة قبيحة مع النقانق يدعونه «بانجرز آند ماش»، مع خمسة عشر جنيهًا إسترلينيًا. لقد حالفني الحظ مع آل راندل رغم كل شيء، فقد دفعوا لي ثلاثة آلاف بيزيتا تكلفة تسجيل اسمي لدى الشرطة، حينما أدركوا أنني لم أفعل الأمر. كم من الوقت عشته معهم؟ هل هو عام ونصف؟ إنهما عامان تقريبًا. وَدَّعتهما لأنني جئت كي أَخلق وكنت أنتظر الإثارة الناجمة عن النجاة في هذه الحياة. تحولتُ الأمر أكثر بكثير من زميلة المعهد التي جاءت معي. لم تكن لديّ نية للعودة إلى خاكوبا أو إلى الضيعة مع أمي التي انقلبت أحوالها رأسًا على عقب بعد وفاة أخي. دعكتُ الأطباق، والفناجين، والملاعق، والأكواب، وأشواك المائدة، وآنية ضخمة في مطعم قبرصي في «هارو رود». سرقتُ عبوات اللوبيا من

متجر «تيسكو»، وجهزتُ فجرًا شطائر التونة مع الخيار في كافيتريات «هيثرو». طبعتُ صورًا فوق القمصان، واعتنيتُ بعجوز بدينة وحممتها بالإسفنجة والقفازات، ونمتُ ليلة كاملة في محطة «بادينجتون» بعد أن زررتُ معطفي الفرو حتى نهايته ووضعتُ قلنسوته فوق رأسي وما معي من جنيهات في مِشَدِّ صدري، مستخدمةً حقيبتي كوسادة. كنتُ الفتاة المسؤولة عن الحمام في «لادبروك جروف»، وهي مجرد حانة سيئة ارتكزت مهمتي الأساسية فيها على تجنب إغلاق الزبائن المراحيض على أنفسهم بغرض المضاجعة أكثر من اضطلاعي بتنظيف القيء والبول. «من فضلكما، من فضلكما، لو أمسكوا بكما، سيطردونني إلى الشارع الملعون». آنذاك، تفهمت حقًا المعنى الكامل لتعبير: «fuck off».

فقدت بكارتي مع رجل كبير عرفته في إحدى حانات «فولهام رود». كان طويلًا وبشرته شديدة البياض وخصل شعره المجعَّد ساقطة فوق وجهه العظمي. قضينا الليلة وعطلة الأسبوع التي تلتها في شقته فوق فراش ضيق جدًا أسفل لحاف مطبوع بالزهور. تدلّت مِبذَلة عمله الجلدية المزودة بواقيات داعمة للركبتين والكوعين خلف باب غرفة النوم. تخيلت أنه ربما يعمل كمِرسال بدرّاجته النارية، لكنني لم أود أن أسأله عن الأمر. لم نتحدث تقريبًا. لقد أمطرت طيلة الليلة، وبعض أوقات يوم السبت، واستمرَّ الأمر كذلك طوال الأحد برذاذ خفيف ذي لون أزرق يكاد يكون بنفسجيًا. إنها أمطار لندن. خيوط الماء التي ظللنا نسمعها تنقر زجاج النوافذ المقصلية كلما استيقظنا لنتناول شيئًا أو لنشرب فنجانًا من شاي «تيتلي» أو لنسمع الموسيقى، قبل أن نعود إلى التكوُّر فوق الفراش أو المضاجعة. هكذا حدث الأمر، من دون أي شيء آخر، كمن يسرع في الانتهاء من إجراءات متعبة. رحلتُ في واحدة من هُدناتنا من دون أن أودعه، بملابسي فوق القميص الذي أعارني

إياه للنوم. سرتُ وراء غريزتي، أكاد أتجمد من البرد، فاقدةً الإحساس في أصابعي. لم أعرف طريقة أخرى للعودة إلى المنزل سوى المترو، وفي ظل إغلاقه سرتُ وسرتُ حتى وصلت إلى جسر «واندسوورث»، ومن مكاني هناك، في الأعلى توقفت لتأمل التقزحات التي ولدتها أضواء أعمدة الإنارة عند بقعة زيت طافية فوق مياه التيمز، بقوامها الذي بدا كالزئبق من شدة كثافته. في تلك اللحظة تحديدًا، والمطر مستمر في تساقطه فوق صفحة النهر، أدركت أنني لن أود الرحيل عن هذه المدينة أبدًا. النهر، النهر، النهر... لم أعرف آنذاك قوة المَدِّ والجَزْر والألوان المتغيرة: الأخضر الرمادي الملطَّخ ببقع زعفرانية وسط التيار العكر، والبني الكبريتي مع انخفاض المَدِّ، والأزرق الرصاصي أسفل الجسور، والأرجواني المدخن الذي يكاد يقارب حَدَّ السَّوَاد وكثافة الحبر، مع حلول الليل.

عشتُ في «بالهام»، وهو حَيٌّ يقع في الضفة الجنوبية للمدينة وامتلأ آنذاك بالباكستانيين. مكثتُ في غرفة مزودة بحوض، جدرانها مطلِيّة بالأزرق السماوي. كانت الغرفة الأخيرة التي يُمكن تأجيرها في بيت عمودي متهالك على الطراز الفيكتوري. لدى وصولي إلى هناك، كنتُ قد تحولت إلى قطة خبيرة في الكتمان والهروب من مؤجري الغرف عديمة المراحيض من دون أي جلبة أو حتى دفع الإيجار، عبر تغيير المنطقة السكنية في كل مرة لمحو أثري غير المرئي تقريبًا. من «هاكني» إلى «إسلينجتون»، ومن «كامدن» إلى «لامبث». باتت أعلى غرفة في شقة علوية لأحد المباني من نصيبي هي وسقفها المنخفض. أقام في الحجرة المجاورة إليّ زوجان نيجيريان تشاركت معهما المرحاض ومطبخًا ضئيلًا وفرنًا وطاولة وثلاجة صغيرة. وجب علينا كل فترة تسييحها ونحن نقرفص لنضع فيها آنية ملآنة بالماء المغلي

لإذابة كتل الثلج. تمركزتْ روح البيت في سُلمه الذي انفتحت صحونه على الجحور التي عاش فيها مستأجرون آخرون، بين طيور مهاجرة، وعابري سبيل، ومستفيدين من استمارة «يو بي 40» لإعانة البطالة. عوَّض جيراننا، الذين كانوا يقضون حاجتهم ويطهون طعامهم في الأسفل الخصوصية النسبية التي تمتعنا بها في الأعلى، بمطبخ أوسع ومبردات أكثر، ومرحاض فيه حوض استحمام اعتادت أن تتشكل أمامه صفوف مليئة بالصراخ في ساعات معينة. لطالما حدث نفس الأمر مع هاتف الاستقبال المشترك؛ الجهاز الذي ضَمّ تجويفًا لإدخال عملات معدنية فيه بقيمة جنيه إسترليني وأنت تجري مكالماتك. اعتدتُ أن أستخدمه في أيام سبت متناوبة، في الحادية عشرة ليلًا بالضبط، لأعرف من خاكوبا كيف هي أحوال أمي في الضيعة، بينما هذه الآلة الشيطانية مستمرة في التهام العملات بنهم ماكينات القمار المتوحشة وشراهة تؤلم المرء في فم معدته. الزمن والبُعد. هكذا، لم تستغرق المكالمات وقتًا طويلًا وصارت مثقلة بالصمت.

بدأت الحياة في بيت «بالهام» تستقيم حين رحل النيجيريان واحتلت سالي مكانهما في برج اليمام. تعرفت كلٌ منا على الأخرى فورًا، كحال الكلاب حين تتشمم بعضها. كانت سالي تعمل في حانة في وسط «سوهو»، في شارع «دين» تحديدًا، وهو نفس المكان الذين يقولون إن كارل ماركس أَلَّفَ فيه «رأس المال». عثرتْ لي هناك على وظائف تنوعت بين الطبخ والعمل في متجر. يا ترى كيف هي أحوالك يا سالي؟ إلى أين يذهب الناس الذين يختفون من حياتك؟ اتصلتُ بأمها منذ نحو عامين من سنترال في العاصمة على رقم الهاتف الوحيد الذي احتفظت به. تعيش سالي الآن في «ويماوث» في جنوب إنجلترا، إلى جوار البحر، في شقة من دورين على بعد خطوتين من وسط المدينة

والميناء. كانت محادثة قصيرة ومتوترة. حكت لي الأم أن سالي تزوجت من محام وأن لديها الآن طفلة جميلة عمرها اثنا عشر عامًا. «إنها في خير حالٍ». أوه، حسنًا. حياتها رائعة. لا. لم تعد في حاجة إلى العمل. زوجها يكسب ما يكفي، وفي العام السابق استمتعا بقضاء عطلتهما في إسبانيا. استخدمت المرأة من دون قصد نبرة تأنيب في كلماتها، كأنها تود أن تحمي ابنتها من نفسها؛ مما كانت عليه. مما كنا عليه. لم توافقْ على إعطائي رقم سالي، أو ربما أنني لم أصر بالصورة الكافية. «أنت تعلمين.. سالي لم تعدْ مثلما كانت». آه يا سالي جونز! كنتِ ممسوسة بِشَره المتعة. أتتذكرين؟ مسحوبة من لسانك، ونحيفة جدًا، وشقراء إلى أقصد حد. كنتِ «قمامة بيضاء» كما تقتضي الأصول. نفس القمامة البيضاء التي كنتُ أنا عليها، بذات النَّهم الذي كان يلتهمنا حَيّتين. كُنا فراشتين ليليتين أعماهما الضوء بدماغين تمضيان دومًا نحو النزوات العابرة. هل أنتِ سعيدة، يا سالي؟ هل هذه هي الحياة التي حلمتِ بها؟ لكن أي فارق قد يصنعه الأمر؟ نحن معشر أشباح الماضي نفكر فقط في الأشياء التي لم تعدْ مهمة.

يزداد اقترابي من مجرى النهر، فتتكاثف هيئة الجبل المنخفض مع أشجار السنديان. على بُعد نحو مائتي متر، قد يتمكن المرء ملاحظة شجرة دردار أو صفصافة. ها هي ذي همسات أشجار الحور السوداء. أُميِّز الآن حقل قصب السكر وسياج المصنع القديم، والبلاط القيشاني المكسور أو الذي انتُزعت لافتة من فوقه. تمكنت، حين وصلت إلى القرية، من تخمين الاسم بالكامل رغم البلاطات الناقصة: «أرملة كارينيو لوخان. مصنع الطحين». هنا، في هذا الطريق، ترك خوليان سيارة الـ«لاند روفر سانتانا» بمفاتيحها. لم يتجرأ أحدٌ على لمسها. اضطر ديونيسيو، رئيس العمال، إلى النزول من أجلها بعد مرور يومين

على حادث الانتحار، حينما أذن القاضي بذلك، فأعادها إلى بيت «لاس برينياس» الكبير. طلبت التوأمتان إليه الأمر ببرود: «اذهب لجلبها لو تفضلت». أن تقود سيارة عشيقك الميت ضربة قوية، وكذلك أن تشعر بأثر يديه فوق مقودها، وبرائحته المعهودة منطبعة فوق مقعدها.

يتردد هتافي في الفناء:

- روداااااليسْ!

أكرره من جديد:

- روداااااليس! هذه أنا، أنخيلا، من بيت «إل أتشويلو». ابنة عائلة ماروتو.

لا شيء. لم أتلقَّ ردًا سوى نباح الكلبة الحادّ. نوافذ الجناح الواقع في الأمام، والأقرب إلى عين الطاحون، مفتوحة كأنَّ العالمَ نسيها منذ قرون. ثمَّة طبقة رقيقة جدًا من شيء ما تُغطي الأغراض. لا يتعلق الأمر هنا بذرَّات الدقيق العالقة، وإنما بحِجاب الهجران. أحاول بعينين مغمضتين تمييز أي أثر في الهواء للحبوب التي طحنها أبي؛ أبي بجلده الذي ابيَضَّ من الطحين وعينيه المُتَّقدتين بالحُمَّى كشبح مصاب بالربو. أتقدم عدة خطوات داخل الصرح المُسَوَّر، من دون أن أعرف في أي مخزن عليّ أن أبحث. أسفل المدخل المسقوف لحظيرة السيارات - حيث كانوا على الأرجح يصفُّون الشاحنات لتحميل الأكياس الضخمة - تتراكم صناديق نقل الفاكهة المصنوعة من الخشب المعاكس[18]، مع بعض الخردة، ومنصات تخزين مصفُّوفة، وهيكل تالف لسيارة «فورد إسكورت»

18- يتكون الخشب المعاكس من عدة طبقات ملتصقة ببعضها. يعرف في العامية المصرية باسم «خشب الأبلكاش». (المترجم)

حمراء بلون الرمان، وكمية كبيرة من أكياس القمامة. أسير فوق الأرضية الأسمنتية المتشققة، التي تزدهر العشبة الخبيثة في تصدُّعاتها، وأنا أحتسب كل واحدة من خطواتي، بحرص مَن يدخل للتلصُّص على منزل لا يخُصُّه. لا بُدَّ أن كلبة «الفزاعة» مربوطة، لأنها ما زالت تنبح، من دون أن تخرج للقائي. لم يأتِ روداليس هو الآخر. من المستحيل ألا يكون قد سمعني.

يظهر وراء المدخل المسقوف، يسارًا، كوخ صغير طويل تكتسي نوافذه التي فقدت زجاجها بورق مُقوًّى. لا بد وأن روداليس صنع عُشَّه هنا. ثمة بنطلون يتدلّى من سلك شائك. على الأقل لديه مياه ويغسل ملابسه أحيانًا. يظهر مقعد خلفي لسيارة «فورد» بحشوه ونوابضه الخارجة منه، متروكًا أمام الكوخ، وبالمثل ستارة معدنية ملفوفة حول نفسها، وبقايا صدئة لغسالة يدوية. على بُعد خطوتين من المدخل، ثمة صفيحة فارغة من الزيت الصناعي. لا بد أنه يستخدمها كمدفأة خارجية كي تدخل بعض الحرارة إلى مسكنه الحقير من دون الإضرار بهيكله. أسفلها وإلى جانبها بالضبط، يظهر طوق من سخام ورماد محرقة. بينما أوشك على المناداة اسمه مجددًا قبل اجتياز باب الكوخ، إذا بي أميِّز ظلًّا يمتد ويتقدم نحوي. فجأة، تأتي الضربة ومن بعدها العَتَمة.

أفتح عينًا وأستغرق بضع ثوان لأتذكر أين أنا. وحدها نخزة الألم التي تُشرف على الزوال من جبهتي تمنحني لمحة عما حدث. أتحسَّس الجُرح بِشَكّ. تتعرف أنامل أصابعي على الورم الساخن النازل حتى خدي، وملمس الدم الجاف، وسحجة لا تزال رطبة عند قوس حاجبي. لقد فتح ابن الساقطة حاجبي! هل ضربني بعصا؟ أم أنه كان يخفي حجرًا في اليد التي رفعها. لا أعرف كم من وقت مضى عليّ وأنا راقدة فوق هذه الحاشية التي تبدو رائحتها كفأر، مع إحساس الرطوبة الذي يسكن

المساحة بين معطفي الفرو وظهري. ما زلت أرتدي حذائي. أحتسب بعيني اليمنى، وأنا غير قادرة حتى على تخيل الجهد المطلوب لأضيِّق تلك اليسرى، الوقت الذي مَرَّ. أحتسبه عبر الضوء الداخل من النوافذ الصغيرة: ضوء المساء الأخير. لقد سَدَّ الفراغات الموجودة في الحوائط بخرقات قديمة، وقطع من الفلين المُصْفَرِّ وأخرى من حشوة المرتبة. تدخل عبر باب المخزن الموارب، أو أيًّا كان اسم الشيء الملعون الذي أنا فيه، خيوط رفيعة من دخان شديد الكثافة لحطب رديء. تبدو رائحته كاللحم المشوي. أنهض مستندة بوزن جذعي إلى كوعيَّ وسط دوار خفيف، لكنني أفترض أنني واعية بصورة كافية وبخير، باستثناء شعور القرص المتقطع في صدغي وثقل عنقي. يا لها من ضربة! لا تزال الإضاءة الضعيفة تسمح لي برؤية المسامير المثبتة في الحوائط، حيث عُلقت قبعة الحاصد الخاصة برودواليس، وقميص، وسترة مُجعَّدة؛ كلها إلى جوار رفوف ملآنة بأطباق غير متطابقة وأكواب وأغراض أخرى أهدوها إليه على الأرجح في الضيعة. في إحدى الزوايا، تتبعثر بعض حبَّات البطاطس فوق الأرضية مغطاة بالرماد لكيلا تنبت، وهناك، عند الطرف الآخر، يظهر العُشُّ الذي ينام فيه. صنع فراشًا بأربعة صفائح بلاستيكية؛ واحدة في كل زاوية، وفوقها رفًّا تخزين، وأعلى كل هذا وضع حاشية من القش القذر. لم يضعني على الأقل فوق قذارته. كم مَرَّ من وقت؟ كم ساعة مرت على وصولي؟ ربما ست ساعات.

أنهض وأقترب بحذر من الباب. أميِّز إلى جواره مولِّدًا كهربائيًّا قديمًا وثلاث صفائح من البنزين. أرفعها واحدة تلو الأخرى. أدرس مدى ثقلها. إنها خالية. ما من قطرة واحدة فيها. يبدو أنه لا يستخدم المولد.

إلى جوار الجدار، ثمة مِدَمَّة [19]. أمسكها، تحسبًا. أفتح الباب محاولة عدم إحداث جلبة وأنظر. ها هو ذا الحيوان الضار، جالسًا إلى مقعد بلاستيكي مخصص للحدائق، بساقين مفتوحتين. معطفه مفكوكة أزراره والكلبة راقدة إلى جواره. يُضيء انعكاسَ النارِ تغضُّناتُ وجهه المحدد بخصلتي الشعر الأشيب الساقطتين قرب جانبي فكه. يحرك الجمرات كي يضبط الحرارة أسفل الركيزة.

أزعق من عند فتحة الباب، مظهرة المِدَمَّة:

- أنتَ! هل لديك ماء؟

لا بد أنني أفزعته لأنه انتفض. تقترب الكلبة وهي تنبح، لكنها تتوقف قبل عدة أمتار من الباب، مائلة بقوائمها نحو الوراء كأنها مستعدة للقفز.

- اهدئي يا «كورَّا». اهدئي.

يُحدق روداليس إليّ، ويشير بطرف المِسْعَر [20] إلى دورقين قرب الغسالة التالفة. مذاق الخل يكسو سقف فمي. أشرب. إنه ماء النهر. يشكر الجسد المادة التي صنع منها. أصُب بعض الماء في تجويف يدي اليسرى وأفرك به رقبتي من الخلف ونصف وجهي السليم. الأمر مؤلم. تقترب الكلبة الآن لتشُمَّني. آخذ جرعة أخرى وأنا أراقب نظرة العجوز البرَّاقة من وراء نظارته المغبشة. بمجرد اقترابي من النيران، ينهض بسرعة، ليمنحني مقعده المليء بالقذارة، ثم يتوجه إلى مسكنه الحقير بعرج متقطع، بنفس الصورة التي قد يسير بها طائر بلشون غاضب. أجلس وأنظر إلى الجمرات التي يُشوى فوقها شيئًا مثل أرنب

---

19- (19) آلة زراعية تستخدم في تسوية الأرض وتليين تربتها وجمع الأوراق والتبن ومكافحة الأعشاب الضارة وتسمى أيضا بمشط الأرض. (المترجم).

20- (20) أداة تستخدم للحفاظ على تأجج النيران. (المترجم).

بري صغير مفتوح من منتصفه، على جزء مقطوع من هيكل فراش ذي أسلاك ملتوية. صيفًا، قد ينجح المرء في الإمساك بصغار الأرانب حديثة الولادة قبل أن تتعلم الهرب في خطوط متعرجة، لأنها تُقدم أنفسها بوداعة للسائرين، متكورة بلا حراك، وآذانها ملتصقة بظهرها، في ظل اقتناعها بأن سُكونها سيجعل المفترسين يخلطون بين فرائها ولون الأرض الداكن. إنها تثق كثيرًا في التمويه إلى درجة انعدام رغبتها في التحرك؛ كحالي أنا.

يخرج العجوز من الكوخ ومعه دلو معدني ورغيف خبز وحقيبة ظهري، التي يمسكها من ذراعها الجلدي، ثم يضعها فوق حجري من دون أن ينبس ببنت شفة. يجلس بمؤخرته فوق الدلو ويستمر في تفحصي من وراء نظارته التي دعَّم ذراعها بشريط لاصق. لا يتوقف عن التحديق إليّ، كأنه يرغب في الاعتراف بأنه يعرف محتوى الحقيبة؛ أو بأنه قد تفقدها، من دون أن يأخذ شيئًا. هكذا أحب الأمور. أُخرج عبوتيّ النبيذ. أحتفظ بواحدة وأقدم له الأخرى، فيقبلها بارتباك من دون أن يفتح فمه، بنظرة تكاد تكون مخبولة. بعد كل شيء، لقد جلبتُ له النبيذ لتملُّقه وكي يفُكَّ لسانَه الذي عليه أن يحكي لي الكثير.

أنظر إليه في مكانه إلى جوار النار. يقلب اللحم ويترك الشوكة من جديد فوق طبق موضوع بالمقلوب على صندوق فاكهة يستخدمه كمائدة. إنها عاداته كشخص منعزل. تُحرِّره طُمأنينة إيماءاته من ضرورة الحديث. لا يعرف كيف يعتذر إليّ. ربما يوَدُّ أن يقول إنه قد اصطاد وسلخ الأرنب البري لي، كي أغفر له وأستعيد عافيتي بعد ضربة الهراوة، لكنه يصمت. كلانا يصمت.

يُسدل الظلام ستاره فوق الحقول. يمُدُّ إليّ روداليس قطعةً من اللحم

موضوعةً في الخُبز بعد أن أمسَكَها بكَمَّاشة. لا تبدو الرائحة سيئة، لكنني لن آكُل. سأجعله يفهم الأمر بإخراج تفاحة من الحقيبة وهزها في الهواء: هذه أيضًا لا أودُّها. أُفضِّل الشُّرب. أفكُّ غطاء العُبُوَّة، وأشرب جرعة كبيرة. يشد اللحم الذي لا بُدَّ أن مَضْغَه صعبٌ على أسنان سيئة كهذه.

أقول له بعد برهة:

- ماذا حدث يا تيس؟ ما الذي ظننته؟ أن أحدًا دخل لينهبَ قصرك؟

تُفلت ضحكة قصيرة من خَطْمِه الدُهني اللامع الشبيه بحيوان ابن مقرض. يُنظف أصابعه في ساق بنطلونه ويفتح نبيذه على الفور، كأن تعليقي الخفيف جاء بمثابة إذن. كنت ترغب في الأمر، أليس كذلك؟ ترتفع لحيته البيضاء وعقدة حنجرته وتهبط مع إيماءات فمه المبالغ فيها، ثم يدمدم محدقًا إلى النيران:

- ظننت أنهم قد جاؤوا لإخراجي من هنا. إنهم يحومون حولي منذ فترة.

حاولوا أخذه أكثر من مرة. تقول الشائعات داخل القرية إنهم حاولوا لفترة من الزمان إقناعه بالرحيل عن هذه الأنقاض وترك حياة الزاهدين، بحجة أنه سيحصل على عناية أفضل ولن يعوزه طبق طعام ساخن قط في مؤسسة العجائز الخيرية حيث تعيش خاكوبا، لكنه على الأرجح يعرف أنهم سيقتلونه عبر الحبس والقواعد، وأن الغَسُول هو الشيء الوحيد الذي يمكنهم تقديمه إليه. يصعد القس لتفقد أحواله بين الفينة والأخرى، بحزمة من الأرز وصدقة بائسة، في حين أن الخدمات الاجتماعية، التي كانت في وقت سابق تأتي إليه باستمرار، باتت تُباعد مع مرور الوقت بين زياراتها القادمة من العاصمة. لِيَحلَّ الخراء عليهم

جميعًا! روداليس لا يبحث عن التعاطف. أنا أيضًا أمقت التعاطف.

خَبَتْ جمرات الشواء تقريبًا. يُلقي القمر المائل والمستدق كشفرة منجل ظلالًا بسيطة في فناء المصنع. تتسلَّى الكلبة بقضم العظام الصغيرة التي رماها لها العجوز. إنها الابنة الوحيدة الحيَّة للـ«قبطانة». كانت الكلبة العجوز الهجينة قد فَرَّت منا وعادت حُبْلى إلى البيت عقب شهرين طويلين، بعد أن سلَّمنا بضياعها. انهارت مرتعشة أسفل شجرة التنين لتُنجب ذريتها الضخمة. أبعدتْ بوجهها ذكورَ القطيع، الذين وُلدوا موتى، ثم أخذتهم أمي من جانبها لكيلا تأكُلَهم لاحقًا. «قبطانتي» لا تتمتَّع بغريزة الأمومة، وأنا أيضًا. قالت أمي إن لدينا ما يكفينا في وجودها هي والكلب السلوقي، ورغم إصرارها على إهداء الإناث، إلا أن أحدًا في القرية لم يودّها بسبب التكلفة العالية لتعقيمها. وحده العجوز روداليس قَبِلَ الاحتفاظ بهذه. بالنسبة إلى الكلبتين الأخريين، فقد أخذتهما أمي داخل قُفة خيزران مغطاة لكيلا أراهما، لكنني عرفت الأمر لاحقًا: أغرقتهما في النهر وكرهتها. ظللت أبكي طيلة ثلاثة أيام كاملة، ونمت في الغرفة بعيدًا عنها. على الأرجح ليس عليّ التفكير في هذا الأمر. لا يجب عليّ التفكير فيه.

- أي اسم ناديت به الكلبة؟

يُجيبني روداليس، وهو يربت فوق ظهرها:

- «كورّا»

- تعالي يا «كورّا» يا جميلة.

ترفع الكلبة أذنيها حين تسمع اسمها من فَم غريب. تتشمَّمُ يدي الممدودة، وتميل برأسها، لكنها لا تتحرك ولو سنتيمترًا واحدًا بعيدًا عن

قدميّ صاحبها.

يقول العجوز:

- إنها جبانة. الحمقاء.

لا تثق «القبطانة» هي الأخرى في الغرباء. أفكر في الأمر، لكنني أُطبق فمي. أنظر إلى السماء فوق رؤوسنا، حيث تشكلت طبقة بلون الحليب لتُعلن على الأرجح عن أن ثمة عاصفة في الطريق إلينا، وهذا فقط لأننا توقفنا عن تصديق أنها ستأتي إلينا. لم تسقط ولو نقطة واحدة من المطر منذ بداية العام. ليالي أواخر مارس لا تزال باردة في هذه الأراضي. ينهض العجوز كأنه خمَّنَ شعوري بالبرد ليشعل نارًا في الصفيحة.

روداليس خائف. يرتاب مني. ألاحظ الأمر في حركاته المتوترة، كمظلة مكسورة الأسياخ، وفي إيماءاته المتشنِّجة التي تظهر عليه وهو يُلقي في برميل الزيت قطعَ الورق المُقوَّى، والألواح الخشبية، وجريد النخل الذي جمعه من غابة السنديان، وسط احتضار الجذى الأخيرة للنيران بمحاذاة قدمينا. تتراقص شعلات النيران، فتنشط رائحة البول النتنة لمضيفي، ويسخن معها جرح جبهتي، فأجد نفسي مُجبرة على الابتعاد عن المدفأة بمسافة شبرين. يجلس روداليس إلى الدلو مجددًا ويمسك عبوة نبيذه. تُبهرني شعلات اللهب حيث تتواثب ومضات خضراء، وشرارات بنفسجية، وأخرى بخُضرة البرك، بخضرة العفن. ها هو ذا اللون البنفسجي والرمادي الرطب، كما كان الحال في أيام المرسم. لطالما طاب لي ابتكار أسماء للألوان التي جعلني نايجل أخلطها للخلفيات التي لونتها له: الأسود العظمي، الأزرق الحبري، البرتقالي الدموي. يتأمل روداليس هو الآخر أذرع النيران في صمت. ستكون ليلة طويلة.

يشرب العجوز بنَهَم، ويتفحَّصني بين الفينة والأخرى بطرف عينه. أتمنى أن يُقلل الكحول من ريبته. يمضي النبيذ دائمًا في المسار نفسه: يبدأ بخدر خفيف في القدمين، ثم يتسلَّق الجسد وصولًا إلى المعدة، حيث يمضي وقتًا كبيرًا، حتى تصعد أبخرته إلى الدماغ، وفي النهاية يتوقف عند اللسان، حيث يموت متحولًا إلى سم. أكثر ما أخاف نايجل في هذه الحياة هو الكحول. اعتدنا أن نشرب كثير. طاب لنا الشرب، رغم أن الويسكي لم يُساعده على الرسم.

- أنت لم تتعرف عليّ، أليس كذلك؟

لا ينظر إليّ روداليس أصلًا، وكي أطمئنه أقول:

- اهدأ. لن أحكي لأحد مسألة الهراوة. لقد حدث الأمر وانتهينا.

يبصق العجوز سؤاله، وهو يُحرِّك مُؤَخَّرته فوق الدلو:

- ولا للقسِّ نفسه؟

يضحك الحيوان الضار بخطمه الذي استحال مخروطًا بين طرفي ذقنه. أعرف أن النمائم التي تُقال في الضيعة موجودة في رأسه، ومنها مسألة أن القسَّ يصعد إلى «إل أتشويلو» بحثًا عمَّا أخفيه بين ساقيّ، لكنني أصمت. لا أرغب في أن نحيد عن مسارنا.

- ولا للأب أندريس. لا تقلق.

لا يخشاني أنا أو تبعات الضربة التي وجهها إليّ بالصورة نفسها التي يخشى بها انتحار دون خوليان وعواقبه. على الرغم من أن الطاحونة أغلقت منذ سنوات كثيرة بعد رحيل أصحابها إلى مدريد، فالأرض التي تقع عليها أنقاضها من أملاك دون خوليان الذي تجاهل وجوده، كما

فعل في أمور أخرى كثيرة، بل إن البعض قال إنه راقه أن يراقب الخرقة المسمى روداليس النهر وحقل الكرم لصالحه. لقد أجاد الزمن عمله الهدَّام؛ لأن العجوز سيجب عليه بعد فترة قليلة - ربما في الشتاء - أن يدعم سقف المخزن الذي يأويه وسط الأعشاب التي تلتهم من حوله الكتل الحجرية لبقية المنشآت الأخرى، كأن شيئًا لم يكن. كأن الطاحونة لم تكن موجودة قط.

أسأله:

- منذ متى وأنت تعيش هنا؟

يضُمُّ العجوز كتفيه، في حركة متشنجة، وينظر إليّ بازدراء، كأنه تعرَّض للإهانة بكلمة وقحة، ثم يقول:

- منذ سنوات كثيرة. لم أعُدْ أحسبها لكيلا أعرف. أنا لا أعرف عمري أصلًا، لكنه تقريبًا نحو الثمانين.

أبحث كعمياء في الحقيبة عن التبغ، وأُخرج دفتر الورق. حين أشرع في لَفِّ السيجارة، يقول روداليس:

- أعرف أمورًا كثيرًا عن البيت الكبير وعن عائلة خلدون. إنها أمور كثيرة فعلًا.

هكذا أحبك يا فتى. لا تفلت من بين يديّ. عليك الآن أن تبوح بكل ما لم تبُحْ به.

أقول له:

- أعرف بالفعل. لهذا أنا هنا.

يخرج مني صوت وديع، شبه مجهول. أمُدُّ له السيجارة والقَدَّاحة، التي يخطفها من بين أصابعي بنفور، لأنه لا يعرف أن يفعلها بطريقة أخرى غير هذه. يأخذ نفسًا عميقًا. ينظر إلى طرف السيجارة المشتعل، وينفث الدخان من فوق كتفه الأيسر، كأنه يرغب في طرد الشيطان. هيَّا أيُّها الخرقة القديم، تكلَّم. سأسلخ جلدك سلخًا طبقة تلو الأخرى، إلى أن أترك عظامك عارية.

- اعتاد الناس، حينما قسمت الحرب المنطقة الجبلية إلى نصفين ولم يعرف أحدٌ أين هذا أو ذلك، وبالمثل لاحقًا حينما فَرَّ البعضُ الآخر إلى الجبل، أن يأتوا إلى «إل أتشويلو» ومعهم دجاجة أو شيء مذبوح، ليسألوا عمتك إيميتريا عن مكانهم، وكانت تتحقق من الأمر أحيانًا عبر قراءة سطح صحن مملوء بالماء.

أتظاهر أنني غير مهتمة بما سمعته للتوِّ وأستمر في تفتيت أعشاب التبغ لِلَفِّ سيجارتي.

- كل ما قَصُّوه عليكِ هي أكاذيب يا فتاة. أنتِ لا تعرفين شيئًا.

جميل يا روداليس، جميل جدًا. ها نحن تحديدًا عند النقطة التي سعيت كي أصل إليها: نقطة الانطلاق.

- لقد جئتُ كي تحكي لي الحقيقة.

- الحقيقة؟ عليكِ أن تعطيني إكرامية. لوروهات. لوروهات. [21]

- ليس معي سنت واحد. لديّ فقط ما يكفيني للمضي قدمًا، لكن النبيذ

21- (21) المقصود «يوروهات» ووردت في النص مكتوبة بصورة خاطئة لمحاكاة الصورة الخاطئة التي قد ينطق بعض المتسولين والشحاذين الأجانب هذه الكلمة بها. (المترجم).

لن ينقصك.

يلف روداليس رقبته، وينظر إليّ مندهشًا ثم يصمت مجددًا، فأعود إلى إدخال خيط الإبرة ببطء، بأنفاس مكتومة، وأُصِرُّ:

- تعرفتُ إليها في أحد فصول الصيف التي جئنا فيها إلى القرية، لكنني أتذكرها بصعوبة. كنت صغيرة جدًا حين ماتت. تقول أمي إنها أُصيبت بالجنون.

يقول روداليس باقتناع يدفعني إلى تصديقه:

- لقد وَدَّ الجميع أن يجعلوا من إيميتريا مجنونة.

- الجميع؟ مَن هم الجميع؟

تدخل السلحفاة مجددًا في صدفتها. أسحَبُ نفسين أو ثلاثة من السيجارة من دون أن أعرف ما الذي يجب عليّ قوله. إنها سيجارتي الأولى منذ الضربة، وتجعلني أشعر بغثيان خفيف. لا أعرف كيف أقود هذه المحادثة، وكيف أضعه في الحظيرة، من دون أن يفزع أو أن يكشفني بهذه الصورة.

يقول مبتسمًا من دون أن ينظر إليّ:

- لقد شاهدتُ إيميتريا عارية. يا سلام على نهديها! كانا من النهود التي تملأ يَدَ المرء.

إنه يحيد عن المسار، ويقاوم محاولتي لاختراق رأسه كي يستولي على ما يخصني.

أسأله:

- هل صحيح أنهم قيدوها في قضبان رأس الفراش؟

خطأ يا أنجي. إنها لعبة بائسة. انظري بذكاء. فكّري قبل أن تنطقي. اشحذي صبرك بدلًا من السعي وراء النحر مباشرة. لا يحدث شيء. يسود الصمت ولا تأتي إجابة منه. لقد نهض لإحماء النيران بعصا محترقة، ويلقي الآن مزيدًا من الحطب الصغير في الصفيحة التي اشتدَّ لهيبُها من جديد، وبينما أنا على وَشْك تصديق أنني قد أفسدتُ اقترابي، يفلت العجوز ضحكة مُرَّة ويقول:

- تقييدها؟ هذا أمر رأيته فعلًا. لقد قيَّدوها في الفراش بحبل وأحزمة من الجلد لكيلا تهرُبَ وتضاجعَ ابن السيدة. السيدة التي ألقت نفسها في البئر. كلاهما كان ممسوسًا.

يتجرع روداليس رشفة أخرى من النبيذ ويقول:

- وأنتِ؟ هل تحبين المضاجعة أيضًا؟

أصمت وأتظاهر بأنني لم أسمع استفزازه، لكنني أرى نفسي فجأة منفرجة الساقين فوق قضيب نايجل، مُحطمة من فرط المتعة، ووجهي غارق في دموع السعادة والفرح وتزاوج الجسد والروح. في البداية، كنا قادرين على قضاء أيام كاملة داخل المرسم، غير مهتمين بالوقت. نتنقل من الفراش إلى المطبخ، من دون أن يفقد جسدانا فيضانهما. لو ركزتُ، أعرف أنني يمكنني إعادة إحياء رائحة جسده، بل ورائحة لعابه. كان يكبرني بثلاثة عشر عامًا وفي تلك الفترة كنا ما زلنا شبابًا. «أنتِ كينونة الجنس الصافي». كانت أيامًا يتوقف فيها العالم، فتصبح ركيزته شرب الشاي وأكل البيض المسلوق فقط. إنها أيام ظَلَّ كل منا ينظر فيها إلى عيني الآخر باستثارة وبلا فوارق تفصل بين العشق ووقوفي ليرسمني وعملية الرسم نفسها. تعلمت التموضع، وتجردت من تصلب

العضلات، والرغبة في التبول، والحكة في طرف الأنف. لم أكن أتحرك قط. ثمة مرات تحولت فيها إلى حجر، وفي مرات أخرى إلى إسفنجة بحرية. ملأ نايجل الجدران بأجزاء جسدي: رسوم أولية بقلم الفحم. قوس قدمي، وردفاي، وفقرات عمودي الفقري، والاستدارة الوقحة لنهديَّ آنذاك. عيناي أيضًا. «ثمة وَحْدَة كبيرة في نظرتك». تفهمت أن تموضعي أمام نايجل ليرسمني يعني الالتزام والخضوع، وكان هذا ما فعلته، وهو أيضًا نفس المسار الذي انتهجته في حياتي معه. لم يهمني التوقف عن شعوري بكوني شيئًا منفصلًا ومختلفًا عنه. سلمتُ نفسي إليه، فسمح إليّ بالتوغل في أعتم ممرات مُخِّه. كنت المرأة الوحيدة التي مضت بعيدًا في دواخله. ربما كان بإمكاني أن أذهب إلى ما هو أبعد، لكن كيف تفتح دواخلك بالكامل لتتوحد مع مَن تعشق؟ أنا الشغف؛ الرماد الباقي بعد النار. «**أنجي، أنجي، لا يمكنك أن تقولي إننا لم نحاول قط**»، ونحن قد حاولنا بالفعل.

ينتزعُني صوتُ روداليس من لندن، من أفضل فترات شبابي، إذ يقول:

- أغرمت جدتك إيميتريا حتى النخاع بابن الغريقة.

جدتك؟ لا أعرف ما الذي يقوله. أصحح له:

- تقصد عمَّتي. إيميتريا هي أخت أبي. الأنثى الوحيدة في عائلة ماروتو.

- هذه هي القصة الصينية التي ودوا أن نصدقها.

يحدق روداليس إلى عينيَّ بثبات كبير، كأنه يرغب في اختراقي، بعد أن زال ارتيابه، ويتحدث بصوت ثمل واثق مما يقوله. ها هو ذا النبيذ يقوم بعمله.

يقول:

- كلهم كذبوا. أهلك وعائلة خلدون، كأنهم تواطئوا معًا، رغم تبادلهم الكره. لكن أنا رأيتهما، ولم تكن مرة أو اثنتين. أقصد جدتك إيميتريا وابن الغريقة. السيد كاسيانو، هكذا كان يُدعى. كنت أراهما يتضاجعان هنا في النهر، في الخفاء دائمًا، إلى أن بدأ القيل والقال بين عمال المزرعة، فاضطرا إلى اللجوء إلى كوخ الخُصِّ الموجود في الحظيرة أو إلى أنقاض مزرعة «لا أوندونادا» ليزنيا معًا، حتى طردوا جدتك بعدها من البيت الكبير.

تستمر القصة بعد ذلك بغابة متشابكة من الأسماء التي أعرفها سمعًا وبمشقة، مع سلسلة من الإسقاطات والميتات العنيفة التي أحاول ترتيبها وفق قدرتي على هضمها، محاولة انتزاع المعنى من التناقضات الظاهرة كمن يبني جدارًا طوبة فوق طوبة، في نفس الوقت الذي يعجن فيه الأسمنت. لطالما علمتُ أن أهلي قد ابتلعوا على مضض عارَ أن تدخُل إيميتريا بيت «لاس بريتياس» لتخدمهم، وأن مَرَدَّ هذا الشعور ليس الفقر الذي حَلَّ عليهم، فهي مسألة يعتاد عليها المرء، وإنما اضطرارهم إلى الركوع أمام من استولوا على أراضي «إل أتشويلو» بثمن بخس. اعتادت أمي أن تنسج الإرث الشفهي الذي جرُّوه ورائهم من الضيعة ببُعد شبحي، كأنه لا ينتمي إليها، بالصورة التي تُحكى بها قصص الأشباح ويعرف المرء أنه في مأمن منها، رغم اقشعرار بدنه. لقد وصل بي الأمر إلى تخيل إيميتريا، ربما مُهانة لكن غير خائفة، وهي تقطع وحدها ليلًا أراضي عائلة خلدون، وسط نفس الحقول وأشجار السنديان التي اجتزتها وصولًا إلى الطاحونة، بعد أن وضعت ملابسها كخادمة من دون ترتيب داخل صُرَّة. يُقسم روداليس أنه وصل ثلاث مرات إلى «إل أتشويلو» بتعليمات من السيد كاسيانو، والد السيد خوليان، وكانت أولها

مُبَاشِرة من الباب الكبير، إلا أن شقيقي إيميتريا طَرَدَاه من البيت بدفعه. لا يتذكر ما إن كان أنشييتو أم باولينو هو الذي أطلق عدَّة رصاصات في الهواء من بندقية الصيد ليرعد الخوف في حقل القمح ووسط نباتات القستوس وبعدها حيث يبدأ درب التلال. ثمَّة مرة أخرى، وسط موسم الزيتون، تمكَّن فيها من التسلل إلى المنزل عبر سياج الحظيرة، بعد أن انتظر مختبئًا في خندق وابتلَّ جسدُه من البرد، حتى وصلت شمسُ الشتاء البيضاء إلى عُلاها ومضت خوسيفا، أم إيميتريا بالغداء إلى ابنيها. يقول روداليس إنه اجتاز المدخل، هامسًا باسم إيميتريا، وصعد السلالم، ثم دخل كل واحدة من غرف النوم، إلى أن عثر عليها في غرفتها مقيدة إلى فراشها.

- فعلتُ ما طلبه إليّ السيد: قطعت الأحزمة كي تتمكن إيميتريا من الهرب.

في الذاكرة العائلية، إيميتريا هي عمَّة عزباء انتهى بها المطاف محبوسة داخل صمتها ووسط بخورها. إنها أختُ الزوجِ الفظَّة التي تغذَّت على الهواء وعلقت في عالم الموتى. مع ذلك، في نسخة روداليس، عادت إيميتريا إلى البيت - إلى البيت الذي أسكنه - لكنها ظلَّت تقابل كاسيانو خلدون، ابن الغريقة، وكان هو مَن جعلها حبلى.

يُشدِّد روداليس:

- أنجبت إيميتريا في السِّرِّ طفلًا في «إل أتشويلو». هذا الطفل هو أبوكِ.

يتحدث روداليس. يتحدث مسحورًا بالنار والنبيذ، من دون مزاح أو مقاطعات، كأنني لست موجودة، فأسمع منه أن إيميتريا أنجبت أبي في فراشها، نفس الفراش الذي أنام عليه، من دون قابلة أو طبيب بيطري،

بمساعدة أمها فقط؛ لأنه لم تكن ثمة امرأة أخرى في المنزل، وبالمثل أنهم أجبروها على فطامه سريعًا كنعجة مريضة لكيلا يتحلَّى أحد - حتى من أهلي - بشجاعة الخلط بين الأحداث. كانت أم إيميتريا - جدتي خوسيفا في الرواية العائلية - أكثر من أصَرَّ على إعادة بناء الحقيقية: أبي، الذي كان حفيدها، سيصبح ابنًا من بطنها التي وصلت إلى سن الخمسين. الطفل الذي وُلد في الوقت الضائع. الطفل الذي سيصبح بداية من تلك اللحظة أخ إيميتريا الصغير وابنيّ خوسيفا الآخرين. هذا هو ما حكته في الضيعة لإخفاء العار.

- وكيف تظاهرت خوسيفا بالحمل؟

- أنتِ تعرفين بالفعل؛ بصُرَّة أسفل ملابسها، بعد أن حبست نفسها في البيت، منتظرة أن تلد إيميتريا. حكت لصديقتها، أنها مع عمرها هذا، كانت على وَشْك فقدان الطفل بسبب متاعب الحقل.

تكفَّلت السنوات بعدها بنجاح الرواية المبتكرة.

يقول روداليس:

- يُعرف عن نساء عائلتكم أن دماءكم حامية جدًا.

لا أقع في المصيدة. لا أرغب أن يحيد عن الدرب، ولهذا أشن هجومي:

- أنت تكذب.

يضحك روداليس. يرد قائلًا إنه ليس في حاجة إلى تقديم أي مبررات، وإنه كان يُقحم أنفه في كل مكان: في الحظائر، والمحادثات البعيدة، من دون أن يُبدي أحد اهتمامه، لأنهم ظنوه مغفلًا وعبيط القرية؛ مجرد فضلة. طفل مأوى اللقطاء الذي بدأ راعيًا للخنازير في «لاس برينياس»

وظل يقوم بمهام عمال المزرعة حتى حطمه النبيذ.

ثمة توقف مفاجئ. ما يُسمع فقط هو صوت طقطقة الحطب المحترق داخل النار. يتردد من بعيد، عبر السور المُسنن بقطع زجاجية وأشجار الحور الأسود النازلة حتى النهر، نعيق جنائزي لبومة.

أسأله:

- ما هو اسمك الحقيقي؟

يُجيب ضاحكًا، كأن قصته تمثِّل انتقامًا صغيرًا من الكل؛ من عائلة خلدون، ومن الضيعة قاطبة، ومني أنا بالذات لأنني وددتُ أن أعرف المزيد:

- اسمي هو فيرمين إسبوسيتو إسبوسيتو، وأنا في خدمة سعادتك.

- إذن.. ابن الغريقة جعل عمَّتي إيميتريا حُبلى..

- تقصدين جدتك.

- لو أنه هو مَن جعلها حُبلى، فأبي وخوليان نصف شقيقين. إنهما شقيقان من طرف الأب.

- كما تقولين.

سأنتظر انبلاج الصباح. ما من قوى لدي للعودة وتحسس إلى أين تفضي الدروب وسط العتمة. لن أقدر على الركوب مرة أخرى فوق الحاشية، ولا حتى أن أنعس هنا فوق الكرسي، على الرغم من أنني منهكة، ومقسومة إلى نصفين؛ ذلك النصف الذي يفكر والآخر الذي يتمتم الآن:

- كيف سأعرف أن ما تقوله حقيقي؟

مكتبة
t.me/t_pdf

# روح إيميتريا

لستُ مجنونة.

صحيحٌ أن عقلي مشدودٌ كجلد طبلة، لكنني لست مجنونة. لم أكن ثملة أيضًا. لم أفرط في شرب النبيذ بالأمس وكنتُ يقظة حين حدث ما حدث. وصلتُ مرهقة للغاية من الطاحونة ونِمتُ قبل موعدي. غرقت في أعماق السُّبات، رغم أنني عادة ما أنام على فترات متقطعة. غفوت رغم الإزعاج الذي سببه ملمس كدمة جبهتي فوق الوسادة. استيقظتُ نحو الرابعة صباحًا ولم تعُد لديّ رغبةٌ في محاولة النوم. نزلتُ وأحميتُ مدفأة المطبخ، مُستغلة بقاء بعض الجمرات، وانتظرتُ انبلاج الصباح، وأنا أتأمّل جمالَ الشُّعلات وأتسلّى بالكتاب الأخير الذي أقرضه القسُّ لي. يكشف القسُّ عن نفسه في العبارات التي حَدَّدها بشكل دقيق بالقلم. هل يسعى إلى أن يخبرني بشيء ما؟ أقرأ: «تقول إنه كان يعضُ قدميها ويقول لها إنهما مثل خبز ذهبي في الفرن، وإنها كانت تنام متكوِّرة، منغمسة في دواخله، تائهة وسط العدم، وهي تشعر بأن لحمها يتشقَّق؛ بأنه ينفتح كتغضُّن يشقُّه مسمار مُستَعِر». فقرة أخرى: «ثمَّة قرى لها طعم التعاسة. تُعَرف من استنشاق هوائها القديم والخدر. ذلك الهواء المسكين والهزيل، ككل ما هو عجوز» [22]. نزلتْ «القبطانة» العجوز إلى المطبخ، بعد أن سمعتْ ضوضائي، ورقدتْ إلى جواري، بين المقعد والنار. بالنسبة إلى «بلوتو»، فكان حيث ينام عادة. في الخارج؛ في السقيفة.

تركتُ الكتاب فوق رفِّ المدفأة؛ لأنني عجزت عن التركيز في القراءة،

---

22- (22) الفقرتان الموجودتان بين علامات التنصيص في الأصل من رواية «بدرو بارَامو» للكاتب المكسيكي خوان رولفو. (المترجم).

ثم جلستُ مجددًا وأغلقتُ عينيَّ. على الفور جاء أبي إلى أفكاري؛ أبي المبتسم في آخر لحظة سعادة عشناها معًا. كان يوم الأحد في أحد صباحات فبراير البرَّاقة شديدة الزرقة. اقترح أن نذهب لنتمشى وحدنا حتى قلعة «تورّى بارو» وبدت لي أفضل فكرة في العالم. لم تعترض أمي أو تُصِر على أن نعود في موعد الغداء بالضبط. اشترينا الـ«تشورّو» في الطريق، ولأن رئة أبي لم تسعفه وجب علينا أن نتوقف بين الفينة والأخرى ونحن نصعد المنحدر كي يهدأ إيقاع تنفسه. لم يهتم كلانا بالمسألة. لم نكن في عجلة من أمرنا، فقليلة هي الفرص التي تمكنا فيها من أن نكون وحدنا خارج المنزل لنسير معًا، وهو يُمسكني بيده. على الرغم من أنه كان قد سُرِّح بالفعل من المصنع، فإن يدي أبي كانتا لا تزالان تبدوان كالحجر الرملي من شِدَّة خشونتهما. لطالما أعجبتني يداه. حمل أبي في يده حقيبة مصنوعة من ألياف جذوع النخل اعتدنا أن نستخدمها للذهاب إلى التسوق في وكالة الدخل والخرج. لم يسمح لي بمساعدته في حملها من إحدى طرفيها، حتى في المرات التي ثقلت فيها عليه. سألته: «ما الموجود معك هنا؟»، فأجاب: «كنز سندفنه». لم أصدقه، لكن الأمر بدا لي طريفًا وواصلتُ اللعبة. حين بتنا في قمة السهل تقريبًا، اخترنا شجيرة قرب برج للضغط العالي، كي نخفي ما في الحقيبة أسفلها. فعلناها في حفرة حفرناها بملعقتي حساء ومجرفة صغيرة. لم يَبْدُ أن تَسْلِيَتنا الصغيرة أيقظت أدنى اهتمام من قبل الأشخاص الذين مروا إلى جوارنا. أخرج أبي ثلاث رزم ملفوفة جيدًا بأكياس قمامة ووضعها في الحُفرة. سألته: «ما هو الموجود في الداخل؟»، فقال: «لا تسألي كثيرًا وركزي جيدًا في كل شيء، كي نتذكر حينما نعود لنخرجها. حين نصل إلى المنزل، ستصنعين لي خريطة كنز -خريطة كنزنا - لأنكِ تجيدين الرسم».

في تلك اللحظة بالضبط، وأنا أجتهد لتذكر الكلمات الدقيقة، لاحظتُ رعشة غريبة في المنزل، وعلى الرغم من أنني لا أخاف بسهولة، فما حدث بعدها أرعبني. اختبرتُ في طفولتي العيش مع الأموات، ولهذا أضع لهم دائمًا، كما علمتني أمي، قناديل زيتية مشتعلة في «ليلة الموتى» كي يرقصوا على شُعلتها. لا يمكنني القول إن الفزعَ قد التهمني، لكن رعشتي لا تزال مستمرة حتى الآن. ما زلت مشلولة ومترقبة. ربما لعبتْ مسألة تفكيري في أبي واستدعائه بهذه الصورة الحيّة دورًا في ظهورها. استشعرتها كهَزّة في المطبخ انتهت بتكاثفها في صورة وميض خفيف أو طيف له شكل محدد عند مقدمة السلم المُفضي إلى الغرف وهو يهبط آخر درجاته. لا بُد أن الكلبة هي الأخرى لاحظت وجودها؛ لأنها زمجرت ورفعت أذنيها؛ الجزء الوحيد في جسدها الذي ما زالت تحتفظ فيه ببصيص من فضولها. داعبتُها فوجدتُ أطراف فرائها أشواكًا منتصبة وعضلاتها مشدودة ومستعدة للفرار، لكنها حين شعرت بملامستي، وبتربيتي فوق ظهرها، بدأت تطمئن. رويدًا رويدًا، اتخذ الطيف الشاحب هيئة امرأة متشحة بالحداد، ثمة هالات سوداء تحت عينيها، وشعرها الأبيض معقوص في ضفيرة فوق قفاها. رأيتها كمن يرى عبر زجاج داكن، كأنها غارقة وسط مادة جيلاتينية، لكنني تمكنت من تمييز تقاسيمها، وتعبيرها الصارم والمغموم في الوقت نفسه.

تفهمت فورًا أن روح إيميتريا جاءت لزيارتي، هذا لو أنها قد خرجت أصلًا من «إل أنشويلو». تحدثتْ من دون أن تتحدث. قالت لي إن كل شيء هناك، على الجانب الآخر، كما يجب أن يكون، ورغم ذلك فإن وخز الضمير يمنعها من أن ترقد في سلام. لم تنطق بالضبط كلمات وخز الضمير أو اللا طمأنينة أو الضغينة، لكن هذا ما ودت أن تنقله إليّ. إن الموتى لا يحتاجون إلى صياغة الكلمات ليصبح حديثهم مفهوما.

انطلقتْ من نقطة البداية، من البذرة الخاوية، من قصة جدة السيد خوليان؛ المشيمة الضخمة التي غذت القطيع. شاهدتْ إيميتريا كيف أخرجوها من البئر ليمددوا جثتها المبتلة فوق المائدة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز، وحينما سألتها بقية خادمات «لاس برينياس» لماذا تركت السيدة الحبل متدليًّا من خرزة البئر، أجابت بما أوضحته لها الميتة: لكيلا تيأس الروح في بحثها عن مخرج. لقد تركت السيدة ثوبًا فرنسسكانيًّا مفرودًا بعناية تقاطع كُماه مع بعضهما فوق فراشها قبل الخروج لملاقاة حاصد الموت ذي المنجل. قالت إيميتريا إنهم في عائلة خلدون يعرفون جيدًا كيفية ضبط الأكاذيب، لهذا لم يحتاجوا أصلًا إلى عفو الكاهن لدفن السيدة بمراسم دينية. دفنوها كأن شيئًا لم يحدث، أو كأنها ماتت في فراشها من المرض أو بعد الولادة. في تلك الأثناء، كان لهاث «القبطانة»، التي ظلت ترتعش بين ساقيّ، يُسمع بصعوبة.

أحاول أن أجمع رقع الانكشاف - أو أيًّا كانت ماهيته - واحدة تلو الأخرى، لكن قصة إيميتريا قد نُسجت في قطعة واحدة، من دون تردد أو تعرجات؛ إنها قصة دقيقة في تطورها الزمني، بالضرورة التي تتطلبها الحقيقة وحدها. بعد انتحار زعيمة العائلة، استعادت الحياة نبضها في المزرعة، وعقب عدة سنوات، تزوَّج خلدون الأرمل بامرأة أجنبية لم تُضاعف ذريته. استمرت إيميتريا تخدم في بيت «لاس برينياس»؛ لتغسل الأغطية بصابون الصودا، وتكوي مفارش المائدة وملابس التوأمتين المصنوعة من نسيج الأورجانزا، ولم تنزل إلى بيت «إل أتشويلو» إلا بضعة أيام قليلة بين أعياد الميلاد ونهاية موسم الزيتون، وفجأة أكملت عامها السابع عشر، من دون أن تدرك.

لم يُجبرها السيد كاسيانو على شيء. ثرثرة الضيعة مجرد أكاذيب. علمتْ إيميتريا وابن الغريقة أنهما يعارضان النظام الطبيعي للأمور،

وأنهما إن عاجلًا أم آجلًا سيُكشفان، ورغم ذلك لم يتمكنا من التوقف عن اشتياقهما لبعضهما أو كبح تلاقي وجهيهما كالخنازير الجبلية. لم يكن حبًا أو حنانًا، وإنما رغبة نهمة، وإصرارًا على اعتصار هذه الرغبة قبل أن تنفد. كانت نار الشوق تَنْخَرُهما. عادت إيميتريا لترى كاسيانو في الخفاء بالتواطؤ مع أحد فتيان المزرعة، رغم طردها من بيت «لاس بريناس». كل ما أفكر فيه الآن هو الليلة التي سهرتها مع روداليس. المهم أنهما ظَلَّا هكذا إلى أن جاء يوم لم يظهر فيه السيد في لقائهما المتفق عليه في كوخ الحظيرة، بعد أن اعترفت له في اللقاء السابق بأنها حُبلى. كانت قبلها قد اجتازت الممر الجبلي من دون أن تلحظ حتى خدوش أغصان توت العليق في ساقيها. حبسته عائلة خلدون في مدريد واستسلم لهم. ودَّت إيميتريا أن توضح لي الأمر جيدًا لكيلا أنسى: السيد كاسيانو، والد دون خوليان هو مَن زرع بذرة أبي، ليس شخصًا آخر. جابرييل ماروتو هو ابن بطنها، رغم إجبارهم لها على العيش معه كأخته، لإخفاء العار.

واصلتْ حديثها من دون أن تتحدث: سريعًا حل خراب الحرب، وهزم العنف الذي يتغذى على نفسه أخوي إيميتريا الحقيقيين، فالكبير، الذي يُدعى أنثييتو، لقى حتفه في الجبهة، أما باولينو ففر إلى الجبل مع زمرة من الرجال ما زال عددهم يُربكني: إوسيبيو أجيليرا الشهير بـ«البومة السوداء»، وشقيقه مارتين برموديث «قارع الأجراس» والعم تشوبا خاروتي. شكَّلوا في النهاية جماعة قوامها عشرة عمال باليومية من الضيعة وأراضي الوادي. عشرة رجال ماتوا تحت إمرة دييجو أيورا، الحداد الأكتع. بالنسبة إلى إيميتريا، فعاقبوها بحلق رأسها، والسير بها فوق محفة عبر شوارع القرية لتقول ما تعرفه عنهم. لم تُفلتْ ولو كلمة واحدة. وقعت التحرشات التي تعرضت لها في نقطة الحرس المدني

في «إل سالوبرال». وَدِدْتُ أن أعترف لها بأنني شعرتُ هناك برعشة حينما ذهبنا لنبلغ عن الانتحار، لكنني امتنعتُ في النهاية، لكيلا أقاطع قصتها.

قاومت الزمرة الهاربة طيلة عامين طويلين. تحصنوا في الشتاء الأخير من حياتهم في مزرعة «لا أوندونادا»، التي ذهبت إيميتريا ذات مرة إليها لتأخذ لهم جوالًا من الحمص، وبعض الأغطية، بعد أن انطلقت من القرية لتجتاز طريقًا سيئًا مدته ست ساعات، ومعها أيضًا بعض اليراعات الملفوفة في منديل لكيلا تتيه ليلًا وسط الدروب. حاصروهم حين بدأ الضجر ينطبع في نفوسهم، وهم يتناقشون في أحد صباحات فبراير الباردة كشفرة سكين حول ضرورة إزالة المعسكر الذي تحصنوا فيه لفترة أكثر من اللازم. كانت الرغبة تملأ المعتدين وما أن طوقوا محيط المزرعة، بداية من أكوام التبن وحتى الأرض القديمة المبذورة، حتى شرعوا يعوون ككلاب الصيد لإرعابهم. لم يقضوا وقتًا في التفكير، وألقوا بإصبعي ديناميت على البوابة، تلاهما فورًا عدة دفقات من مدفع رشاش اصطدمت طلقاته بالجدران الحجرية غير المصقولة وجذع شجرة السرو والصفيح الذي يغطى نوافذ مبيت خدم المزرعة القديم. سُمعت صرخات من الداخل. سقط العم تشوبا في الغارة الأولى، أما بقيتهم فقاوموا لمدة نصف ساعة وردُّوا بمسدس «ستار» وبندقية هجومية، ورغم أنهم ألقوا سلاحهم في النهاية، إلا أنهم لم يحصلوا على أي رحمة، إذ أطلقوا عليهم عدَّة رصاصات في الرأس واحدًا تلو الآخر، ومثَّلوا بجثث الرؤساء. لقد انتزعوا عيني دييجو أيورا، الأكتع، وباولينو، الأخ الأصغر لإيميتريا، بالسواطير، بل وقطعا لسانيهما، وكيسي صفنهما. بعدها سحب المعتدون الجثامين من أقدامها وجمعوها في فناء المزرعة، وراكموها فوق بعضها، ثم رشوها بالكيروسين وأضرموا

فيها النيران. تمكن أحد المتمردين، الذي داهمه الهجوم وهو في بيت الخلاء، من الزحف إلى أن اختبأ في حظيرة الخنازير، فنجا من المذبحة. اجتاز السلسلة الجبلية لاحقًا سيرًا على قدميه، ليُعلن في «إل أتشويلو» عما جرى. في اليوم التالي، اجتازت إيميتريا، برفقة أبيها، الجد مانويل، وأحد أبناء أشقاء العم تشوبا الجبلَ فوق ثلاثة بغال لدفن رفات المحروقين. لم يساعدهم أحد. لم يرغب أحد في أن يعرف شيئًا. لم يتذكر أحد أن هؤلاء الرجال كانوا موجودين أصلًا. بعد عشرة أيام من هروبه، ظهر جثمان من أبلغ عن المذبحة مليئًا بالرصاص في أحد أجراف «إل أولبيخار».

رغم ذلك، تقابلت إيميتريا ووالد أبي مرة أخرى وحيدة، بعد مرور ثلاثين عامًا على مذبحة «لا أوندونادا». كانت عائدة من حصاد السنارية الإسبانية [23] قرب بيت المستنقع، وهو يقود سيارته عبر الدرب المؤدي إلى «لاس برينياس». كان كاسيانو يقود ببطء شديد، من دون أن يرفع التراب حوله تقريبًا، وبدرت منه إيماءة كأنه سيتوقف، لكن حينما غرست إيميتريا عينيها المُتَحدِّيتين في عينيه عبر النافذة، أشاح ببصره واستأنف مسيرته. بعد عدة أيام من ذلك اللقاء، شنق كاسيانو نفسَه من الرافدة الرئيسية للإسطبل. لم يعُدْ قادرًا على اجترار ذنب التقصير لفترة أطول. ليس هو مَن كشف أين يختبأ الرجال الذين فَرُّوا إلى الجبال، لكنه علم بالخطة التي حاكها أبوه، وأصحاب النفوذ، ومالك المزرعة القديم، الذي آواهم في البداية. علم كاسيانو أيضًا بأمر الوشاية إلى الحرس المدني، ورغم ذلك لم يحرك إصبعًا. لا تلومه إيميتريا كثيرًا على صمته بخصوص المصير الذي انتظر زمرة المتمردين - لأنها خمنت أن باولينو كان إن عاجلًا أم آجلًا سيتفجر كثمرة تين ناضجة- بقدر ما

23- (23) نبتة قوية معمرة غنية بالألياف. (المترجم).

تلومه على عدم حضوره إلى موعدهما في كوخ الحظيرة، وهجرانه لها بعد أن ترك بذرته في بطنها.

أخبرتني إيميتريا أيضًا بضرورة أن أشحذ حواسي، وأن آخذ حذري، وأن أقاوم. سألتها من أي شيء عليّ أن آخذ حذري، ووَددْتُ أن أعرف لِمَ جاءت لزيارتي، لكنني وجدت أنني أتحدث مع نفسي بصوت مرتفع. كانت روح إيميتريا قد اختفت آنذاك، تاركة خلفها رائحة تبدو كدخان المدفأة البارد. إذا كانت قد تأخرت في التجسد، فإن اختفاءها كان سريعًا، ويكاد يكون مفاجئًا، كومضة ضوء، أو كتيار غير مرئي متفتت، إذ اقتربت مني وضغطت بقوة شديدة فوق معصمي، كأنها تتشبث بنبضاتي برجاء أخير. حينئذٍ، توقفت الـ«قبطانة» عن الارتعاش.

أعرف أن روح الجدة إيميتريا قالت الحقيقة الوحيدة وأنها لن تظهر من جديد، لكنها لم ترحل. لا الروح ولا أخواها ولا أبواها ولا أبوا أبويها. ينطبق نفس الأمر على أبي وأمي وأنصاف حقائقهما. ما هو مدى معرفتهما؟ ما الذي أخفياه عني؟ هل كانا يعلمان أن الضغائن ضد عائلة خلدون تذهب إلى ما هو أبعد من حدود الأرض؟ أفكر في أبي ولا أزال أستشعر غيابه، وضياعه. لا أعرف شيئًا عن الطفل الذي كان عليه في هذا البيت. هل كان طفلًا سعيدًا أم منطويًا ومتوحشًا بعض الشيء؟ هل لعب مع السحالي الصغيرة؟ هل نظر كمَن نُوِّم مغناطيسيًّا إلى كيف تستمر ذيولها في التحرك بيأس بعد قطعها بحثًا عن طرفها الآخر؟ هل عرف الحقيقة؟ هل عرف أنه ابن مَن كان يدعوها أخته؟ هل حكوا له الأمر؟ هل تحقق منه؟ هل عرف أنه يحمل بذرة عائلة خلدون السوداء؟ في النهاية، ينجح أيُّ سِرٍ - مهما كان مُظلمًا - في التبرعم بعد انفصاله عن وحل الأعماق.

لم تكن الأرض وحق المرور ورفض رئيس العمال الدائم لاستخدام أبي أجيرًا باليومية الأسباب الوحيدة للبغضاء. أتفهم الآن أن مَرَدَّ الكُره أيضًا له قوام من لحم ودم وعظام وهوس. نحن، آل خلدون وآل ماروتو طينتنا واحدة ونتمازج في ذرية تقتل الآخرين أو تزهق روحها بنفسها. إلي أين ستؤول الأمور؟ هل عرف أبي أن والده الحقيقي كاسيانو، قد شنق نفسه بعد أن تخطى الستين ببضع سنوات؟ لا بد أنه يعرف شيئًا عن الأمر. يمكنني تخيل المشهد في أي صيف بعيد، حينما كنا ننزل من برشلونة إلى القرية. حلقة الثرثارين داخل الحانة والشمس التي اشتدَّ أوارها: «كان البيطار أول مَن رآه»، «يقولون إنه تبول على نفسه، أقصد السيد كاسيانو، وأن قضيبه كان منتصبًا حينما أنزلوه». جرعة أخرى من الـ«كلاريتي»، ثم واحدة أخرى على الفور لإطعام الذاكرة بالنبيذ: «أنتَ، يا ابن عائلة ماروتو، ألن تقول شيئًا؟». ها هي ذي الضحكات والممارسة الجماعية للانتقادات العدائية اللاذعة. ها هو ذا أبي المُسرنم في طريقه إلى المنزل عبر شارع «مايور» الخاوي، تحت غطاء الكلس المتوهج، محاولًا احتساب الوقت عبر الظلال المنعكسة على امتداد الطريق حتى «إل أتشويلو». لهذا اعتاد أن يهرب إلى عزلة التل. لهذا أراد أن يرحل عن هنا: كي يهرب من الضباب الخفي.

انتهيت من رَيِّ البستان. ها أنا ذي أقف بعد ظهور إيميتريا لأتأمل البيت من الخارج. لقد أنقذ هذا البيت حياتي. أنظر بعيني امرأة غريبة إلى طاولة الشغل، وشجرة البرقوق، والبوابة الحديدية، والتعريشة الملفوفة بالأسلاك التي تغطي المدخل، ودعامة البئر العلوية، والصهريجين، وأنا جالسة إلى المقعد الحجري الملتصق بالسقيفة المائلة. شجرة الكرمة عتيقة وتقدم ثمارًا غير ناضجة. وحدي أنا والزنابير نتجرَّأ على مضغها، لكنها وجدت مكانها في هذا العالم هنا لتتباهي بأغصانها، وبمجرد أن

يحلَّ الصيف، سيمتد ظلها مشكورًا حتى حوض الغسيل. لقد جعلتُ أنا الأخرى من هذا البيت ملاذي. أحبه هكذا، بندباته وصدوع تجصيصه والنقاط المتسربة من أسقف غرفه وضوئه المسروق من عمود الكهرباء. البيت محطم، كحالي. ليس لديّ روابط مع أي شيء تقريبًا، ولا أخشى الوَحْدَة؛ لأن أمواتي يؤنسون وحدتي.

يشرع طائر شحرور في التحليق من أحد الثقوب المعلقة في السطح. يكاد الضوء أن يسيل فوق الأرض الجافة فيعكس لمعانًا هنا وهناك فوق رؤوس الحراشف البرية وسيقان الشوفان البري التي تتماوج مهزوزة بفعل الريح، وصولًا إلى أشجار السنديان وضفة الدرب. الشمس الآن تبدو كثمرة خوخ، والسماء التي يرتسم فوقها التل فوضى هائجة من الألوان البرتقالية والحمراء والبنفسجية. الضوء، وآه من الضوء وألغازه... كان نايجل قادرًا على تمييز ضوء الأربعاء من ضوء يوم الأحد. لطالما قال إن أفضل ساعة للرسم في لندن هي الساعة الأولى لبزوغ الشمس، لهذا كان يستيقظ في السادسة للعمل، حتى لو نمنا ثملين. كان قويًّا كفتى إسطبل ويداه كيدي جزار.

تعرفت إليه بفضل مزيج من المصادفة، والاعتباط، واللا وعي، بعد أن تمكنت سالي من الظفر براتب إضافي إلى جانب ذلك الذي نتحصل عليه من الحانة، وذلك بالعمل كعارضة رسم عارية في أكاديمية «سان مارتينز». في إحدى مساءات أكتوبر، بينما أنتظرها في الردهة وسط بلبلة المدرسين والطلاب، قررت تسلية نفسي بقراءة لوحة الإعلانات وحدقت إلى إعلان لرسام إنجليزي اسمه نايجل تانر يطلب عارضة ذات شعر داكن لأستوديو خاص: امرأة يتراوح عمرها بين عشرين وثلاثين عامًا. «عليكِ أن تذهبي بالطبع. لا تكوني حمقاء. أسوأ شيء هو لحظة خلع ملابسك والوقت المستغرق في خلع اللباس التحتي ومِشَدِّ الصدر.

بعدها لا يصبح أي شيء مهمًا. الخدعة لتظلي ثابتة بلا حراك، هي أن تفكري في أمورك الشخصية». لطالما أحببتُ أغنية «**ارقدي يا سالي**». اعتادت أن تقول إن إريك كلابتون كتبها لها.

آنذاك لم أستخدم مشدات الصدر. في أول مرة وصلت فيها إلى باب المرسم، أخرجتُ الورقة الصغيرة من جيبي، كما اعتادت أمي أن تفعل مع عناوين البيوت التي تنظفها لتتحقق من صحتها، رغم أنني كنت قد حفظت العنوان في ذاكرتي: العمارة رقم سبعة في شارع «كيتشنر». كان نايجل يعيش في منطقة «بيرموندسي» بعد جسر البرج، حيث يبدأ مجرى التيمز في التعرج على هيئة لسان وتزداد مياهه عمقًا؛ هناك حيث تبدأ أحواض الميناء وورش إصلاح السفن المتهالكة. المشهد الطبيعي والمسار من محطة القطار إلى البيت أمران آخران حفظتهما في ذاكرتي. الأكواخ الخشبية القديمة، نعيق النوارس، غطسها في النهر بحثًا عن الطعام، ارتطام المياه بالطمي الأخضر فوق مصداتها، وأجواء المقاومة غير المجدية داخل الحي الذي أدخله الجشع في مرحلة الهدم. رائحة القرفة والفلفل، البناية الصغيرة التافهة المصنوعة بالطوب الأحمر التي تبدو كورشة ميكانيكي أكثر من كونها مرسمًا، والباب المعدني، الذي كان مواربًا كما أخبرني بصوته على الجانب الآخر من الهاتف: «سأتركه لكِ مواربًا. الجرس لا يعمل». دخلت من دون أن أعرف أنني سأقع تحت سلطته، كأرنبة برية منومة مغناطيسيًّا.

أدرك نايجل على الأرجح أن الزيارة التي ينتظرها وصلت، لكنه لم يتحرك ولم يشغل باله حتى بإبعاد نظره عن نسيج اللوحة. استمر في عمله، كأنني غير مرئية. كنت فعلًا هكذا آنذاك. تحركت الفرشاة بين يديه، رغم ضخامتهما، بدقة فائقة تحت الإضاءة السيئة القادمة من كوات السقف التي عوضها النور القادم من مصباح مكتبي. ظهرت

الفوضى من وراء الساتر في الجزء السكني من المرسم: هناك طاولة حوامل رسم مزدحمة بالكتب والصور عليها بقايا دجاج مشوي في طبق. أيضًا، ثمَّة حوض استحمام مطلي بالمينا يرتكز على أرجل تبدو كقوائم الأُسُود، وسجادة مفروشة بأوراق الجرائد، ومقلاة جديدة استخدمها لخلط الألوان، وكيس كبير من رمل البناء، وفُرَش جافة بأشكال متنوعة، وجورب رسم غليظ، وإسفنجات، ومكاشط، وسكاكين، وأنابيب «وينسور آند نيوتون» نصف مستخدمة، ورشاشات أكريليك، ومعلبات كرات لحم فارغة تحمل علامة «فراي بنتوس» التجارية، ومدق رخامي، ومجفف شعر، وإطار دراجة هوائية مقطوع الأسلاك. على الرغم من أنني أعددت القائمة المفصلة لهذه الفوضى في الأيام التالية، فثمة عبارة مكتوبة بألوان فرشاة حمراء عند الجدار الواقع في النهاية، وراء الزاوية التي يرسم فيها، لفتت انتباهي: «**أن تكون فنانًا يعني أن تفشل بالصورة التي لا يتجرأ بها أحد على الفشل**». بدت رائحة الغرفة كمُذيب، لكنها لم تزعجني. لا أعرف كم من الوقت استغرقه كي يلتفت، لكنه يبدو في ذاكرتي كعمر أبدي. تنحنحتُ. حينما التفتْ في النهاية، ونظر إليّ، تولد انجذاب غريب لا تفسير له بيننا. قال: «أفترض أنكِ جئتِ بسبب الإعلان»، ثم جفف يديه في قطعة من القماش المضلع، ونهض من فوق مقعده عديم الظهر. دخل إلى الغرفة المجاورة، التي بدت كمطبخ. عاد بعد برهة بكأسين من الزجاج الرائق وزجاجة نبيذ أحمر فرنسي لا أتمكن من تذكر اسمه. صَبَّ لكلينا، وأخذ رشفة، وابتلعها، قبل أن يرفع كأسه عدة سنتيمترات فوق رأسه كي يدخل في دائرة ضوء المصباح، ثم قال: «هذا النبيذ.. اقتربي وانظري إلى درجات الأحمر.. رامبرانت [24]». تجنَّبَ النظر إلى وجهي، وأمال كأسه برِّقة نحو جانب ثم إلى الجانب

---

24- (24) رسام هولندي شهير. (المترجم).

الآخر، وهو يراقب حركة السائل على زجاجه ليهمس بدرجات ألوان لم أكن لأميزها آنذاك: أحمر قاتم، أحمر رُماني، أحمر فينيسي، أحمر المغرة، أحمر الهيماتيت، أحمر الفالون، الأرجواني الكارديناليّ، الأحمر الصدئ، القرمزي الجذموري، القرمزي الفارسي، القرمزي العادي، وكل هذا من دون أن يسألني عن اسمي. بعدها قال: «Welcome to my empire of dirt». أهلًا بي في إمبراطورية قمامته!

لم يجعلني أتعرَّى في اللقاء الأول ولا الثاني ولا الثالث. في ذلك الرابع تجرأت على سؤاله عن العبارة المرسومة على الحائط. أجابني بأنها اقتباس من صمويل بيكيت. تعلمت أيضًا في تلك المرة أن لمستخلص التَّرَبَنتِين تأثيرًا دافعًا للانتشاء ومختلفًا عن استنشاق غراء النجارة. كنت عارية، لكنه لم يلمسني. حدث هذا في المرَّة الخامسة. حينما دخلت، شغَّل الغلاية ووضع عدة آنية مملوءة بالمياه فوق الموقد، ثم عرض عليّ فنجانًا من الشاي لتزجية الوقت إلى أن تسخن المياه. لم يتمكن من التوقف عن النظر إليّ. حينما صرت جاهزة، خلع ملابسي وفك ضفيرتي، وقال لي أن أدخل حوض الاستحمام، ثم صَبَّ فوقي المياه الدافئة وسيقان زهور السوسن الأزرق وسيف الغراب الأبيض. جلس أمامي إلى المقعد عديم الظهر. أتذكر صافرة الغلاية وهمس القلم الفحمي فوق الورق. بعدها مارسنا الغرام في نفس المكان، فوق الجرائد، وأنا مبتلة وباردة. آنذاك لم أعرف أن أوفيليا هي خطيبة هاملت ولا أنها أصيبت بالجنون. لم أعرف أيضًا أنها أغرقت نفسها في جدول مائي.

بعدها بستة أشهر، كنا نعيش معًا وبتُّ أعرف نسبة الصبغة الدقيقة اللازمة لمحاكة درجة لون بشرتي. الأبيض الفضي، الأسود العاجي، والأصفر الترابي. كنا آكليّ لحوم وقعا تحت طغيان شهوة اللحم والجنس، وهو الأمر الذي ظننا المكان الوحيد الآمن لنا آنذاك.

يُخرجني نباح الكلبين من انغماسي في ذاتي. لا بُد أنهما ظَلَّا ينبشان ما أسفل اللبلاب، والآن يجتازان الفناء والبوابة ركضًا. ثمة أحد يقترب. أنهض، وأمضي وراء بلوتو وأرى جسدين فوق الطريق المؤدي إلى غابة البلوط. تخفت الألوان والقمر إزميمًا، لكنني أميِّز مع اقترابي بشرة إبراهيما الداكنة. يأتي جارًّا دراجته حاملًا بعض الحقائب. لا بد أن مَنْ يسير إلى جواره هو «بياض الثلج»، الأوكراني. مُحيًّا كل منهما لا يُبشر بالخير.

يسألني إبراهيما محدقًا إلى وجنتي حيث تمتد الرَّضَّة كبقعة نبيذ تبدأ عند حاجبي المفتوح:

- ما الذي فعلتيه بوجهك؟

- إنها قصة طويلة.

لا يطيبُ لي أن أحكي الآن قصة السهرة الطويلة مع روداليس ولا الاستقبال الرائع الذي قَدَّمه لي. يشيح إبراهيم بصره بنظرة ازدراء. أنت أيضًا، يا إبرا؟ أعرف ما الذي تفكر فيه؛ سقوط الثمالة الذي تتخيله، لكنني أُغيّر الموضوع سريعًا:

- وأنتما؟ ما الذي ضاع منكما هنا؟ إلى أين تذهبان بكل هذه الأكياس؟

يقول فيتالي:

- سأمكث فقط لمُدَّة أسبوع يا أنخيلا، أو لمُدَّة قريبة منه، هذا إن لم يكن الأمر سيزعجك.

- لكن، ما الذي يحدث؟

يُعلن إبراهيما:

– لقد طردونا. لا تحتاج إلينا التوأمتان. لا تحبان أن نستمر في العيش في «لاس بريناس». لقد قربنا ديونيسيو بالسيارة إلى بداية الدرب.

# مستنقع الزمن العالق

أزهرَتْ شجرةُ برقوق إيميتريا ببياض شديد الصفاء إلى درجة تؤذي النظر. تسقط الشمس الآن فوقها بكامل قوتها، فتتأجج أزهارها بهذا البياض وترسم أوراقها ظلالًا في جِلد جفوني. إن ضَيِّق المرء عينيه، يبدو لِحَاؤها أخضر مائلًا إلى الزرقة. أرَكِز، وأنا راقدة على المفرش القديم تحت أغصانها، في أزيز نحلة ثملت من رحيقها وفي صوت المُدْيَة الذي يبدو همسًا. ساك. ساك. ساك. يقطع إبراهيما غصن زيتون بالأسلوب الرعوي، وهو يجلس إلى جواري، بساقين مربعتين، وظهره يستند إلى جذعها. تبرز ندبة زنده مع هذا الضوء. لقد أزالوا جزءًا كبيرًا من لحمه. قَصَّ عليّ أنه لما وقع الشجار كان يعمل في وردية ليلية في مذبح تعاقد معه بأوراق شخص أسود آخر. المقابل: ستمائة يورو في الشهر، وفراش في جناح سكني مجاور للمصنع استحال النوم فيه نهارًا بسبب الحَرِّ والبعوض ومرور الشاحنات المستمر. الدم، والأحشاء، والسكاكين، ورجال وحيدون.. نعرف بعضنا منذ ثلاث سنوات بالفعل، لكنه لا يزال يهرب مني ببراعة ثعبان الماء، رغم أنني أثبت له أن بإمكانه الوثوق بي. هل تعلَّق الأمر بدين نقدي؟ بامرأة؟ بمشكلة الأوراق نفسها؟ أم بالأمور الثلاثة معًا؛ لأن المصائب لا تأتي فُرَادى؟ أيًّا كان، فقد تورَّط في شجار قبيح واضطر إلى الفرار بجرحه المفتوح الذي تحوَّل لاحقًا إلى قشرة غليظة خشنة تبدو كأنها قد حيكت بخيط في عظم ساقه. قضى ستة أيام يسير فوق قدميه عبر الجبل مترصدًا كل ما حوله، منتظرًا غروب الشمس كي يستأنفَ طريقه. أحيانًا، أفكر في أن مواطنه الذي طعنه، قد نال أسوأ ما في الموضوع، وهذا هو مَرَدُّ هروبه على طريقة الأفلام. ما من أحد يعرف شيئًا عمَّن هم سواه. جاء إبراهيما من بعيد، من الضفة الأخرى للسلسلة الجبلية الواقعة جنوبًا، من مكان يرفض تحديده،

ثم توقَّف في الضيعة؛ ولأن خوليان خلدون- مالدونادو، سيد عالمنا الصغير، فطينٌ على الدوام، لم يمانع أن يستقبله في المزرعة حيث لم يعوزه عمل أو طبق طعام. كذلك، لم يدخل الفتى في أي مشاكل. ما من أحد هنا يطرح أسئلة كثيرة، فهذا المكان يبتلعنا نحن معشر الهاربين.

يعمل إبراهيما بعصاه بِتُؤْدَة، مُنَعِّمًا العُقَد بصعوبة. خشب الزيتون قاس، كأرض هذه السماوات البخيلة، بحقولها التي أحرقتها شموس متوحشة طيلة قرون. هنا، لا تبخل الشمس على الفقراء ويومًا ما ستحرقنا أحياء. لم تُمطر السماء حتى الآن. تُبهرني حركة يديه القويتين والمرنتين في الوقت ذاته. يخبو لمعان خاتم بِنْصَره الفضِّي متعارضًا مع لون جلده. قد يحتاج المرء في هذه اللحظة، أسفل هذا الضوء الذي يتسلل من بين أوراق شجرة البرقوق، إلى خلط لون التراب المصفر، مع أخضر الفيريديان وربما القليل من برتقالي الكدميوم للتوصُّل إلى مقاربة غامضة للون بشرته. الإضاءة المتقلبة، ألوان النهر المتغيرة... لو أن نايجل الآن في مكاني لَرَأى صبغة لون أخرى تعجز عيناي عن ملاحظتها في ظِل ذقنه. كلما نزعت المُدْيَة طبقة شديدة الرقة، ظهرت عروق صفراء وسوداء متمازجة في قلب الخشب الذي سيصقله لاحقًا بالإزميل المقعر وورق الصنفرة إلى أن يحوله إلى شكل مغاير. ينحت إبراهيما من أفضل الفروع التي يحتفظ بها ويشذبها زرافاتٍ وأفيالًا أقدامها غير متساوية، وسلاحف أصدافها صغيرة، وطيورًا أجنحتها ملتصقة بجسدها. كلها حيوانات غليظة الهيئة يسعى إلى بيعها لاحقًا في السوق. إنها مجرد عبارة أقولها، فهو حقًا لا يبيع أي خراء، فكثيرًا ما يعود في أيام الآحاد بيدين خاويتين. لا توجد أي مؤشرات أنه سيخرج اليوم من «إل أتشويلو». لا يبتعد إبراهيما أكثر من اللازم أيضًا. لا عن البيت ولا عن الضيعة ولا عن الإقليم.. تحسبًا فقط.

إنها الخامسة مساء. لم نأكل بعد والأوكراني لا يزال نائمًا ليعوِّض ما فاته ليلًا. مَرَّ شهرٌ منذ باتا يسكنان البيت، ورغم كل شيء، فالتعايش معهما أفضل مما توقعت. وصلا بصورة مرتجلة للغاية من «لاس برينياس»، من دون أي حماية وكل ما معهما هي صُررهما وحقائبهما. كانا في شدة الهشاشة أمام السياج، إلى درجة عجزي عن إبداء رد فعل. من دون أن أتشجَّع على تنظيف أي من الغرف الخاوية، سَكَّنتهما معًا في الحجرة ذات السريرين حيث اعتدت أن أنام أنا وأمي، لكنني قبلها أخرجت رماد أبي. هو الآن حيث يجب أن يكون، فوق الكومود، في غرفتي، معي أنا وإيميتريا.

عثرا فورًا على شيء ليشغلهما وشرعا يعملان بجد، كأنهما يرغبان في أن يُسددا بعرقهما مقابل استضافتهما والأربع وجبات التي أعدها لهما. شَدَّا أسلاك المنشر، وساعداني على تبييض حوائط السقيفة وحظيرة الدجاج بالجصِّ، وركبا لي قراميد السطح. لا أعرف من أين جاءا بالقراميد الجديدة. كانت نصف دستة. فكرت في أنهما على الأرجح سرقاها من أحد البيوت نصف المهجورة في القرية، لكنني لم أرغب في التحقق من المسألة. أصلحا أيضًا جزءًا من السياج العفن؛ ذلك الفراغ الواقع عند البستان. رجلان يعتليان السطح. رجلان بقوة المطارق يغرسان الأوتاد في الأرض. لقد نسيت جمال جذوع الأجساد العارية، والأوتار البارزة، والتشريح المثالي لعضلات السيقان الرباعية. فيتالي هو بغل الأحمال. سِمات المزارع السلافي ملحوظة عليه، أما إبراهيما فحيوان في قمة عنفوانه: مثال رائع على أناقة الهيكل البشري والبنية العضلية المضغوطة والمرنة في ذات الوقت. على الأرجح ليس عليّ أن أشعر بالرغبة، لكن هذا ما حدث ولهذا داعبتُ نفسي.

أتفهّم الآن أن الكنز الحقيقي موجود في السعادة والصبر، رغم أنني

اعتدت في صغري أن أحسد الرجال على قوتهم البدنية، ومقاومة أجسادهم لأقصى حدود الإنهاك. رأيت هذا الأمر في نايجل. لم أرَ تعبيرًا في عينيه إلا وارتبط بالإنهاك. يتطلب الرسم والحفاظ عليه قوة تحمل الخيول. ذات مرة، حاول وهو في قمة تعبه الانتهاء من لوحة احتلت المساحة الكاملة للحامل، فجرح نفسه بالمِسْوَاط - المسواط الحديدي المُخصص للكشط - لكنه لم يتوقف، رغم تلطيخ الدماء لنسيج لوحته، إذ استمر يلونها بمعصميه الواثقين ليمزج ممسوسًا بين دماء أوردته والألوان السميكة، من دون أن يسمح لنفسه بالشعور بالألم، رغم عمق شق الجرح. «**إنه مجرد ألم. إنه مجرد ألم**» [25]. هكذا كان الأمر، مجرد ألم. ثمة حاجة أصلًا إلى القوة كي يقتل المرء نفسه: كي يصعد فوق الحاجز ويتجاوب مع اندفاع القفز من فوق جسر؛ كي يغوص بنصف سكين في لحمه؛ كي يتسلق شجرة جوز ويربط حبلًا في أكثر فروعها متانة. لو أنني ذات يوم قررت أن أقتل نفسي وأختفي، فأي أداة قد تطيع يدي؟ الحبل؟ قارورة الغاز؟ أقراص النوم؟ شفرة الحلاقة؟

لا يجب عليكِ أن تفكري في هذه الأمور. لا يجب عليكِ أن تفكري فيها.

استغرقَتْ أعمالُ الإصلاح في المنزل أسبوعين. خلال هذه الفترة، فرض علينا ضبط النفس الذي تطلبه العمل والإيقاع المنظم لتراتب الأيام حماسًا نوعيًا، ومحاكاة لأحد أشكال الصداقة، وعلى الرغم من أنني لست في حاجة إلى أحد، شعرت بالامتنان ساعة تلو الأخرى في رفقتهما. مع ذلك، نعيش منذ عدة أيام في مستنقع الزمن العالق؛ مجرد هدوء ظاهري مثقل بالتهديدات. يُزعجني شيء أعجز عن تسميته. تحذير إيميتريا والأصوات؛ الأصوات ونبرتها الوادعة: «تعالي، تعالي،

---

25- (25) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالإنجليزية. (المترجم).

الجو جميل هنا». الاسترخاء وحش يلتهم الرجال، ولا أرغب في أن يجرَّاني معهما: الأجواردييننتي، الطعام في غير وقته، الصباحات التي تتحول إلى أيام غير نافعة والشجارات السخيفة مثلما جرى بالأمس. كنا نخمن الأسباب التي دفعت السيد إلى الانتحار، وفجأة اعترف إبراهيما - كأنه ليس أمرًا جللًا أو مجرد موضوع صغير- أنه في المساء السابق للانتحار رأى شجارًا بين خوليان وديونيسيو في الإسطبلات. تجمدتُ في مكاني. لماذا لم يقص عليّ الأمر مسبقًا؟ من جانبه، لم يصدقه فيتالي، إذ أخذ يضحك ثم التوت تعبيرات وجهه واتهم إبراهيما باختراع هذه القصص ليظهر في الصورة، قائلًا إنه سبق وكشف عددًا من أكاذيبه في أمور الشغل. اشتبكا معًا، فوصف إبرا الأوكراني بالواشي بسبب موضوع قديم يتعلق بالعمل. هدأتهما قدر استطاعتي وصعدت إلى الغرفة متحججة بالإرهاق، قبل أن يستحيل طعم الليلة لاذعًا. لم يتأخر الاثنان أيضًا في النوم.

يسأل إبراهيما الآن من دون أن يرفع عينيه من على الفرع الذي يمسكه:

- لماذا كان رد فعل «بياض الثلج» بهذا السوء؟

لا ينحت حيوانًا اليوم، وإنما يزجي الوقت بصناعة شقوق جيومترية في العصا التي يبلغ حجمها شِبرًا تقريبًا.

يقطب جبينه ويعيد الكرَّة:

- أنا لا أكذب.

أتظاهر بعدم الاهتمام وأقول أول ما يخطر على بالي لتقليل أهمية ما حدث بالأمس:

- حسنًا. كان مجرد سوء فهم. إنها مكائد اللغة. تمكُننا نحن الثلاثة من

فهم بعضنا أصلًا معجزة.

يقول بضيق:

- لا تدافعي عنه.

ألاحظ الغضب على طرف لسانه وبين أسنانه، فأنفذ توقفًا مدروسًا:

- تتبدل أحوال الأوكراني بعدَ النبيذ. أنتَ تعرفه بالفعل. لقد جعلته يفقد تركيزه، كما حدث معي أيضًا. كان عليك أن تتحدث معي ونحن بمفردنا قبل هذا الشجار.

نصبت له الآن مصيدة في عبارتي. لم أكن أنتظر القصة التي حكاها على أي حال، لكنني سعيت إلى استخراج المعلومات، من دون أن أضطر إلى اعترافي بما أعرفه؛ بما عرفته طيلة هذه السنوات.

يتفادى إبرا النظر إليّ:

- لم أتذكر. لم يخطر الأمر على بالي إلا مع مرور الأيام.

أنكزه عمدًا كي يُفلت ما يعرفه:

- أليس الأمر اختراعًا منك، كما يقول الأوكراني؟

يتجاوب إبراهيما بتحريك المُدْيَة في الهواء:

- كيف لي أن أخترع شيئًا مثل هذا؟ أقسم لكِ يا أنجي. لقد سمعتهما. أنا سمعتهما!

يُحدق الآن إلى عينيَّ بثبات:

- كانا يتناقشان داخل الإسطبل، وأنا أحش الأعشاب في الخارج، فمن

وراء السياج، يُمكن سماع كل شيء.

أُفرط في المخاطرة بسبب رغبة المعرفة:

- أن يتشاجر خوليان مع رئيس العمال عشية انتحاره مسألة لا تعني شيئًا على الإطلاق. ما هو مسعاك؟ أم أنك تلقي بالذنب على ديونيسيو في شيء ما؟

- أنا لم أقل هذا.

يُفلت إبراهيما عصاه ويغرس المُدْيَة في الأرض ليقطع المفرش الريفي:

- لقد لكمه السيد. أخذ ديونيسيو يبكي بعدها، لكن من الغضب، ثم بكى خوليان. لقد بكى الاثنان وهما يتعانقان.

لم يكن علينا أن نصل إلى هنا على الأرجح، ورغم ذلك ها أنا ذي أقول له من دون رغبة:

- لماذا لم تقل لي هذا الأمر إلا الآن؟ لماذا؟ هذا ليس عدلًا. لقد خاطرت بالكثير من أجلك.

يُجبره السؤال على الإشاحة ببصره. يصمت. يأخذ نفسه عميقًا ويزفره عبر فمه بصوت. يُمسك نصل المُدْيَة. يُغلقها. يظل صوت طقطقة الزنبرك عالقًا في الهواء. يتلاعب بها، موجها ضربات خفيفة بطرفيها إلى فخذه. يبتلع لعابه. لم يحكِ لي لأنه يعيش في خوف؛ في خوف من القيام بخطوة سيئة؛ مع السيد، أو مع ديونيسيو، أو مع الجيران أو معي.

يرتعش صوته الآن بطعم الرجاء:

- آنجي. آنجي. انظري إليّ.

أطيعه. أنظر إليه الآن. يزعجني الضوء المنحرف لشمس المساء. يبتلع لُعابه مجددًا ويهمس:

- أنتِ الأخرى تعرفين شيئًا، أليس كذلك؟

لقد ضبطني متلبسة. يؤلمني عظم جبيني. أفركه براحة يدي. أعتدل ثم أرقد فورًا فوق المفرش، مستخدمة ذراعيَّ كوسادة أسفل رقبتي. صمتي موافقة. صحيح، بالطبع أعرف، وحدث هذا بالصدفة. أعرف، لكنني سأحترم ذكرى خوليان وحرية رئيس العمال كأنني أدافع عن حريتي. أعرف، لكنني لم أود مشاركة معرفتي مع شخص آخر. رأيتهما منذ سنوات، أثناء نزولي من إحدى نزهاتي في التل، قبل وصولي إلى البِركة متبعةً مسار النهر. كانا قد صعدا على حصانين وتركاهما مربوطين في جذع شجرة بلوط. رأيتهما هناك، وسط الدغل المتشابك. السيد خوليان وديونيسيو وهما يتبادلان العشق بطريقتهما الفظّة والبائسة. أعرف. إنه أمر صحيح. ظللت مختبئة، لأتجسَّسَ عليهما وشعرت بالإثارة. أعرف. لطالما عرفت. رأيتهما يتبادلان النظرات أثناء العمل، وتعلمت القليل من لغتهما السرية المُصاغة من الذكورة والإشارات الجافة. فكرتُ كثيرًا من دون رغبة في الكيفية التي تمر بها لياليهما كعاشقين: إن كانا ينتظران شيئًا، أو إن كانا يغيران على بعضهما، أو إن كانا يحتفظان بحقيقة ما لأجلهما فقط. مَن أنا كي أحكم عليهما؟ مَن أنتم جميعًا؟ ما الذي تعرفونه عن الشغف؟ أنا ما زلت أحيا في أثره. أنتم تتحدثون وتتحدثون وتتحدثون ولا تعرفون شيئًا. ما الذي يعرفه أحد عن الأسباب التي تدفع شخصًا إلى الانتحار؟ لا تخطئوا: مالك «لاس بريناس» انتحر لأنه يحمل بذرة الدم الفاسد؛ لأنه كان لديه عيون المجريين الزرقاء المائلة إلى

الرمادي.

- تمكَّنتْ فقط من سماع عبارات منفصلة. المزرعة. حسابات البنك... بدا لي أنهما يتعاتبان بخصوص وعود لم تكتمل، ثم قال السيد: «أنت جاحد».

المال. المال الملعون. هل كان ديونيسيو يبتزه؟ لا. لا معنى لهذا. إنهما معًا منذ فترة طويلة وأعتقد أنهما كانا يحبّان بعضهما. ربما تخوف رئيس العمال من كبر سِنِّه، فما الذي كان سيحدث حين يعجز عن العمل في الحقول وعن قيادة مرؤوسيه؟ هل كان دون خوليان سيدعوه ليعيش معه أسفل نفس السقف؟ السيد خلدون- مالدونادو بكاثوليكيته المتزمتة.

أسأله:

- هل حكيت للأوكراني؟ أقصد ما كانا يتحدثان عنه.

- لا. لم أحْكِ الأمر لأي شخص.

أصدقه. لو أن شيئًا يروقني في صحبة إبراهيما، فهو أنه يعرف متى يصمت. كلانا يعرف متى يجب أن نطبق فمينا في الوقت المناسب.

يقول إبراهيما:

- انظري. ها هو آت.

أعتدل وأنظر حيث يشير إليّ بعينيه وطرف ذقنه؛ إلى باب البيت. ها هو ذا فيتالي يخرج إلى العالم، من دون أن يصفف شعره، وقميصه مفكوك الأزرار فوق بنطلونه الـ«جينز». يبدو قلقًا. يتسكع عبر الفناء وحول السياج، كأنه لا يعرف إلى أين عليه أن يذهب.

أرفع ذراعي وصوتي:

- صباح الخير.

يقترب منا، برأس مطأطئ، ويديه في جيبيه. يصل إلى شجرة البرقوق، ويتشبَّث بأحد أغصانها، ثم يحدق إلينا من الأعلى ويبتسم.

أقول له:

- هل تشعر بالجوع؟

ينفي فيتالي برأسه، ويجلس بحركة رشيقة إلى جواري، قبل أن يضم ركبتيه بين ذراعيه. يتحرك إبراهيما عدة سنتيمترات فوق المفرش. تفوح من الأوكراني رائحة القهوة. يسأل:

- هل ستنزلان إلى حانة توماس؟

إنه يوم الأحد. هذا هو المتعارف عليه: أن نستمر في الشرب وأن نعلم آخر الأنباء من الضيعة.

يُجيبه إبراهيما:

- سنذهب لاحقًا. بالنسبة إليّ، أنا فعلًا جائع الآن.

نمكث برهة غارقين في الصمت. ليس لدينا الكثير لنقوله لبعضنا. واحد. اثنان ثلاثة. أنفض الكسل وأنهض. ربما من الأفضل أن نأكل شيئًا قبل أن ننزل إلى الضيعة. أمُدُّ عودي وذراعي نحو شمس المساء، التي يبدو لونها خُوخيًّا مع لمسة شبه أرجوانية. هل تأمل خوليان هذا العرض قبل وفاته. ثمة مغزل يلف داخل رأسي منذ عدة أيام ويربط عُقَدًا وانتحارات متتالية: في البداية غريقة البئر، ثم ابنها السيد كاسيانو، ثم

خوليان. إذا كان أبي نصف شقيقه، إذا كان يحمل دماء عائلة خلدون الفاسدة، فهل ثمة احتمالية أنه هو الآخر قد انتحر؟ هل سمع أصواتًا؟ الظنون تتواءم جيدًا: ظللتُ لمدة ثلاثة أيام في بيت السيد ماتيو من دون أن أسمع خبرًا من أمي، لم يسمحوا لي برؤية أبي ميتًا ولا حضور دفنه، وتشبَّع البيت آنذاك بحزن أسود، لكن لماذا طلب إليَّ أن أشتري علبة تبغ له لو أن نية الانتحار كانت مُبَيَّتة قبل نزولي على السلالم؟ هل يرغبون في جرِّي إليهم أنا الأخرى؟ لا. ليس عليّ أن أفكر في المسألة. التفكير من دون هدف سيئ.

يتلاعب النسيم بأوراق شجرة البرقوق. بعضها جَفَّ ويلتوي نحو الداخل، كمخالب الطيور. غدًا، سآخذ السلم وسأنزعها واحدة تلو الأخرى. أشحذ سمعي لأنني الآن، أظن أنني أميز دمدمة قادمة من بعيد. صحيح. إنه هدير محرك سيارة تأتي نازلة عبر وصلة الطريق الإقليمي. نهض الفتيان. ينفض إبراهيما المفرش. إنها سيارة كاتب العدل الزرقاء، وهي عربة جيدة، من تلك التي يستخدمونها في العاصمة. أعرفها بسبب مرات سابقة. يطل علينا هو وجماعته بين الفينة والأخرى، كلما مات أحد العجائز الذين لم يأخذوهم بعد إلى الجمعية الخيرية حيث تقيم خاكوبا، كما تفعل الطيور الآكلة للجيف حين تشم رائحة العفن الحلو المُرِّ للجثث. أتذكر جيدًا هذه الرائحة من مشغل نايجل. يبدو أنهم سيتوقفون أمام البوابة المسيجة، لكن بمجرد ملاحظتهم أنني قادمة يمضون في طريقهم. على الرغم من أنني لم أتمكَّن من تمييز الوجوه، أظن أن ثمَّة ثلاثة أشخاص على الأقل داخل السيارة. ثلاثة أو أربعة. أخرج إلى الطريق، فيغادرونه عبر الدرب المرسوم بقوة الإطارات والممتد نحو حقول «لاس بريناس». يقللون سرعتهم. يمضون الآن ببطء وهدوء، كأنهم يخشون إلحاق الضرر بواقيات الطمي أسفل سيارتهم، أو بالأصح

كأنهم يتشمَّمون كل شبر من الأرض.

لست نبية أو عرَّافة، لكن ثمَّة اختلاج يخبرني بأن شيئًا سيسقط فوق رؤوسنا.

إياهم أن يقتربوا مني!

# الواهفة تيودورا

لم تعُدْ رائحة الكنيسة الكريهة تزعجني. لا بُدَّ أنها نفس رائحة المقابر من الداخل، كخليط من رائحة الطين والبخور البارد، والورق القديم المكسو بطفح العفن. كان من الممكن أن أقضي أسابيع كاملة أتصفَّح سجلات الأبرشية، لكنني عثرت للتو على ما أبحث عنه: يظهر أبي في سجل التعميد ابنًا لمَن بِتُّ أعتقد فعلًا أنها جدتي. تسلَّيت بتصفح مجلدين يعودان إلى العشرينيات، تحسُّبًا لأن تكون أمي وذاكرتها قد خالفهما الصواب في تذكُّر التاريخ الدقيق، لكنه يظهر حيث يجبُ أن يكون موجودًا، ومكتوبًا بيد القسِّ المسؤول آنذاك بخط أنيق: "جابرييل ماروتو لوثينا، المولود في السابع من فبراير 1924، ابن إيميتريا ماروتو لوثينا، عزباء. يُقر به قانونيًّا وتعميديًّا ابنًا لأبوي الأم: جابريل ماروتو ألكاراث وخوسيفا لوثينا بورباالاس". ها هو ذا اسم أبي مكتوبًا بالقلم الرصاص، كأنه قابل الاستغناء عنه تقريبًا؛ كأنه كان من الممكن ألا يصبح موجودًا على الإطلاق.

لقد خدعوني. كذبوا عليّ عمدًا. ظللت أجري حساباتي حول تاريخ ولادة ووفاة عمي، ووجدت أن قصة روداليس تتوافق مع النسخة التي ودَّت إيميتريا أن تنقلها إليّ من بين الأموات. كل القطع تتواءم: ثمة فارق بين باولينو، الأصغر بين أخوي إيميتريا الحقيقيين، وأبي مقداره عشرين عامًا. لو أن جدتي الثانية خوسيفا - أو الأولى وفقًا لإعادة الهيكلة العائلية للأحداث - ولدته فعلًا، فستكون قد فعلتها وهي في الثانية والخمسين من عمرها على أقل تقدير، وهو أمر ممكن، لكن احتمال حدوثه قليل جدًا. حكيتُ للقسِّ فقط ما يُمكن أن أحكيه له. يجب القساوسة أن يتحدث معهم البشر عن الموتى؛ موتى الكتب المقدسة.

«إذن، روداليس يقول إن عمتك ليست عمتك، وإنما جدتك.. لكن يا امرأة، كيف لكِ أن تثقي في كلمة سكير؟ هل يهمك الأمر كثيرًا؟ المسألة في يدك، لو أن هذه هي رغبتك فعلًا، فهيا، قلبي في الدفاتر كما يحلو لكِ». اهتمَّ بشكوكي في النهاية، والحق أن القسَّ، أبانا الصغير أندريس، لا يزال يبحث عن قُربي. عليّ الآن أن أتمكن بأي طريقة من إقناعه بأن يأخذني بسيارته إلى العاصمة وإلى المحاكم والسجل المدني للمقاطعة. سأذهب حيث يتطلب الأمر كي يرسلوا إلينا الوثيقة من برشلونة. القسُّ سيساعدني. لديه إنترنت. لن يرفضوا طلبًا له. أرغب في أن أقرأ - حرفًا تلو الآخر- شهادةَ وفاة أبي.

مَرَّ عليّ أسبوع طويل وأنا أُنقِّب في الموهف. كنت سأعود غدًا واليوم الذي يليه، والذي يليه، لولا أنني لم أعد أطيق أثر الواهفة. تُراقبني لكيلا أدخن داخل الحجرة أو لكيلا أسرق الخردوات الموجودة في الداخل، بل وإنها خلعت مصباح السقف لتزعجني وأنا أقرأ. يشُقُّ عليها أيضًا أن تتخلَّى عن مفتاح الخزانة التي يحتفظون فيها بأقدم الملفات. لا تثق فيَّ، رغم أن أبانا أندريس، كما تناديه، قال لها إن لديّ إذنَه بالقدوم والبحث قدر حاجتي. لم تكن أبحاثي سيئة، رغم مضايقات تيودورا. لقد اجتهدت كنملة حمراء. أنا عنيدة وصبورة إلى حَدِّ المَلل، كما حدث حينما أصَرَّ نايجل على العودة إلى ألوان القدماء الحمراء الصافية وعلَّمني أن أُعِدَّ له خلطات الصبغة في المدق كرسامي العصور الوسطى، باحتساب النسبة الدقيقة لأكسيد الحديد، وزيت بذر الكتان والتربنتين، والشمع البكر، والمِسْواط في قبضتي وصولًا إلى الدرجة التي يرغبها. هذا هو نفس ما يحدث هنا، اسمًا تلو الآخر، وأنا أفك الخطوط المختلفة، لكل كهنة الرعية عبر العقود المتتالية. اكتشفت وسط هذا البحث الدقيق الذي انشغلت به طيلة الأيام الماضية، أن أحدًا سبقني في بحثي. ثمَّة

من نقَّب وسط دفاتر الوفيات بالعناد الأعمى لحيوانات خُلد الماء. ثمَّة مَن لاحق نفس الخديعة التي ألاحقها؛ ذبابة الخيل التي ترفرف بإصرار داخل رأسي كي تأخذني إلى موت أبي. حدَّدَ أحدٌ ما بعض الأسماء برسم صليب بالقلم الرصاص في هوامش الدفاتر عند تلك الأجزاء التي تتحدث عن حوادث انتحار أو تدعو إلى الشك في وقوعه، على الرغم من أن الكلمة نفسها لا تستخدم أبدًا، مثل تلك الفتاة التي تركها عريسها عشية زفافهما وكفنوها بطرحتها وتُلَّها ووضعوا معها ملاءات شُوَارها المطرزة داخل التابوت. أُخمِّن أنها هي لأن كلمتي «كُلَّابة» و«حظيرة» انغرستا فيَّ منذ تلك المحادثة التي أجريناها في حانة توماس. أقرأ: «كاتالينا كوباليدا مارتوس. تاريخ الوفاة: الثامن من أغسطس 1957. عثر عليها مشنوقة في كُلَّابة حظيرة أرض لاس فراجواس. لم تشملها الطقوس». دفنوها في باحة المشنوقين. ثمة علامات أيضًا عند بؤساء عائلة بوليدو. الأبناء الثلاثة الذكور الذين مع مرور السنوات شنقوا أنفسهم واحدًا تلو الآخر في أشجار المزرعة، بعدما فعل أبوهم نفس الأمر. أستدل على المسألة بسبب تطابق اللقب. آخرهم وأصغرهم: «أجوستين بوليدو بدروتشي. تاريخ الوفاة: الثالث من نوفمبر 1970. دُفن من دون مراسم أو جنازة بأمر من القسِّ».

من دون قصد، سَهَّل صاحب علامات الصلبان عليّ الأمر كثيرًا. لا بُد أنه الطبيب الذي أتى القسُّ على ذكره. الطبيب النفسي الذي زار الضيعة وبقية أبرشيات الإقليم منذ سنوات، مبهورًا بالأثر المتكرر لحوادث الانتحار. سأسأل أندريس عن الأمر، رغم أنه لا مجال للشكوك عندي. راجع الطبيب النفسي أيضًا مجلدات تعود إلى القرن الثامن عشر؛ تلك الموجودة في الخزانة، واضعًا علاماته هنا وهناك حول الميتات التي توحي بأنها ترتبط بوقوع حوادث انتحار، وهذا لأن كتابات القساوسة

المسؤولين حولها تكون غالبًا مبهمة، إذ يُفضل أغلبهم ألا يشيروا بصورة واضحة إلى إحباط من أزهق روحه بنفسه. ثمة استثناء. ثمة هدية: إنه كاهن رعية أسرف في التفسيرات. قرر الكاهن الذي دفن كاسيانو خالدون - والد السيد ووالد أبي - أن يطيل تعليقاته بصورة مثيرة للفضول، كأنه يود أن يغسل يديه من ذنب ما حدث في الإسطبل الذي عثروا عليه فيه: «الأحد، الثاني عشر من مارس، 1973: أجريت دفنًا كنسيًّا لجثة كاسيانو خلدون مالدونادو، الذي توفِّي في اليوم السابق في التاسعة صباحًا، بعد أن تسبَّب في موت نفسه عبر سُبل تعليق عنيفة. استبق الدفن اتخاذ كل الإجراءات الكنسية والقضائية المفروضة». ما يعني أن كاسيانو دُفن كنسيًّا، فقط بسبب هويته، وعلى يد ثلاثي القساوسة وملاك الأراضي والعسكريين الأبدي، وتحت أنظارهم، على الرغم من أن الانتحار شنقًا يعني طرده من سلام المقبرة الكاثوليكية. إنه كاسيانو، جدي المفترض من ناحية الأب، الذي تسبَّب في حمل إيميتريا ولم يعبأ بها. رودااليس مُحِق مرة أخرى: شنق السيد خوليان نفسه في ذات اليوم الذي انتحر فيه أبوه، مع فارق أنه فعلها بعد مرور اثنين وأربعين عامًا.

كرستُ أيامًا كثيرة لسلسلة انتحارات عائلة خلدون التي ابتلعتْ نفسُ البالوعة السوداء ثلاثةً من أفرادها. خصصوا لغريقة البئر ملفًا كاملًا. لا بُد أن القسَّ المسؤول عن الضيعة في السنوات الأولى من القرن العشرين كان دقيقًا جدًا، نظرًا لأنه اضطلع بأخذ شهادات حول مأساة «لاس برينياس»، وآراء حول عادات وشخصية السيدة. تحدث أيضًا مع الطبيب. أتخيل أن الحرمان من الدفن الكنسي للمنتحر كان عقوبة خطيرة ومدمرة وعارًا إلى أقصى حد بالنسبة إلى العائلات ذائعة الصيت آنذاك. إلى جوار اسم دونيا بريجادا، الغريقة، كتب القسُّ بحبر

أزرق باهت: «دُفِنتْ كنسيًّا لأن قدراتها العقلية كانت مضطربة منذ فترة طويلة». يا سلام! المسكينة التعيسة كانت مجنونة، أما عُمَّال اليومية، والناس قليلة القيمة، والمنتحرين من غير أصحاب الثروات، فمكانهم هو المزبلة، إلى جوار سور المقبرة حيث زهور الأضاليا.

تسألني الواهفة التي اقتحمت الغرفة ومعها مكنسة:

- الساعة قاربت على الواحدة؟ هل أمامك الكثير من الوقت؟

دخلتْ من دون أن تقرع الباب. دائمًا ما تفعل هذا الأمر.

- أنا أجمع أغراضي بالفعل.

تُداهمها حالة التنظيف المُلحَّة الآن. تكنس لتُصدر كل الضوضاء التي يُمكن للمرء أن يصنعها بمكنسة. اكنسي. اكنسي، أيتها العجوز المحبة للنمنمة. نظفي كل القذارة التي تُخفي كنيستك. لم تتركني ولو يومًا واحدًا في سلام. نظفتْ تراب البلاطات التي لم تمسسها منذ سنوات فقط كي تتلصص عليّ، وكلما استطاعت كانت تمد رقبتها ناظرة إلى الصفحة التي أراجعها. لا بُد أنها الآن تعرف ما أبحث عنه وفكرت فيه برأسها كثيرًا.

أناديها باسمها وهي مسألة لا تشغل بالها بفعلها معي:

- أنا راحلة يا تيودورا.

تقول من دون أن تنظر إليّ:

- أراكِ غدًا إذن.

البَشَرَة التي تغلف جسدها فيها مرارة تنفرني.

– لن أعود. لقد انتهيت.

يُسعدها ما سمعته للتو. تتوقف عن الكنس وتنظر إليّ بعينين نَهمتين، فأقول لها:

مكتبة
t.me/t_pdf

– اتصلي بالقسِّ، من فضلك.

– بالأب أندريس، الآن؟

تُشيح ببصرها وتستمر في كنسها المسرحي وتقول:

– مكالمات المحمول باهظة.

أطلب إليها الأمر بلطف، بأهدأ نبرة يمكنني أن أتصنعها:

– اتصلي به.

– لأي سبب؟

تود أن تعرف. تود أن تعرف. تود أن تعرف.

– أقول لكِ أن تتصلي به. ليس لديّ هاتف ولا محمول والأب أندريس طلب إليّ أن أتصل به بمجرد انتهائي. لا يوجد أي شيء، أي شيء على الإطلاق عن وفاة أبي. هل تفهمين؟ لا يوجد شيء.

إنها عجوز مُحِبَّة للشِّجَار. تُكشِّر عن أنيابها، لكنها في النهاية تمضي نحو مكتب الأبرشية. أسير خلفها عبر الطرقة الضيقة، غير المضاءة، وأكثر من كونها تتحدث، فإنها تدمدم كأنها تكلم نفسها:

– لطالما كنتم صنفًا واحدًا يا عائلة ماروتو، أنتم وطريقتكم.

أتظاهر بأنني لم أسمع شيئًا. تفتح العجوز الباب. تضع السماعة فوق

أذنها، تنظر إلى ورقة مثبتة فوق لوح الفلين بدبوس مكتبي. تطلب الرقم وتتفحصني من أخمص قدمي إلى رأسي. ما الأمر؟ ألا تحبين ما ترينه؟ أنتِ أيضًا لا تروقينني.

تقول:

- لا يجيب. لا بد أنه يقود السيارة.

- اطلبيه مرة أخرى.

تنظر إلى قدميّ. لا أطيق أن ينظر أحد إلى قدميّ.

تقول:

- لكن، إذا كان الأب أندريس سيأتي يوم الأحد، فلِمَ العجلة؟ عليه أن يلقي العظة هذا الأسبوع في الثانية عشرة.

أحاول الحفاظ على هدوئي:

- يجب أن أتفق معه قبل ذلك الموعد. عليه أن يأخذني إلى العاصمة.

ترتسم إيماءة ازدراء على فمها.

- أنتِ تسيرين وراء القسِّ كثيرًا.

لقد اكتفيت. أقترب منها. تفوح من أنفاسها رائحة الحليب. أحاصرها، فتتراجع خطوة إلى الوراء. تضم يديها إلى صدرها وتسند عجيزتها إلى حَدِّ المائدة. أقول لها ووجهها على بعد سنتيمترين من وجهي:

- هل تودِّين أن تعرفي ما الذي أفعله مع القس؟ هل تودِّين حقًا أن تعرفي؟

تنظر إليّ بعينين مفتوحتين باتساع وتقوّس حاجبيها. ها هي ذي تصمت الآن. إنها عاجزة على أن تبقي نظرتها إليّ.

- إذن سأقول لكِ: أحتاج منه أن يأخذني إلى العاصمة لأحصل على شهادة وفاة أبي.

أبتعد عنها وأقترب من الباب.

- وهل تعرفين السبب؟ لأنني أظنه قد انتحر هو الآخر.

لا أعرف ما قلته، ولا أعرف من أي واحدة من ثنايا مخي قد انبثق. أخرج إلى شارع «مايور»، وأنا أصفع الباب خلفي، وأسارع خطاي. تنفسي، يا أنجي، تنفسي. لماذا خرجتْ هذه المسألة من فمي؟ أسلك الزقاق المنحدر، ملتصقة بالجدار المجصص، عند جانبه الظليل. مع قليل من الحظ لن أقابل أحدًا. أودُّ فقط أن أنزل إلى بيتي وأن أنزع من داخل رأسي صوت سريان النهر، بضوئه المتغير، ونعيق النوارس، وهذا الخط الفضي شديد الرفع الذي يأخذني إلى ذلك اليوم الذي رحل فيه أبي عن هذا العالم. لقد مات يوم جمعة مطير. كان عمره واحدًا وخمسين عامًا، وأنا أحد عشر عامًا. واحد وخمسون عامًا هو نفس عمري أنا الآن.

عرفت أن أمرًا سيئًا حدث؛ لأن المعلمة أخرجتني من الفصل ورافقتني حتى باب البناء الكبير، حيث كانت العمة خاكوبا تنتظرني أسفل مظلة رجل. كنت أدعوها آنذاك العمة خاكوبا. استغربت رؤيتها؛ لأنها كانت نحو الرابعة مساء، وآنذاك اعتدت على العودة وحدي من المدرسة على الرغم من عدم وجود إشارات مرورية، لأتجوَّلَ قبلها أحيانًا في الأراضي الخالية. كانت تمطر كما الطوفان في قصص الأشباح التي اعتادت أمي أن تحكيها لي، وفكرتُ في أن خاكوبا جاءت لتأخذني ومعها مظلة، لأنه بأي طريقة أخرى، كنت سأصل إلى البيت والماء يسيل مني. وضعتْ

ذراعها فوق كتفي وضمَّتني إليها، برائحتها التي تشبه أمي كثيرًا، وظلت أصابعها تقرص رقبة معطفي المُزرر بأبازيم ومشابك تبدو كقرون التيوس. كان واسعًا عليّ لأنهم قدموه إلى أمي في الكنيسة.

سألتها:

- ما الذي يحدث؟

- أبوكِ يا أنخيلا، قد ساءت حالته كثيرًا.

- ساءت بأي طريقة؟

لكن خاكوبا لم تُجبني. لا بد أنها خرجت على عُجالة من المنزل، إذ كانت ترتدي حذاء من المخمل من دون جورب. استندت إلى كتفي، لأن النعل المطاطي جعلها تنزلق على الطريق المنحدر، ومن دون أن تدرك، غرست المظلة في ترقوتي. لقد آلمتني، لكنني حاولت أن أفكر في أي شيء آخر، وأنا أداعب قشور بذور دوار الشمس الطرية وورقة الخمسة وعشرين بيزيتا الموجودة في جيب معطفي.

ازدادت برودة وابل المطر حين وصلنا إلى ساحة أكواخ «سانتا إنجراثيا» وسارعت خاكوبا خطاها. لم تعرف لا هي ولا أمي ولا أي من جارات المساكن أننا معشر الأطفال كنا نذهب إليها رغم المنع. ضرب المطر أسطح المخازن المصنوعة من الحجر الصخري، متسببًا في ضوضاء عجيبة. كان أحدهم قد نسى أحدهم ملاءة فوق المنشر. كلما أمطرت في الحي؛ في أرض اليرقات العمالية الجرداء هذه التي لم تحمل أيًّا من طباع المدينة والريف، كانت شوارعه غير المُعبَّدة تتحول إلى بركة من الوحل الأحمر شديد الالتصاق. وصلنا في النهاية إلى شارعنا. لم تقترب خاكوبا من البوابة ولم تضع المفتاح في الباب ولم تدفعني أعلى

السلالم وهي تربِّت على مُؤخَّرتي، وإنما جرتني إلى الحانة المجاورة، حانة «المرأة الجاليثية»، وأدخلتني فيها. آنذاك، لم أعرف أنني سأنتظر ثلاثة أيام حتى أرى أمي مرة أخرى.

صمت الرجال فجأة، كأننا ضبطناهم يرتكبون فعلًا مشينًا. كل ما سُمع هي أجراس آلة القمار وأصوات التلفاز الأبيض والأسود الموضوع عاليًا فوق رفٍّ. فاحت رائحة التبغ وشرائح لحم الخنزير. أجلسوني إلى إحدى الموائد الموجودة في نهاية الحانة، إلى جوار الابن الغبي للسيد ماتيو، حيث تمكنت من رؤية الجاليثية تلوح إلى خاكوبا بيدها، كأنها ترفرف بها في الهواء كي تُفهمها أنه يُمكنها الرحيل مطمئنة. بعد برهة جلبت لي المرأة كأسًا من الحليب الساخن لم أمسسه، ووعاء صغيرًا فيه أقلام يستخدمها الزبائن لتسجيل نقاط لعبة الورق. أخذت واحدًا بلون الدم وكان جافًا. انتظرت وانتظرت هناك. بالطبع، لم أكن أدخن آنذاك. استمرَّ انتظاري وخشيت أن يكونوا قد نسوني.

تشارك الرجال الجالسين عند المشرب همساتهم، كأنني طيف خفي، أو أن هذا ما كنته فعلًا. اصطدت بعض عباراتهم من الهواء، من دون أن يُدركوا: «كان الأمر متوقعًا»، «بالأمس كان هنا يتناول نبيذه»، «ابن عائلة ماروتو المسكين! منذ طردوه من المصنع، لم يرفع رأسه». سمعت أيضًا اسم أخي، وأن أحدًا عليه أن يذهب لإبلاغ الأمر في شقق المحافظ، حيث يتجمع مدمنو الحي. لا أزال أحتفظ بسمعي الهستيري كما العثّ [26].

أسير وأسير. أسير بأقصى سرعة لديّ عبر الدرب المؤدي إلى «إل أتشويلو». دينامو الذكريات يُغذي ساقيّ. آنذاك، لم أُميِّز قوام الزمن جيدًا، ولم أعرف كمية الأشياء التي حدثت في اللحظة التي اجتاز فيها

26- يمتلك العث واحدة من أقوى حواس السمع بين المخلوقات كلها على وجه الأرض. (المترجم).

السيد ماتيو، جارنا الذي كان يقطن السطح مع زوجته وابنه الغبي، عتبة الحانة. ظهر مرتديًا مبذلته الزرقاء التي يعمل بها في المصنع حيث قطع منشارٌ اثنين من أصابع يده اليسرى. سلّى السيد ماتيو نفسه بالدردشة مع جوقة الرجال الذين تحدثوا وهم ينظرون إليّ بطرف أعينهم، ثم اقترب وداعب رأس ابنه وجلس إلى جواري. قدمت له الجالیثية، من دون أن يطلب، كأسًا من الكونياك ووقفت لتسمع وهي تضم سترتها على جسدها كمن يشعر بالبرد. إنها تلك الإيماءة التي تصدر من بعض النساء بصورة طبيعية، حين يواجهن موقفًا صعبًا. وضع السيد ماتيو يده مبتورة الإصبعين فوق ذراعي ليقول لي إن أبي قد مات. في تلك اللحظة، لم أعرف ما الذي أرعبني أكثر: الكلمات التي أسمعها أم اليد المبتورة التي افتقرت إلى سبابتها ووسطاها وضغطت على ذراعي ككماشة جشعة. قال: «سكتة قلبية قاتلة». بينما نجمع أغراضنا، سقطت أمطار خفيفة فوق الحي ونزل عبر المنحدر تيار من الماء القذر ابتلعه الفم الهائل لبالوعة جمع المياه. نِمت تلك الليلة، والليلتين التاليتين لها في بيت السيد ماتيو، تحديدًا في غرفة ابنه الغبي. كان أكبر مني بعامين، لم يَرُقْني. ليس لأنه غبي، وإنما لأن جانبًا من وجهه كان محروقًا. حدث هذا في الحي. كان الفتية يلعبون عند السكة الحديد قرب مصنع الكيماويات ولسبب ما انطلقوا يركضون وهو معهم، ولما تعثّر سقط على وجهه فوق بركة ناجمة عن تسريبات مادة آكلة. نفذ الأهالي مظاهرة للمطالبة بإغلاق المصنع. إنه الغبي صاحب الوجه المحروق.

ثمَّة قطعة قطن مُشبعة بالأثير تتسلل دائمًا بين ما حدث على أرض الواقع وبين ما نتذكره. في اليوم الثالث، حينما تركوني أخيرًا أنزل من البيت، عانقتني أمي من دون أن تقول شيئًا. يومها، وعلى مدار الأيام التالية، لم تتحدث إلا للضرورة ولم تُشِرْ قط إلى ما حدث. لأننا لم يكن

لدينا مرايا كاملة، غطَّتْ أمي المرآة الوحيدة الموجودة في المنزل، فوق حوض اليد، بملاءة وظلت هكذا طيلة أربعين يومًا متتاليًا، لأننا في حداد، وهكذا كانت تُفعل الأمور في الضيعة. لم يأخذوني معهم إلى الدفن ولم يسمحوا لي برؤيته، ولهذا ظللت مقتنعة طيلة شهور أنني سأسمع خطوات أبي عبر السلم، وسعاله، وتكّة القفل، وصوته وهو يطلب إليّ أن أعيد إليه الخمسة وعشرين بيزيتا. احتفظ زوج خاكوبا بمعطفه المبطن بالفرو، لكنه لم يغلق أزراره، وأنا بالخمسة وعشرين بيزيتا التي أعطاها إليه كي أجلب له علبة التبغ. كان الأمر أشبه بسرقة ميت.

# ظرف بلون الحمص

حتى العصافير نفسها اختبأت. تهُبُّ الرياح بتوحُّش ساعية إلى نزع قمصان الشابين المعلقة فوق المنشر، بأكمامها المتشنجة التي تلوح وسط الهواء كأن تياره يخنقها. أركض لأجمعها. لقد جفت بالفعل. تحاول دفقات الرياح تحديب جذع شجرة البرقوق التي تقاوم تلاطمها بشموخ. لن يتمكن الشابان من إشعال الجمرات في الخارج وسط هذه الزوبعة. يُحب الكلب السلوقي التسلية باللعب مع الرياح لأنها تُوقظ فضوله وغريزته الصيَّادة، فيرفع خطمه الطويل مع كل دفقة، أما «القبطانة» فتلوذ في ملجئها لاهثة في الأيام التي تنزل فيها الرياح بعنف من الجبل لتجلد حقول عائلة خلدون. على الرغم من المائة ضربة التي تعرَّضت لها كلبة الـ«لابرادور» - وهي سلالة شجاعة - فهجمات الرياح لا تزال تُفزعها. لطالما ظننتُ بعد أن ظهرت عند البيت أنها ستعتاد الأمر في نهاية المطاف. أصعد الآن لإغلاق نوافذ الغرف مع الكلبة التي تلتفُّ حول ساقيّ، وأنا أحمل غسيل المنشر الذي يبدو كخمار فوق صدري. تعالي يا جميلة، تعالي هنا. تشكرني بتضييق جفونها حين أداعب أذنيها ورأسها العظمي المتين وفَكَّها. «أنا أيضًا لا تروقني الرياح، هل تعرفين؟». كان هذا آخر ما سمعته من فم أبي بعد أن ناولني ورقة الخمسة وعشرين بيزيتا كي أجلب له أثناء عودتي علبة تبغ «ثيلتاس». قال لي حين وصلت إلى الباب وأنا أستعد للذهاب إلى المدرسة: «هذه الرياح المجنونة أحكمت حصارها عليّ». لم أفهم قط ما الذي وَدَّ أن يقوله. الرياح المجنونة! لا تخافي يا «قبطانة»، إنها مجرد همهمة أصوات صديقة. تعالي. اصعدي. أدعوها للرقود على الفراش إلى جواري فوق المرتبة، فتجلس إلى جانبي، فاردة قائمتيها الأماميتين فوق فخذي. أداعب جانبها بأنامل أصابعي. نحن نصبح عجوزتين معًا.

عليّ أن أحلق لكِ هذا الفراء، أليس كذلك؟ توقَّفي لا تلعقي وجهي. نحن هنا في خير حال، لهذا اهدئي. أتعرفين؟ اتفقت مع القسِّ على أن يأتي إليّ يوم الثلاثاء، في التاسعة. حينها، ستكون لديهم شهادة وفاة أبي. أنا خائفة يا «قبطانة». لا أودُّ أن تجُرَّني الدماء معها.

بدأ فيتالي وإبراهيما يتحركان ببطء شديد في المطبخ والراديو بعلو الصوت. يفترض أن ثمة حفلة هذا الأحد وأنني مدعوَّة إليها في بيتي، ردًّا على واجب الضيافة التي افترضنا أنها ستستغرق أيامًا قليلة وتحولت إلى شهرين تقريبًا. اشترى الأوكراني من جيبه نبيذًا عنابيًّا ولحمًا كانا يستعدان لشويه في البستان قبل أن تبدأ الزوبعة. الآن، في التوِّ واللحظة، يتردد صوت فريق «ذا بوليس» من الراديو مشحونًا بطاقة الأزمنة القديمة. ثمة سبب غريب يجعل صوت الراديو أفضل بعد أن تمطر والهواء رطب، لكن السماء لم تسقط منها قطرة واحدة حتى الآن. تتحسَّن حالي مع أغنية «رسالة في زجاجة» وأنا أسمع عبارة: «A hundred billion castaways looking for a home». لطالما أعجبتني كلمة «castaway» بالإنجليزية. تبدو تقريبًا ككلمة «náufrago» بالإسبانية. «مئة مليار ممَن لفظتهم الأمواج يبحثون عن بيت». [27] هذا هو ما صرته، وفيتالي أيضًا، الذي سيصعد المصطبة الترابية غدًا، وهو يجر حقيبته حتى منعطف الطريق السريع انتظارًا لحافلة الخط العمومي. يسمونه «منعطف السكين». تقترب نهاية مايو،

27- فضلت هنا كتابة الجملة المأخوذة من الأغنية بالإنجليزية كما وردت في النص الإسباني وعدم ترجمتها إلى العربية على عكس المرات السابقة، لأن المؤلفة وضعت ترجمتها بالإسبانية، ولهذا لو ترجمت العبارتين الإنجليزية والإسبانية إلى العربية سيصبح الأمر غير منطقيا في النسخة المترجمة نتيجة لتكرار جملتين بلغة واحدة. هذا فضلا عن مقارنة المؤلفة في النص بين كلمتي «castaway» الإنجليزية و«náufrago» الإسبانية والتي فضلت الابقاء عليها للحفاظ على روح النص (المترجم).

ولذا سيظل لديه وقت كاف للحاق بموسم الحسلات [28]، وبعدها سيأتي موسم قطاف العنب، ثم حصاد القطن والزيتون في نوفمبر. إنها حياة العمالة اليومية في الريف القائمة على الترحال.

لن أفتقد وجوده. أحتاج إلى استعادة ضوضاء الصمت الصغيرة: طقطقة درجات السلم وبكرة البئر وسقوط الدلو فوق صفحة الماء والخطوات التي يتردد صداها في الفناء. لن أفتقده، ورغم ذلك تحوطنا اليوم كآبة الوداعات الزائفة. في غضون ساعتين، حين يترك الأوكراني البيت، والقرية، وربما المقاطعة، سنعرف أننا لن نرى بعضنا أبدًا، رغم الوعود التي سنقطعها وسط هذا الانتقال. ما نشعر به ليس المودة، وإنما ببساطة الكرب الناجم عن مرور الزمن بسبب ما نتركه وراءنا بأنفسنا. لن أفتقدك يا فيتالي! ظَلّ يراقبني خلال هذه الأيام بعينيه الصغيرتين ولونهما الأزرق المائي. فعلها من بعيد وبنوع من الحذر والريبة التي ترتدي ثوب الاحترام، كأنه لم يفهم بَعْدُ مَن أنا وما الذي أفعله هنا، ولِمَ فتحتُ له هو وإبراهيما باب بيتي من دون أسئلة كثيرة. اعتاد نايجل أن يُسمي العطاء من دون المطالبة بشيء كرمًا مازوشيًا. لقد أتقنا هذه العادة بيننا نحن الاثنين.

في البداية، كفانا الحضور المجرد لكل منا، رغم أنني لم أتوقف عن التساؤل لِمَ قد يهتم رجل مثل نايجل بفتاة مثلي. أبهرني بكرمه والطاقة التي تشع منه وثقته في نفسه وإيماءاته ومفهومه عن الحرية. بدأ بيت بيرموندسي يزدحم مع مرور الشهور - من دون أن أدرك كيف مرت أصلًا - بقوم تطول معهم الأحاديث والشرب حتى الصباح. هل فقد الاهتمام بي؟ لم يبدُ أن الأمر يهمه. نايجل كان حصانًا قادرًا على العودة

28- الحسلات هي ثمار فاكها تحتوي بذرة عظمية ويندرج تحتها الدراق والخوخ والمشمش والكرز والمانجو. (المترجم).

إلى لوحته وتشريح المشروع الذي يعمل عليه حتى ولو نام ساعتين فقط، من دون أن ينزل معدته سوى الويسكي. كل شيء يخصه كان له هدفه. أنا، على النقيض، كنت مُحبطة من عدم معرفة ما الذي عليّ فعلُه بحياتي. شعرت أنني أتبخر، وبأن وظيفتي الوحيدة ترتكز على تنظيم الفوضى، وتنظيف فضلات الحفلات وتهوية موكب المساخر الذي يُغذي إبداعه. أكثر ما خشيته هو لسانه الذي تنفك عقدته مع الكحول. لطالما عرفت أنني يومًا ما سيحين عليّ الدور لتجربة جلدات سخريته. حدث هذا أثناء عشاء تناولنا فيه نبيذ «شيناتي» والإسباجيتي، بعد أن دافعت عن صديقه الرسام بول. كان ثمة ناس آخرون في البيت، ربما نصف دستة أشخاص، لكن لا أتذكر سوى وجه بول وطلة شقيقة نايجل التي أمقتها. لم أرقها أنا الأخرى. أفترض أن كلًّا منا رأت الأخرى دخيلة تسعى إلى خطف مكانة الثانية. لم يقدمني نايجل قط إلى أبويه، وخلال هذه السهرة أبقاني على الهامش. لم أكن معتادة على مثل هذه المحادثات مرتفعة المستوى وشديدة الزيف أيضًا. لم أدرك آنذاك معانيها، لذا اقتصر ما فعلته على السماع ومحاولة التعلم. غنى نايجل بصوته: «سواء ارتبط الأمر بالوجود أم بالفن، عليك أن تصل إلى أقصى حدود نفسك. وحدهم المهووسون بأي شيء، أيًّا كانت ماهيته، يقدرون على إدراك قوام الحياة». عارضه بول، إذ ألقى في وجهه بمسألة المبلغ الشهري الذي يرسله إليه أبوه كي يكرس نفسه للفن. رد نايجل هجومه عليه بحنق: «هذه هي مشكلتك يا بول. أنت لا تمتلك الجرأة، فعلى الرغم من المبلغ البائس الذي تتحصل عليه من فصول الرسم، فما زلت تقيد نفسك بهذه الفصول لتستمتع بالوضاعة والثناء السهل الذي تناله من طلابك. لهذا لن تصل إلى أي شيء. لوحاتك سيئة، وهل تعرف السبب؟ لأن حساسيتك سوقية». لقد أغضبني، فصرخت في وجهه لمطالبته أن يتركه في سلام، لذا تحولت قسوته تجاهي: «لكن، من أنتِ؟ ما الذي

تفعلينه في حياتك؟ مع إحساسك بالألوان، يمكنك أن... لكن لا. أنتِ لا تهتمين بأي شيء. لستِ طموحة أو عنيدة. أنتِ مجرد ظِل». ارتسم على شفتي أخته خط رفيع كإيماءة استمتاع لم تحاول حتى إخفائها. صحيح. ربما كان بإمكاني مع إحساسي بالألوان أن أفعل شيئًا، لكنني كنت خائفة... كنتُ أنا مَن يعيش مع شياطين نايجل، مع ثمالته، ولكماته في الحائط، ونواحه الطويل الذي تتخلله كلمة «خراء. خراء. خراء»، كلما فشل في الوصول إلى مسعاه، وبالمثل مع عجزه عن تقبل حدوده. لقد أهلك نفسه في معركة مع أشباحه. حينما ذهبت مع أخته لإفراغ المرسم، أخذنا كومة من ملابسه المتسخة، والعجيب أننا اتفقنا على أخذها إلى المغسلة لسبب لا أعرفه. بقينا جالستين ننظر إلى الكيفية التي تدور بها الغسالة ونحن نعلم أن نايجل لن يرتدي هذه الملابس مرة أخرى.

يصعد اسمي من بئر السلم. الغداء جاهز. هيا يا «قبطانة»، هيا. إنهما يناديان علينا كي نأكل. يقترب «بلوتو» لاستقبالنا في المنعطف الأخير من السلم، وهو يهز ذيله. أنحني وأداعبه. يحب بلوتو اللعب بشعري. ها هو ذا يجعله يتشابك بمخالبه. أخفض صوت الراديو. الرائحة جيدة. أقول لهما إنهما أعَدَّا كمية طعام تكفي كتيبة: لحم، وأرز مُبَهر، وبطاطس بالزبدة، وسلطة، وقطع خبز محمص، وطبق من المخللات. أغدق عليهما بالثناء المطلوب. لم أفقد بعْدُ آخرَ سُبُل التعايش. أجلس إلى مقعدي، عند رأس المائدة، ووراءي فتحة المدفأة. ترقد الكلبة إلى جواري، ويبدأ الشابان أيضًا في الجلوس، كل منهما عند أحد الجانبين: إبراهيما إلى مقعد، وفيتالي إلى الأريكة خشبية. ينزع الأوكراني سدادة الزجاجة، فاليوم لن نشرب نبيذًا من عبوة من الورق المُقوَّى. يصُبُّ لي وحينما يملأ كوبه يرفعه ليقترح نخبًا للضيافة والخير الذي سيعُمُّ علينا في المستقبل، كأن المستقبل لم يصل بعد. أسايره في لعبته. آخذُ لنفسي

شريحة لحم. إنها باردة. ألقي إلى الكلبة قطعة منها كطُعم، فتلتهمها على الفور. يتحدث فيتالي وهو يمضغ. يقول إن العودة إلى أوديسا في عيد الميلاد ستروقه حيث سيمضي بعض الوقت مع أمه، وإنه سيعود إلى هنا لاحقًا، لكنه لا يعرف متى. أقول له: «إنك شاب وعامل. لن يشقَّ عليك البحث عن أكل عيشك خارج الضيعة». ينظر إليّ بطرف عينيه، كما هو الحال دائمًا. أي شيء يقولانه عني من وراء ظهري؟ لا أعرف ما الذي حكاه كل منهما إلى الآخر.

يُطلق فيتالي عبارته، وهو يحدق بثبات إلى إبراهيما:

- وأنت؟ متى ستغادر؟

أفلت الأوكراني سؤاله بطريقة مسرحية زائدة عن الحد، كأنه ظل يجتره طيلة أيام.

يُجيبه إبراهيما:

- لا أعرف. لا أملك خططًا سريعة مثلك.

بالنسبة إليّ، يمكن لإبراهيما أن يمكث هنا حتى يمَلَّ، بل وعلى الأرجح يمكنني القول إن وجوده يُسعدني. الأمر أكثر من هذا: أظن أن الأمر سيكون أفضل ونحن وحدنا، من دون نقرات «بياض الثلج» اللغوية. لا أفكر في الضغط عليه. ليس بعد. لكن السؤال أزعج إبرا. ألاحظ الأمر عند مقرن شفتيه اللتين تتشنجان الآن. ينهض ويقترب من الثلاجة. يأخذ عبوة «كوكاكولا». نصمت بعدها، ثم يأتي صوت رنين الأطباق والشوك. أنظر نحو جزء السماء المرتسم من وراء ناموسية النافذة الموجودة فوق الموقد. يبدو أن الرياح هدأت أخيرًا، ولهذا فإن صوت أوراق التعريشة مع النسيم يبدو كحصى داخل صفيحة. هذه هي الأصوات التي يطيب

لي أن أستمتع بها بمفردي. النسيم. حشرات الزيز الآتية. حَدُّ المِعْزَقة وهو يضرب الأرض. الفرشاة التي تُسرح شعري أمام مرآة غرفتي.

يستمر الشابان في تناول طعامهما بشهية، وفجأة يخرج الكلبان من المطبخ، يجتازان الباب ويقفزان إلى الفناء هائجين. يذهب فيتالي خلفهما. لا نستغرق وقتًا طويلًا في تمييز صوت محرك، أو بالأصح هديره المزعج الذي يتعاظم حتى يتوقف أمام البيت. على ما يبدو لدينا زيارة. يهدأ النباح ويطل الأوكراني مُعلنًا:

- إنه ديونيسيو، بدراجته البخارية.

ثمَّة تأهُّب. يتوتر عود إبرا حين يسمع اسم رئيس العمال، ويسند كلتا يديه إلى طرف المائدة، ثم يدفع وزنه كله عند مسند المقعد الذي يصبح مستندًا فقط إلى قائمته الخلفيتين في وضعية لا أعرف هل هي دفاعية أم أنها محاولة لعرض رباطة جأش يفتقر إليها. يأتي صرير البوابة ومن بعده صوت خطوات رئيس العمال. يتقدم ببطء. ليس في عجلة من أمره أو يأتي متغطرسًا. يقابله الأوكراني عند فتحة الباب، بين الداخل والخارج. يبدو مغتاظًا من الحيرة أكثر من كونه منزعجًا، على الرغم من أن ديونيسيو هو مَن تكفل شخصيًا بطردهما من الأرض. أتعجب من مجيء رئيس العمال لزيارتي يوم الأحد، حتى لو أن تقويم الأيام هنا يمضي وَفقًا لمعاييره الخاصة.

يقول:

- مساء الخير وبالهناء والشفاء.

يبدو الهواء كأن ثمة إبرًا تنخزه. لا يبدو ديونيسيو مندهشًا من العثور على العاملين باليومية هنا. لو تظاهر بالدهشة، لبدا سخيفًا. أدعوه إلى

الاقتراب مُلوِّحَةً بيدي في الهواء:

- تعال يا ديونيسيو. تعال.

يتفقد المائدة وما نأكله ونشربه، وهو يقف بين الدهليز وباب المطبخ. يرتدي ملابس عمل نظيفة ومعه ظرف في يده. ظرف كبير، بلون الحمص.

- اجلس يا رجل.

- ما من حاجة، يا أنخيلا، أنا هنا لأجلبَ لكِ شيئًا.

أتبادل نظرة سريعة مع إبراهيما. عاد فيتالي ليجلسَ إلى الأريكة الخشبية. يُقرِّب قطعة بطاطس إلى فمه ويمضغها بهدوء. لا يزال ماضيًا فيما يخصه، فهو على أي حال سيرحل غدًا.

- اجلس وتناول بعض النبيذ.

- سأرحل على الفور. لا أودُّ أن أتسبب في أي إزعاج.

- لتجلس. اللعنة!

اهدئي يا أنجي، اهدئي. لا تتسرعي. يبدو أن ديونيسيو جاء في سلام.

يقترب مفتور الهمة. أراقبه، وينهض إبرا بحثًا عن كوب نظيف. قميصه المضلع الأزرق مغلق حتى زر ياقته، وجاء من دون أن يحلق ذقنه.

يسأل فيتالي فجأة:

- أنخيلا، أين هي زجاجة الفودكا؟

- في السقيفة، داخل المُجَمِد، في الصندوق.

يذهب الأوكراني لجلبها. ثمة شيء يخبرني أنه في حاجة إلى مشروب قوي. أجل.

يقول ديونيسيو وهو يمد الظرف:

- هذا هو الأمر. طلبت إليّ التوأمتان أن أسلمه لكِ شخصيًا.

. لا أفكر في فتحه، ولا في لَمْسه أصلًا. أجعله يفهم الأمر بتحريك سبابتي. لو أنه كان يفكر في ترك الظرف والمغادرة، سيقع في مشكلة كبيرة. أقول له:

- أودُّ منك أن تحكي لي بصوتك الحَيِّ ماهية ما يحدث.

ينظر إلى عينيَّ، فأرصد الغم في عينيه. إنه حزن شديد العمق ولا مَنَاصَ منه. أحدق إليه جيدًا، ثم أنعِّم نظرتي. ثمة بقعة سوداء في قزحيته الزرقاء. إنها ملتصقة ببؤبؤه. ربما في إشارة إلى تعرضه لحادث عمل ما. إنها غالبة ضربة من فرع شجرة أصابت قرنيته أثناء نفض أشجار الزيتون. تبدو البقعة بالضبط كفتحة قفل قديم. ما الذي يخفيه؟ كم نوعًا من الصمت أغلق عليه وأخفاه بالضبة والمفتاح؟ أم أنه الأسى؟ يتنهد رئيس العمال ويتجرع رشفة كبيرة من النبيذ الذي صَبَّه له إبرا منذ قليل. يشيح ديونيسيو بنظرته، ومعها بقعة القفل.

لا بد من محاولة تَصَنُّع صداقته والحصول على ثقته. لا بد أن أعرف الحقيقة. أسأله:

- مَن هؤلاء الرجال الذين يرافقون التوأمتين؟

يجيب متلعثمًا:

- ثمَّة محامٍ أو كاتب عدل. لا أعرف. رجل قانون، لكن هذا الأخير يأتي

ويذهب. الآخر يبيت أحيانًا. يدعونه المستثمر.

يتدخل إبراهيما:

- لا تتوقف السيارات عن الصعود والنزول إلى ومن «لاس بريناس».

لا ينظر ديونيسيو أصلًا إليه. يتجرع رشفة أخرى ويختار أن يؤمن نفسه قائلًا:

- أنا لا أعرف شيئًا.

يعود فيتالي مع الفودكا المثلجة، ويقول إن الوداع في بلاده من دون مشروب حارق ليس وداعًا على الإطلاق. علينا أن نقترح نخبًا آخر. يشرب جرعة جيدة ويدعونا نحن أيضًا. أقبلها منه، وأقدم كوبي فوق المفرش المشمع حيث لا تزال تتبقى فيه بعض بقايا النبيذ. يبدو لون الخليط كالخزامى.

أقول:

- لا أصدقك.

أعرف جيدًا أن عبارتي بدت كتحدٍ، فهذا هو مسعاي. أظل غير مرئية تقريبًا، إلى أن يضيِّقَ أحد الخناق عليّ، ولهذا أقول مُصرَّة:

- أنت رئيس العمال. لا بُد أنك تعرف شيئًا.

- سمعت فقط بعض الأمور هنا وهناك.

يُمرر ديونيسيو يده فوق رأسه. شعره قصير جدًا. كل رجال الريف يحلقون شعرهم بهذه الصورة.

يقرع إبراهيما بأصابعه فوق المائدة. بدأ صبره ينفد. أنا أيضًا. نظرة

الأوكراني ثابتة فوق الطبق الخاوي. تُشجعني نيران الفودكا في بلعومي على المضي قدمًا:

- أشياء مثل ماذا؟ ما الذي سمعته؟

- لا أعرف. تعليقات. ترغبان في تحويل البيت الكبير إلى فندق. تتحدثان أيضًا عن بناء شاليهات ريفية فاخرة. سمعتهما أيضا تتحدثان عن أرض للصيد تصل عن طريق الغرب إلى "لا أوندونادا". أرض ذات مساحة شاسعة. لكن لا أعرف. إنها أمور تتحدثان عنها.

أنا في حاجة إلى التدخين. أفتش جيوبي. أتحسَّسُ القداحة في الجيب الأيمن. أنهض وآخذ عبوة ورق اللفّ من فوق رفٍّ المدفأة. أحاول التركيز بفرك بعض التبغ. ثمة صور كثيرة تركض داخل رأسي كالخيول إلى درجة إلى أنني لا أعرف أيًّا منها عليّ أن أمتطيها. هل الخلدونتان قادرتان على هدم منزلي؟ يصعد كل أمواتي إلى السطح، وأنا أحاول ترتيب الأمور داخل رأسي. أرى إيميتريا تمشي وحدها ليلًا عبر الحقل، وهي حُبلى من والد التوأمتين أو عمتيَّ المفترضتين. تحتشر الضحكة في حنجرتي من مجرد التفكير في الأمر. أرى أبي ينزل من قطار الضواحي الذي يجلبه من مصنع الخزف. أرى أخي جابي، من دون أسنانه العلوية، مع رفقاء حانة «الفيلقي»، ومعه زجاجة جعَّة، منتظرًا وصول مُورد المخدرات. أرى نايجل ومعه فنجان شاي بين يديه لتدفئتهما، وأصابعه مبقعة بالزيت، وكمي قميصه الأسود اللذين لم يرفعهما قط يصلان إلى براجم أصابعه. أرى أبي يجفف يديه، بلونهما الأحمر كالدم، في مئزره. أرى حذاء ركوب الخيل في قدمي السيد وهما تتأرجحان. أرى نفسي أجمع ألبسة داخلية مُعاد غسلُها وقمصانًا من بين ركام بيتي.

أقول متصنعة ابتسامة شريرة، مع اقترابنا من لُب الموضوع:

- إن تحدثنا بوضوح، فأنا عائق. أنا المانع الكبير، أليس كذلك؟

يتحرك ديونيسيو فوق مقعده. كان قد جلس إلى جوار إبراهيما، قُرْبَ الباب.

- ما أعرفه فعلًا أنه لن يأتي حصاد آخر بعد هذا الحصاد، ستتركان مجال الحبوب بالكامل.

يتحدث بعدها بسرعة أكبر متلعثمًا:

- والزيتون أيضًا. لا يُدِرُّ الأمر عليهما ربحًا كبيرًا وهما لا تكنان مودة كبيرة للأرض. المال السائل والرنان.. هذا هو ما ترغبان فيه.

يتنهد إبراهيما. أُلقي أنا برأسي نحو الخلف وأنظر إلى عوارض السقف، فأرصد بقعة رطوبة تبدو كرأس رجل هندوسي يرتدي عمامة.

أقول من دون مقدمات:

- إذن الحديث يجري عن فندق فخم.. وستجعلانك ترتدي طاقمًا وقبعة التشريفات في الاستقبال، أليس كذلك؟

ها هي ذي ضربة منخفضة، في الضفيرة البطنية. وحده الأوكراني يضحك على مزحتي. يصمت ديونيسيو. لا أعرف ما الذي يدور الآن في رأس هذا الرجل الذي أمضى حياته كله في «لاس برينياس» ولا يعرف عالمًا آخر غير المزرعة والاستيقاظ مبكرًا وأداء مهامه. هل فعلًا وعدتاه بعمل، حتى إن باعتا المزرعة؟

- كم من المال أبديتا استعدادهما لدفعه مقابل البيت؟

خرجت الكلمات فجأة من فمي، من دون أن أفكر فيها. تبدأ كل المحادثات الموجودة في العالم أو تنتهي بمثل هذه الصورة تقريبًا.

يقول ديونيسيو متشككًا، محاولًا التراجع والتخلي عن الدرب الذي يوشك على الانطلاق فيه:

- لا أعرف. أظن أنني سمعتهم جميعًا يقولون... أظن أن رجل القانون قال عشرة آلاف يورو.

أُفلت ضحكة بعلو الصوت. وددت أن تكون ساخرة، لكن ثمة صِبغة حزن تسلَّلت إليها. أخشى أن يكون رئيس العمال لاحظها. إن الخناق يضيق عليّ، وليس بفعل الرياح. لا بُد أن «القبطانة» لاحظت اختلاجاتي، إذ تضع قائمتيها الأماميتين فوق حجري وتقرب خطمها من وجهي.

أقول:

- عليهم جميعًا إذن أن يضعوا المبلغ حيث يودُّون أن يضعوه!

يخفض ديونيسيو نبرة صوته. ينظر إلى يدي وأظافري المسودة من نزع البصل:

- البيت لا قيمة له بالنسبة لهما. تقول الخلدونتان أصلًا إن أرض البستان نفسها ليست ملكًا لكِ.

أتنفس بعمق. صحيح أنها ليست ملكًا لي، لكن صاحبها سمح لأمي بزراعة الخضروات وراء البيت للاستهلاك الشخصي، وبأن تأخذ الكهرباء من العمود. لطالما تجاهل دون خوليان أمورًا كثيرة، كما أفعل أنا مع الأسرار التي أعرفها. لكنني لن أهاجم من هذه النقطة. أنا لست من أنصار اللعب بدناءة. لا أعرف حتى في أي دُرج أحتفظ بالوثيقة.

أرى نفسي منذ نحو عشرين عامًا، حينما عدتُ محطمة من لندن. قطعتُ الجزء الأخير من طريق العاصمة بالركوب مع غرباء، ولما رآني سائق الشاحنة في شدة الإحباط، أنزلني عند المنعطف الموجود في الأعلى، رغم اضطراره إلى أن يحيد عن طريقه عدة كيلومترات. نزلتُ المنحدر بصعوبة، وأنا أضم حقيبتي إلى صدري، كذلك اليوم الذي طرد فيه أبي جابي من المِشكاة التي كنا نسكنها في الضاحية. كانت البوابة المُسيجة مفتوحة كالعادة. دخلت. لم تكن أمي موجودة في المطبخ. ألقيتُ الحقيبة فوق الأرض. بدا لي غريبًا أن أناديها من بئر السلم. بحثتُ في البيت بأكمله إلى أن وجدتها إلى جوار حظيرة الطيور، تروي قطعة الأرض التي تزرع فيها أعشابها: زعتر البر، والمريمية، والنعناع، والبردقوش، والريحان. كان ظهرها إليّ، وهي مرتدية نعلها المطاطي الذي تستخدمه للبستان ومن فوقه جوربها. آلمني سقف فمي. عجزت عن التحدث. بقيت أراقبها قرب أوتاد السياج، مُفكرة في الوقت الذي مَرَّ علينا من دون أن نقول شيئًا لبعضنا. كنت أبعث إليها رسائل شفهية عبر خاكوبا. لم أكتب لها جوابًا واحدًا. مَن كان ليقرأ خطاباتي لها؟ وأي شيء كنت سأقُصُّه عليها؟ لم تُرهق نفسها هي الأخرى في الرد عليّ. لم نتشارك شيئًا. حينما لاحظتْ وجودي، التفتت. عدت أدراجي ودخلت المنزل ورقدت بملابسي فوق الفراش ونمت عددًا لا أعرفه من الساعات حتى أيقظتني قائلة إنها طهت دجاجة. كان الليل قد حل. تعشينا في صمت. تناولنا دجاج بصلصة اللوز وحساء مع بياض البيض المخفوق أصرَّتْ أن تعدَّه لي. خاضت أمي متاعب كثيرة إلى درجة جعلتها تؤمن بأن أي تعب يمكن تلطيفه بالطعام. لقد صقل الجوع شخصيتها القوية، لكن مأساة أخي صرعتها. لم تسألني. لم تود أن تعرف أي شيء في هذه الليلة وإلى الأبد، لكنها كانت واثقة من أنني أتيت لأبقى.

يتحدث رئيس العمال الآن همسًا، كأنه يبتلع كلماته:

- ربما أخطأت في الرقم ويزيد عن عشرة آلاف يورو. ترغبان في مناقشة الأمر معكِ، حين تصبحين مستعدة. لا علاقة لي بالأمر.

أقول:

- لم أنتظر منك هذا يا ديونيسيو.

- أنا أفعل ما أُومَر به.

أضرب بيدي فوق المائدة فترِنُّ الأكواب والسكاكين فوق الأطباق:

- وهل يبدو لك هذا عملًا كريمًا؟

يصُبُّ فيتالي لنفسه جرعة أخرى من الفودكا وينظر إليّ بطرف عينه.

يتدخل إبراهيما:

- في البداية نحن، والآن هي!

لست في حاجة إلى أن يدافع أحد عني، لكنني راضية. يتابع:

- رغم كل السواد الذي أنا عليه. لا أحمل دم العبيد في جسدي. أنا حُرٌّ أكثر منك بكثير. لن أفعل ما تفعله مقابل أي شيء في العالم. تهديد الناس؟ يا للجمال!

- تهديد؟ أنا جئت فقط لأجلب ظرفًا.

يقول فيتالي مشددًا على كلماته:

- في وطني نسمي هذا الأمر أن تكون ابن عاهرة.

يُفاجئني. لطالما ظننت أن فيتالي أحد هؤلاء الرجال الذي ينظرون إلى العالم بلا مبالاة. لكنني حين سمعت كلمة وطني، ارتعشتُ من دون وعي.

يبصق رئيس العمال كلماته:

- إذن.. إذا لم تروقك الطريقة التي تُدار بها الأمور هنا، فلترحل.

تمرُّ ثلاث ثوان شديدة البطء. ربما أربع أو خمس ثوان. تسقط نقطة ماء من الصنبور فوق الحوض على المياه الموجودة في الإناء الذي طهيا فيه الأرز.

- لو أنني قادرة على إرجاع الزمن قليلًا فقط؛ نحو ثلاثة شهور، حتى الحادي عشر من مارس.

أتوقف ثم أتابع:

- لوددّتُ أن أعرف ما الذي كان السيد ليفكر فيه بخصوص كل هذا.

قلتُ هذه العبارة من دون رغبة في قولها. لم أود أن أضيق الخناق عليه الآن، بسبب الاحترام الذي أكنه لدون خوليان. ينهض ديونيسيو دافعًا المقعد نحو الخلف بجسده الضخم. يمضي نحو الباب. خطوة. اثنتان. ثلاث. يتوقف فجأة. يلتفت. ينظر إلى الظرف الذي وضعه فوق المائدة. ينظر بعدها إليّ ويتفحصني. يستدير من جديد، وقبل أن يخرج من الباب يقول:

- أنخيلا.. أنتِ تتمادين في الأمور إلى حدود بعيدة.

# جمعية العجائز الخيرية

بتٌّ متيقنة من الأمر: انتحر أبي. لقد جرفه سلسال الدم.

يُمسكني القسُّ من خصري، لكنني لا أشعر تقريبًا بملمس لحم يديه. أقرأ الشهادة من جديد. هذه المرة بصوت مرتفع كي يدرك الأمر. «الاسم: جابرييل ماروتو لوثينا. الوفاة: الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا. التاريخ: 14 مارس 1975. المكان: بيت في مدينة برشلونة. سبب الوفاة: توقف دوران الدم المؤدي إلى الإقفار الدماغي».

نخرج إلى الشارع عبر الباب الدوار ونبدأ في السير. يسير كاهن الرعية إلى يميني من دون أن أضطر إلى طلب الأمر إليه مجددًا، فأنا لا أطيق السير وأحدٌ إلى يساري. توقف دوران الدم، الإقفار الدماغي، ضغط الحبل، أو أيًّا كان ما استخدمه أبي ليشنق نفسه تسبب في عدم سريان الدم عبر وريده العنقي أو شرايينه السباتية. هذا هو ما تسعى الوثيقة إلى قوله. ربما كان عليهم أن يكتبوا «الشنق» لتحري الأمانة، لكن الأطباء والقضاة والقساوسة يتمترسون وراء الثرثرة القذرة ويفحمون مَن هم سواهم بمعارفهم لتحصين شياطينهم: الأطباء مع الجسد، والقضاء مع الذكاء واحتمالاته، والقساوسة مع الروح، وإن كان هؤلاء يفضلون استخدام لغة مخصصة للأغبياء. وحدها قصصهم عن العرجان الذين يسيرون أو الموتى الذين يبعثون ما يشق استيعابه.

أقول له:

- يخدمكم الطب أيضًا بعدم الإتيان على ذكر كلمة الانتحار: الخطيئة القاتلة. على المرء أن يقرأ المسألة بين السطور.

ترتسم ابتسامةٌ ساخرة نوعًا ما عند المقرن الأيسر لفمه ويقول مدافعًا

عن نفسه:

- يذكر الأطباء السبب الفوري للموت، وليس الذي يسبقه. لا يُدقق الطبيب الشرعي في مسألة إن كانت الوفاة انتحارًا أو حادثًا، ما دام لا توجد مؤشرات على القتل أو تدخل أطراف ثالثة.

ثمة بقايا من الطمي في فردة حذائه. أنظر إليها ونحن نسير، فيتابع:

- يفعلون الأمر بحكم العادة، على حَدِّ ظني. ربما هو الاحترام. أو ربما هي العائلات. ثمَّة مرات يكون فيها تأمين ما لا بُدَّ من قبضه. أنتِ تفهمين قصدي.

نحن لم يكن لدينا شيء سوى بيت «إل أتشويلو».

نتقدم مُطأطئي الرأس. يقترح أن نتناول الغداء في مطعم رخيص. يقول إنه سيتكفل بدعوتي ثم يتعهد بأن يوصلني بعدها في سيارته الـ«بيجو» حتى جمعية العجائز الخيرية، حيث خاكوبا. تنطلق آخر مركبة من خطوط النقل نحو الضيعة في السادسة والنصف، لكنه يُخبرني أنه لا توجد مشكلة، فيمكنني أن أقضي الليلة في شقته، فالقسُّ الآخر لن ينزعج، على أن يوصلني غدًا، في وقت مكبر إلى القرية أو إلى محطة أشجار السنديان. أقبل لكوني منهكة. أترك نفسي أمضي مع التيار. لست جائعة. لا يمكنني التفكير جيدًا. لماذا قرر أبي أن يقتل نفسه؟ لماذا اختار الشنق؟ إنها على الأرجح أقسى وسيلة انتحار. الحبل، والعقدة، والجسد المنتحر هي أصابع اتِّهام. في أي شيء فكَّر؟ كنت أنا آخر من رآه على قيد الحياة، حسبما أظن.

نمضي في شارع أجهل اسمه تتكاثر أشجار الأكاسيا بين كل متر والآخر فوق طرف رصيفه. يُمكن للمرء أن يُحيط دائمًا بعواصم المقاطعات،

لكنها رغم ذلك تُشعرني بالدوار مع الحركة المرورية، وقانون الإشارات، وضوضاء سير الإطارات المتفجر فوق الأرض، ورائحة المال العفنة - القليلة هنا - والناس الذين يأتون ويذهبون كأنها غاية. يُربكني أيضًا هذا الرجل. يتحدث ويتحدث ويتحدث. لم يتوقف عن التحدث منذ أخذني من بيتي في الصباح الباكر في سيارته «بيجو 205» ذات اللون الأحمر الشمسي المكسوة بغبار الطرق. حاولت حينئذ أن أمضي وراء خيط محادثته، وأنا أركز في امتداد الطريق وسلسلة مفاتيح سان كريستوبال المعلقة في المرآة الأمامية التي أخذت تتراقص مع المنعطفات، لكن المسألة تطلبت مني مجهودًا مستحيلًا، إذ انصَبَّ تفكيري على الشهادة التي أرسلوها من برشلونة وعلى حدسي وعلى ما سأعثر عليه في السجل المدني. بدت رائحة السيارة كمعطر جو مطبخ أمريكي، أو كسجائر «دوكادوس».. كرائحة رجل وحيد. أخذ القسُّ يتحدث عن المنتحرين الموجودين في الكتابات المقدسة: شمشون وشاول ويهوذا الإسخريوطي، الذي شنق نفسه في شجرة تين أو بالسقوط، وَفقًا لنبي ما. قال إن الكتاب المقدس لا يُدين الانتحار صراحة، وإن العائلات في العصور الوسطى اعتادت إخفاءه لكيلا تُصادر ملكيات الشخص الذي أزهق روحه. ظل يتحدث ويتحدث ويتحدث. يعتقد القسُّ أن اعتبار الانتحار أقصى درجات التعبير عن حرية المشيئة مجرد فكرة زائفة، لأنه ما من شخص مقيد أكثر من ذلك الذي يقرر إزهاق روحه بيده. شرح له الطبيب النفسي الذي جاء لدراسة سلسلة الانتحارات في الإقليم هذا الأمر. إنه نفس الرجل الذي وضع علامات بالقلم الرصاص في دفاتر الموهف. تحدث الطبيب معه أيضًا عن تصرفات بعض الحيوانات، مثل الحيتان التي تعلق في الشواطئ كي تموت، والحشرات التي تلتهم نفسها، وعن وثائقي تليفزيوني ظهر فيه جَدْيٌ عجوز مصاب. كان زعيمًا لقطيعه، لكنه قرر أن يلقي نفسه من فوق مرتفع صخري في

كاثورلا، حينما أدرك أن الذئاب تقترب منه.

أشعر بالخوف. الخوف من دمائي. الخوف من أن تستمر ذبابة الخيل في لدغ صدغي. «لقد قتل أبوك وأبو أبيك نفسيهما. وأنتِ؟ ما الذي تنتظرينه؟».

يُجلسنا النادل إلى طاولة قرب النافذة الزجاجية الكبيرة المطلة على الشارع، وعلى الفور يحضر خبزًا وأدوات مائدة وزجاجة نبيذ صغيرة من دون أن نطلبها. ينظف القسُّ، في حركة منزلية أكثر من اللازم، نظّارته المبتلة بطرف المفرش المرتوق. تجرأتُ على سؤاله حينما تركني أتحدث ونحن في السيارة، عن السبب الذي دفعه كي يصبح قسًّا. لم يُبد شكًّا وهو يجيب: «لأنني لا يمكنني تحمل معاناة الآخرين». هذا هو ما قاله بالضبط. يا له من أمر غريب! كان هذا الرجل موجودًا إلى جواري في موت أمي وها هو ذا معي الآن في هذه اللحظة شديدة الخصوصية، بعدما علمت في النهاية أن أبي قد شنق نفسي، ورغم ذلك لم أعتدْ بعد على مناداته أندريس. لست عازمة على تخطي هذا الحاجز، على الرغم مما حدث في تلك الليلة. كان الأمر سريعًا، كأننا كنا مُسَيَّرين نحوه، بل إننا لم نخلع ملابسنا، وفعلناها وسط عتمة حجرة الحبوب. في الغرفة الموجودة في الأسفل كانت أمي ميتة ومعها خاكوبا. في الأعلى، في العلية، أشبعت نهمي الأخرق والمذنب بعاطفة رجل أعزب. لقد حاول معي عِدَّة مرات أخرى، لكنني رفضته. لا أوَدُّ حنانه. يختار الآن من قائمة الطعام السلق المطبوخ على نار خفيفة، واللحم بالعجين، وكريم الكراميل كطبق حلوى. أطلب فقط اللحم لتبطين معدتي مع النبيذ. أشعر بالغثيان أكثر من الرغبة في تناول الطعام، كأن ثمَّة ملحًا في فمي.

يقول:

- أثارت علامات القلم الرصاصي انتباهي أنا أيضًا. كنت قد نلت أنا الآخر نصيبي من دفن عدة مشنوقين، حينما تواصلت معه. من الطبيعي أن يُدهشك الأمر، فالطبيب النفسي رجل ذكي ومنهجي. لقد كتب بحث الليسانس عن فيض الانتحارات.

- ما هو تفسيره للأمر؟

- لا زواج الأقارب ولا حزن المجريين ولا شيء من هذه القصص؛ ولا حتى مسألة أن أشجار الجوز تفرز مادة كيميائية تؤدي إلى الإحباط. قال لي إن المنتحرين يختارون أشجار الجوز؛ لأن فروعها قوية بشكل كافٍ لتحمل أوزانهم.

- هذا هو ما افترضته.

- إنها الوَحْدَة. قُرونٌ وقُرونٌ منها. يؤمن فقط كرجل عِلم بأن مَرَدَّ الأمر هو عُزلة هذه الأراضي، مع الإحباط والكحول، وعادة التعامل مع الموت كأنه انتقال طبيعي جدًا، مثل الذهاب من غرفة إلى أخرى. هذا بخلاف مسألة العدوى بالطبع.

- العدوى؟ كحال الفيروسات؟

- هذا لو أنكِ وددتِ أن تسميها هكذا. شرح لي الطبيب النفسي الأمر كعملية تنتقل من جيل إلى جيل.

- أي أنها مسألة جينية.

- ليس هذا هو المقصود بالضبط. إنه نمط تصرفات داخل الشبكة العائلية. الجينات فعلًا يُمكنها أن تلعب دورًا في الميل الموروث نحو

الإحباط.

أفكِّر في أبي وهو يرى الحياة تمر أمامه من وراء النافذة؛ وفي حزنه الذي التصق به منذ طردوه من المصنع؛ في صوت أمي وهي تقول: «ألن تخرج اليوم أيضًا بحثًا عن عمل؟».

شرح لي الطبيب النفسي الأمرَ كأنه تصرُّفٌ يتعلّمه المرء:

- حين يوجد شخصٌ ما بين الأقارب أو في المحيط القريب أزهق روحه في لحظة غَمّ أو بعد أزمة عميقة، يظل هذا الانتحار مستمرًا في الذاكرة.

يخفض القسُّ صوته وينظر إلى الطاولة المجاورة كأننا نحيك مؤامرة اغتيال:

- ثم يتحول بعدها إلى مرجعية، إلى مخرج محتمل.

كان أبي يعرف الأمر. أنا مقتنعة الآن. لا بُد أن أبي عرف أن والده - والده الحقيقي - قد شنق نفسه. لقد التهمه الحزن وناداه أمواته. إنه دم عائلة خلدون الفاسد.

يواصل القسُّ حديثه:

- يحدث هذا الأمر في عائلات معينة. آل مان، على سبيل المثال. عائلة توماس مان موبوءة بالانتحارات. عمَّات، أبناء، أشقاء، وأحفاد. إنها جائحة.

ما الذي ظَلَّ يُعذب أبي ودفعه ليزهق روحه؟ هل هو فشل جابي؟ أم طرده من البيت؟ أم حياته غير النافعة؟ أم الغم الذي التصق بنعليه؟ أم بُعده عن جذوره؟ ربما، اشتياقه إلى التل؟ أمضغ اللحم بالعجين، لكن

يشق عليّ ابتلاعُه. يبدو طعمه في فمي كالنشارة.

- أو عائلة هيمنجواي. لقد فجَّر دماغه ببندقية ذات فوهة مزدوجة وأبوه أطلق النار على نفسه عام ألف وتسعمئة وبضع سنوات بين الحربين العالميتين. أخته أورسولا، أقصد أخت الكاتب، قتلت نفسها بعده بخمس سنوات بجرعة زائدة من المنومات، ثم جاء أخوه الأصغر ليستر، الذي كان مصابًا بالسكري. حدث نفس الأمر مع الحفيدة، التي كانت شقراء جدًا، الممثلة مارجو هيمنجواي التي تناولت أسطوانة كاملة من الأقراص عشية ذكرى وفاة جدها، بعد مرور خمسة وثلاثين عامًا على انتحاره.

لماذا قد يهمني هيمنجواي وكل سُلالته؟ عُد إلى أرض الواقع، يا أبانا الصغير أندريس.

- لا تذهب بعيدًا جدًا. لدينا هنا عائلة خلدون. صاحب أراضي «لاس برينياس»، أبوه، وجدته، امرأة البئر.

أتجرع رشفة من النبيذ وأشعر بحكته في لساني. ما لا يُذكر اسمه ليس موجودًا، ورغم ذلك، أشير إليه:

- وأبي... يُفترض أنه كان يحمل بذرة «لاس برينياس» الفاسدة.

يصمت أندريس. لقد انتهى من تقطيع طبقه. تتكاثف ضوضاء أدوات المائدة، وطنين التلفاز، ودمدمة المحادثات داخل المطعم. موظفون في القطاع الخاص، وموظفون حكوميون، وأصحاب معاشات في المدينة الناعسة. ينظر القسُّ إليّ الآن بثبات من وراء نظارته، وإذا به يسألني فجأة:

- هل فكرتِ في المسألة ذات مرة؟ هل خطرت على بالك قبل ذلك

مسألة الانتحار؟

كيف أشرح له هروبي؟

ذات مرة كنت على وَشْكِ أن أقتلَ نفسي بالصدفة. أم أنني كنت أبحث عن موتي من دون وعي؟ كنت قد هجرت نايجل والمرسم الخانق وكل ما حدث قبلها بقليل، وعدت إلى بيت بالهام مع سالي. شربنا الجعَّة والويسكيَ في حانة رديئة ونحن ننتظر وصول مورد مخدراتها الذي لم يصل. قمنا بجولة وسألنا. اشترينا في النهاية في أحد الأزقة جرامين من الكوكايين من رجلين أسودين لم نرهما قبلئذٍ قط. كانت الخطة أن نتعاطى في المنزل ثم نخرج بعدها لنرقص. مَدَّت سالي خطين سميكين فوق أسطوانة «داير ستر ايتس» المدمجة ولفَّت ورقة بقيمة عشرة جنيهات. «**المال للعدم والبنات مجانًا**»[29]. استنشقت هي الجرعة الأولى. كم من الوقت استغرقتُه لأفعل نفس الشيء؟ عشرون ثانية؟ اثنتان وثلاثون؟ أربعون أو خمسون ثانية؟ دقيقة؟ لطالما وددت الظن أنها لم تحصل على الوقت الكافي لتحذيري وإبلاغي بأنهما قد خدعانا وأننا نتعاطى الهيروين وليس الكوكايين. هي سبق وجربَته، ولهذا كانت تعرف العطش، وشعور حرقة سقف الفم. سالي كانت قوية كَمُهرة ولم يكن أثره عليها قويًا. أتذكر ما جاء بعد ذلك كومضات متشظية منعكسة على مرآة محطمة يضم كل جزء صغير منها حركة: سالي وهي تصفعني. «أنجي، أنجي، أنجي». سالي وهي تنفضني لكيلا أنام، لأنني لو نعست؛ لو فقدت وعيي، سأتوقف عن التنفس وسيقف قلبي. صاحبة البيت وهي مرعوبة. القيء، وعين المرحاض. شارب الممرض والإبرة. لقد ترك أيًّا كان ما حقنني به علامة في ثنية كوعي

29- (29) مقطع من اغنية لفريق (داير ستر ايتس) وورد في النص الإسباني مكتوبا بالإنجليزية. (المترجم).

طيلة سنوات. إنها نقرة الموت الزرقاء: الإنذار.

أجيبه وأنا أحاول اصطناع التهكم، لأنني لا أرغب في التحدث عن كل هذه الأمور:

- ومن منا لم يفكر في قتل نفسه ذات مرة؟ على أي حال سيشق عليّ كثيرًا اختيار الطريقة. أنا لا أثق في الكيمياء.

إن الانتحارات التي لا تتضمن تناول شيء مثيرة للشفقة نوعًا ما.

تنتابني رغبة في التدخين. أشير إلى القسِّ كي نخرج من المطعم. لا أعرف لماذا خرجت هذه العبارة التالية من فمي:

-أحيانًا، أشعر بالخوف.

- من ماذا؟ من أن تنتحري؟

- أنا محاطة بالموت. يُرعبني أن يبلعني تياره.

يُخرج القسُّ علبة التبغ ويعرض عليّ سيجارة، ويشعلها لي، حاميًا النار بيديه، كأن الهواء يهب. يسند كُلٌّ منا مُؤخِّرتَه إلى فتحة إحدى النوافذ.

- هل تقولين هذه المسألة بسبب أبيك؟

- بسبب أبي وبسبب كل شيء، على الرغم من أن مسألة أخي جابي لا يجب على الأرجح احتسابُها. كان حادثًا.

أرفع رأسي وأنظر إلى السماء. مَرَّ زمنٌ طويل على الأمر، لكنني ما زلت غير قادرة على تحويله إلى كلمات.

- كانت جرعة زائدة. هيروين نقي أكثر من اللازم. قالوا إن شحنة

كبيرة منه وصلت إلى الحي من دون أن تُعالج تقريبًا.

يسمعني باهتمام. لم يسلب منه الكهنوت إيماءات الرجولة: انفراج عظام الفك، ثقة يديه المفترضة، طريقة نفثه للدخان من منخريه.

أتحدث من دون تفكير، بحسم، لأفرغ ما في نفسي:

- أشعر بالخوف لأن رجالي يقتلون أنفسهم.

- رجالك؟

- تحققت للتو من أن أبي قد انتحر، وهو نفس الشيء الذي فعله خليلي، أكثر رجل أحببته.

كيف أشرح له ما عشته مع نايجل؟ هل كان حبًّا؟ إنه أكثر شيء يشبه الحب أعرفه، رغم أنني اضطررت إلى الفرار منه.

يُمسك القسُّ يدي ويضغط عليها. أسحبها بسرعة. لا تُخطئ الظن معي يا قسي الصغير. أرمي عُقب السيجارة، وأرفع مؤخرتي من فوق فتحة النافذة وأعود إلى المائدة. يسير أندريس خلفي كالكلب السلوقي حين يشعر بالبرد، بخطوات قصيرة، متسارعة. أملأ كوبي وأشرب، ثم أقول:

- لم يشنق خطيبي نفسه، وإنما ألقى نفسه في النهر. لم نعرف قط إن كان قد فعلها من جسر البرج أم أنه قفز من فوق أحد مصدات الماء. لم يكن ثمة شهود. هذا هو ما قالوه. عثرت شرطة التيمز على جثة نايجل طافية فوق بطنها، قرب مرفأ الملح. كان قد ربط كاحليه بشريط لاصق.

يعقد القسُّ ذراعيه فوق المائدة ويتقدم بجذعه:

- هل تشعرين بالذنب؟ لا يجب عليكِ هذا. كل شخص مسؤول عن حياته.

أتنفس بعمق، ويتسارع نبضي كأن أبخرة التربنتين عادت لتملأ رئتيّ:

- لم أكن السبب. كانت قد مرت ستة أشهر على إنهاء علاقتنا، وآنذاك لم أعش معه.

صحيح. لم أكن مذنبة، لكن لا أنا ولا بول ولا أخت نايجل لاحظنا مؤشرات الارتباك الموجودة في المرسم. رغم ذلك، أشارت شرطية إلى صورة كانت موجودة دائمًا هناك لتحذرنا؛ صورة عمل مُلصقة على باب الخزانة. مجرد لوحة صغيرة، أكبر بقليل من البطاقة البريدية وتنبض في عد تنازلي. تختفي وراء الفوضى لكنها تنادينا صارخة. إنها جدارية جوتو[30]؛ عمله الرمزي المعروف باسم «الإحباط» حيث تتدلى امرأة مشنوقة في ردائها الفلورنسي بقبضتين مضمومتين، وثمة شيطان جاء لأخذ روحها قبل أن تلفظ آخر أنفاسها. أكثر الأمور المبهرة في الرسم هي قطعة القماش التي تتدلى منها الجثة، إذ يشق على المرء أن يبعد نظرته عن العقدة، لكن لا ثلاثتنا ولا أيًّا من أصدقائه عرف كيف يراها طيلة هذه السنوات.

يقترب النادل منا ومعه القهوة. ينظر إلينا كأننا عاشقين مُختلسين. لا بد أن بقايا الرَّضَّة الموجودة في وجنتي، التي بدأت تصفَرُّ هي ما استند عليه لإكمال حُجته.

- لماذا تساعدني، يا أندريس؟

---

30- (30) المقصود هو جوتو دي بوندوني وهو أحد أهم الرسامين الإيطاليين ومن أبرز المساهمين في النهضة الإيطالية. (المترجم)

يُربكه السؤال. هو مَن يشيح ببصره الآن في اتجاه النافذة ويتظاهر بالنظر إلى حركة الشارع شبه الخاوي في وقت تناول الحلوى. يتظاهر، لأنه ينظر إلى دواخله. يقول في النهاية:

- أفترض أن واجبي هو تقديم الأمل للآخرين.

إلى اللقاء. سلام. نعم. بالطبع. سأعثر على عنوان بيتك. لا تشغل بالك بالأمر. أُلفُّ سيجارة الآن وأنا جالسة إلى أريكة عمومية أمام حديقة الجمعية الخيرية. أدخن وأنتظر. أو بالعكس: أنتظر وأدخن. ثمة أمور تأتي رفقة أمور أخرى، وأنا قضيت حياتي منتظرة. الرسم أيضًا عبارة عن انتظار. «اللوحة الزيتية تجفُّ دائمًا. قد يمُرُّ ثلاثمائة عام و لا تزال تجف». إنها عبارات نايجل. لم يوجِّه لي القسُّ أسئلة أخرى ولم أقدم له تفسيرات. أدخن وأنتظر قبل الدخول للوصول إلى المكان الدقيق الذي أود أن أصل إليه؛ إلى ذلك اليوم في شهر مارس، حين كان عمري أحد عشر عامًا وشنق أبي نفسه.

أجتاز القطاع الترابي الذي يحل محل الحديقة وليس فيه سوى بعض زهور الأرطنسية، وشجرة زيتون عجوز، وأرجوحة سخيفة في منتصفه. يسمح لي الرجل الجالس عند نُضد الاستقبال والعاملات اللاتينيَّات والممرضة التي أعبر معها الطرقة بالدخول إلى الغرفة، رغم أنها فترة القيلولة، وهذا لأنهم يعرفونني من المرات السابقة التي أتيتُ فيها لاقتراض المال. ها هما تنامان وسط الظلال المشعشعة. لقد أضافوا إلى غرفة خاكوبا رفيقة سكن خرفة؛ لأننا معشر الفقراء لا نحتاج أصلًا إلى خصوصية من أجل الموت. أجلس منتظرة إلى مقعد الزيارات الرمادي، لكنني لا أعرف إن كنت سأتحلى بالصبر الكافي أم لا. أسمع تنفس خاكوبا؛ صفيرها المنهك. أي شياطين موجودة في ثنايا رأسها؟ إنها

تتذكر الماضي أكثر مما تناولته في إفطارها صباحًا. لماذا أبقت على الخدعة طوال هذه المدة؟ لماذا لم تتجرأ وتحكِ لي أن أبي قد انتحر؟ هل تظنني غبية؟ تبدو الرائحة هنا كَوَخَم آت. إنها رائحة لاذعة مختلفة تمام الاختلاف عمَّا كان الأمر عليه آنذاك، حين فاح منهما؛ من كِلْتَا أُمَّيّ خليطٌ من روائح الغسول والبسكويت اللدن. هنا ينتظر الموت فرائسه، لكن استباق عمله سهل بالكبس بوسادة فوق الوجه.

أَشُدُّ شريط الستارة الحديدية التي تنفتح بقرقعة قوية، فتُغرق الغرفة بضوء أصفر. تنظر إليّ العجوز الأخرى، التي يقع فراشها قرب النافذة بعينين متسعتين. نظرتها قاسية تلك العجوز. يتحول الأجداد إلى أطفال بأنانيتهم. تستيقظ خاكوبا هي الأخرى وتنظر إليّ من بعيد، كأنها تحدس سبب زيارتي. أظل واقفة. لن أطيق قُرب الجلوس إلى جوار فراشها.

- لماذا لم تقولي لي الحقيقة؟

تصمت خاكوبا. إنها أنحف من المرة الأخيرة. يزيد قُرب الموت من حِدَّة الملامح، وخصوصًا عند الوجنتين والمنخرين. الموت صانع فخار صبور.

- أتفهم أنني كنت طفلة حين انتحر أبي، ولهذا لم تتمكني من إخباري بالأمر آنذاك. لكن، كم عامًا قد مَرَّ يا خاكوبا؟

تُصِرّ على صمتها. لا تفهم أنني لن أغادر المكان حتى تبصق الحقيقة. أَجُرُّ المقعد حتى حافة الفراش وتثيرني الضوضاء التي يحدثها فوق البلاط. أعرف أن مُخَّها لا يزال يتذكر لحظات تلك الجمعة من شهر مارس، وسأعصره. أجلس، ثم أضع ساقًا فوق الأخرى. سأنتظر.

تُغمغم:

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- لماذا لم تقولي لي إن أبي قد قتل نفسه؟

تظل صامتة. تغلق عينيها. تمرر يدها العظمية فوق وجهها.

- لماذا تودِّين أن تعرفي الآن ما حدث؟ أو ما يفترَض أنه حدث وانتهى؟

أصرخ من دون أن أدرك:

- لا تدفعيني إلى قول أمور بذيئة!

لا أهتم أن يسمعني أحد أو أن ينذروني. لن يُخرجني أحد من هنا. هيا يا عجوز، ابصقي ما لديك، لقد جاءت ذئبة التل لزيارتك. لِم عليها أن ترأف بحالك؟

- لقد كذبتِ عليّ طوال هذا الوقت.

تتمتم الآن بصوت خافت:

- لقد جعلتني أمّك أقسم، يا أنخيلا. كانت خائفة منك.

أمي، أمي، أمي. لم تهتم أمي إلا بحقيقة موت أخي.

أضيف رافعة صوتي:

- كم عامًا مَرَّ على موت السيدة قريبتك؟ ألم تحصلي على وقتٍ كافٍ منذ ذلك الحين لتحكي لي الحقيقة؟

ألقي نظرة خاطفة على العجوز الأخرى. إنها خرفة، لكنها تفهم نبرات الأصوات.

تحدثي يا خاكوبا، تحدثي. أرغب في معرفة كل شيء، حتى أتفه التفاصيل. أُنصت الآن إليها. تخمن العجوز أن أبي انتحر على الأرجح بعد ساعتين من توجهي إلى المدرسة، حين مكث وحيدًا في الشقة. اكتشفوا أنه قطع بالمقص حبل ستائر غرفة الطعام التي اعتدنا أن نتركها مفتوحة لنتسلى برؤية مَن يصعدون وينزلون عبر الشارع المنحدر. لا بُد أنه توجه ببطء إلى المطبخ ورفع أنبوبة الغاز التي أرقدتها أمي على الأرض لتستهلكها حتى آخر قطرة، قبل أن يُقربها من النافذة. أتخيله يصعد فوق الأنبوبة ويربط الحبل المصنوع من النايلون بحلقة المزلاج، ثم وهو يتأكد من صنع يديه، قبل انشغاله بتكوين عقدة يُمكن تعديل حجمها عند الطرف الآخر. أكاد أراه وهو يضبطها فوق عنقه. لا بُد وأنه رفس الأنبوبة ليُسقطها حينما بات مستعدًا، ثم ظل يركل الهواء على ارتفاع نحو شبر ونصف من الأرض - وهو الارتفاع الكافي- إلى أن أوقف ضغط الحبل تدفق الدماء إلى دماغه. لكن لماذا؟ ما الذي دار في رأسه؟ هل تذكر أبيه ودماءه؟ في أي شيء فكر في اللحظة الأخيرة؟ هل وَدَّ أن يعود إلى التل؟ في أي فشل علّق أبي نفسه؟

- عثرت عليه أمُّك معلقًا من النافذة حين عادت من العمل. كان هذا نحو الثالثة. جاءت إليّ وكان أمرًا فظيعًا.

تلتقط خاكوبا أنفاسها وتنظر بطرف عينيها إلى جارتها:

- لقد اندهشتْ حينما مرَّت ولم تجده في حانة الجاليثية.

كان يرتدي قميص الأحد الأبيض. ارتدى أبي ملابس الخروج ليقتل نفسه. ربما كان ذاهبًا إلى الحانة، لكنه توقف في اللحظة الأخيرة، وعاد إلى ما شغل باله، إلى الحبل، إلى العقدة. أم هل نزل وعاد إليه بعد الرشفة الأخيرة؟

- من كان على علم بالمسألة؟

تنظر خاكوبا بعينيها إليّ ببؤس:

- أمك، وأنا والسيد ماتيو فقط. لم نقل إلى باكو لكيلا يفلت الأمر من لسانه. حينما عاد من المصنع، كانت قد مرت ساعات على رحيل رجال الإسعاف والسيارة مع الجثة.

- وجابي؟

- لم نقل شيئًا لأخيك.

أتذكر أنني، في الليالي الثلاث التي قضيتها في منزل السيد ماتيو، نظرت من النافذة إلى فراغ المَنْوَر لأرى إن كانت ثمة مؤشرات على وجود حياة في المطبخ. نور مضاء، أو بنطلون فوق المنشر، أو يدا أمي الحمراوان.

تدخل إحدى العاملات إلى الغرفة ومعها كرسي بدواليب. تنظر إليّ بريبة، لكنها تقول: «أوه. جميل يا خاكوبا، لدينا زيارة». نجعلها أنا والفتاة تنهض وتجلس فوق المقعد ونخرج إلى الطرقة البيضاء؛ البيضاء بصورة مؤلمة. إنها ساعة الوجبة الخفيفة. أسير خلفهما نحو المقصف. تُخصص لنا الفتاة مائدة منزوية نوعًا ما عن البقية. ينظر إلينا النزلاء. ينظرون إليّ على وجه الخصوص. ثمة مُسِنٌّ له وجه طفل يتابع حركاتي بفم مفتوح. تتسلل ضوضاء خافتة لآنية ورائحة حساء وخضار مسلوق عبر الباب الصغير الموجود في نهاية القاعة. لم يقدموا لهم وجبة العصر الخفيفة بَعْدُ وها هم أولاء يحضرون لهم العشاء. لن أتركهم يحبسونني هنا مقابل أي شيء في العالم، لكنني أفترض أن الحياة ومبالغاتها لن تسمح لي بأن أكون عجوزًا هكذا. إنه أمر لا أريده أيضًا.

ثمَّة امرأة في مثل عمري توزع عليهم من عربة عبوات زبادي، وكسترد الحليب والبيض، وأكياس مشروبات نَعْنَاع الحقل. تطلب خاكوبا كوبًا من الحليب وقطعتي بسكوت «ماري». تسألني المرأة إن كنت أوَدُّ شيئًا، لكنني أنفي برأسي. لا أرغب في هذا الخراء. أوَدُّ أن أشرب، لكنهم هنا لا يقدمون لهم النبيذ الأحمر، وإنما يُنوِّمُونهم بالأقراص. كل ما يُسمع هو صوت ملاعق العجائز وصوت الصمت اللزج. تمضغ خاكوبا ببطء شديد. أودُّ أن أرحل. أودُّ أن أغادر في أقرب وقت ممكن.

أرافقها إلى غرفتها عبر الطُّرقة، وأقبل إكرامية العشرين يورو رغمًا عني. أضعها في فراشها وأُقبّلُها من دون أن أقبّلَها. حينما أصل إلى فتحة الباب، في لحظة الوداع، أسمعها تقول، وهي تنظر إلى مثلث الضوء المرسوم فوق بلاط الأرض القادم من نافذة مرتفعة:

– لا يجبُ عليكِ التفكير في هذه الأمور يا بُنيتي، فهي تلتصق بالمرء كالجرب.

# حدّ أشجار اللوز

ينبلجُ الصباح. آخذُ السلة الصغيرة والدلو مع قشور الفاكهة وأخرج إلى الحظيرة. تترقب السماء الصافية الشفافة شروق الشمس ككأس زجاجية رفيعة على وَشْك الانكسار. منذ موت خوليان تأتي الأيام وتمر بسرعة شديدة إلى درجة أن الصيف حَلَّ من دون أن ندرك. يراني «بلوتو» الذي يرقد مُتكورًا بعين مفتوحة عند عتبة السقيفة، وأنا أمُرُّ من أمامه. لا يزال الوقت مبكرًا بالنسبة له. ثمة دجاجة بُنية باتت حاضنة ولا تخرج للتجول من عُشِّها. لو تمكنتُ من جلب بعض الذرة لها... إنها صعبة المعاشرة وتتحامق منذ عدة أيام. تنهض فقط لتناول طعامها وتعود على الفور لحماية بيضها بحرارتها. يراقبها الديك عن كثب كي تتحرك بأقل قدر ممكن وللدفاع بمنقاره النظيف عن مساحتها أمامي أنا وبقية الدجاجات الأخريات، بل إنه يتجرأ على مواجهتي. في الأحوال الطبيعية، يفضل السيد الديك عرض دجاجاته على الملأ بشكل أكبر - وخصوصًا ذوات العرف المنتصب - لكن حين تصبح إحداها حاضنة - حتى ولو كانت قبيحة - إذا به يتخلَّى عن التباهي ويحميها، مدافعًا عن استمرارية حظيرة الدجاج. حاليًا، هو أعنف ويُضَخِم جسده بنفش ريش رقبته الحمراء أمامي. اهدأ أنتَ وشجارك هذا، فأنا ما زلت صاحبتك. الدجاجة السمراء، الوحيدة التي تتجرأ على تحدِّيه. تعتلي السياج أو فروع الأكاسيا طوال اليوم، بالعلو الذي يتيحه لها طيران جناحيها القصيرين. لا تترك أحدًا يطأها. تعيش منعزلة عن بقيتهم التي تحترمها حينما تنزل لتنقر هنا وهناك، في انتظار أن تموت عجوزة، والحقيقة أنها على الأرجح تستحق شرف ألا تنتهي داخل إناء طهي. لم تعد تبيض. لم تضع بيضة واحدة منذ الخريف الأخير، كما أنني لم أرها قط تحضن بيضها. لم تحظ الدجاجة السمراء قط بغريزة الأمومة،

كحالي أنا. لا أعرف إن كنت جيدة في الحسابات، لكن أظن أنني لم أحِضْ منذ نحو عامين.

أدخل البيت بإحدى عشرة بيضة لا تزال فاترة. أشم عند المدخل تحديدًا رائحة القهوة التي جهَّزها إبراهيما. إنه جالس إلى الطاولة، عند الأريكة الطويلة، ناظرًا إلى النافذة، والبخار يتصاعد من فنجان يده. في يده الأخرى أول سيجارة ماريجوانا في اليوم. زرع خمس شجيرات ماريجوانا في حفرة بين جدار البستان المُسيَّج وخزان التجميع، بعيدًا عن الرياح والنظرات البعيدة القادمة من الطريق النازل نحو الضيعة. لا آبه إن دَخَّن. يقول إن دون خوليان هو الآخر لم يأبه. يلقي تحية الصباح. أرُدُّها إليه. نعم. يودُّ أن يتناول إفطاره. بيضة مقلية، بالطبع. من الأفضل أن تكونا بيضتين. شهيتي مفتوحة أنا الأخرى. أضع المقلاة لتسخن فوق الموقد. أرفع الغاز. يبهرني اللون البرتقالي للشعلة مع قلبها الأزرق. أقطع الخبز. أصُبُّ بقيةَ ما في إبريق القهوة في كوب. تتسلّلُ قطعةٌ من السماء الملساء إليَّ عبر الناموسية وأوراق التعريشة. يقرقع الزيت. أكسر القشرة عند حافة الطبق. البيضة فيها نُديبة [31]. ثمَّة دماء في بياضها. أشعر بالاشمئزاز. إنه اشمئزاز لم أشعر به من قبل. أقلبها في مصرف المياه من دون أن يراني إبراهيما.

نتناول إفطارنا في صمت. يمضغ إبراهيما ببطء، على النقيض مني، إذ أسرع لإنهاء الإفطار. لا تزال «القبطانة» العجوز الأكولة المحبة للحياة السهلة تهزُّ ذيلها، تحسبًا لأن يسقط منا شيء لها. لم يمْحُ تقدُّمها في السن جوعها المتأخر ككلبة هجينة.

– حينما تنتهي، سنبدأ في زراعة الطماطم وترطيب الأرض.

---

31- (31) أسطوانة صغيرة تتضمن النواة الأنثى في البيضة. (المترجم)

يجيبني إبراهيما:

- هذا أمر غير ممكن. ينتظرني «الدباغ» في التاسعة عند بيت المستنقع.

- بمعنى؟

- إنه مجرد عمل غير مهم. يودُّ أن أساعده في تنظيف جير خزان الماء.

يُسعدني أن يمُدَّ أحدٌ ما لنا يد المساعدة. يطلقون لقب «الدباغين» على هذين الاثنين، أي أركاديو وأخته الأرملة. الأول لا يروقني كثيرًا ولا أعرف أصلًا كيف لا يزال يتنفس، لكن تُريحني معرفة أن مالًا إضافيًا سيدخل البيت، إلى جانب حسنة الدعم التي أحصل عليها، وهي مجرد فتات. أقل دخل ممكن لتجنب النبذ المجتمعي. هذا هو ما يقولونه.

- أعتقد أن المسألة ستستغرق مني نحو يومين.

أسأله:

- ما المبلغ الذي ستحصل عليه؟

- اليومية تبلغ أربعين يورو إلى جانب الطعام.

- هل تجلت لنا العذراء يا أخي!

يسألني إن كنت أوَدُّ فنجانًا آخر من القهوة، فأقول له نعم. سأبدأ العمل مع الطماطم بمفردي وقدر استطاعتي. جهَّزتُ المواسير، وقلَّبتُ التربة، ورسمتُ خطوط الحرث وما بينها. ينشغل إبراهيما بما يفعله وراء ظهري، فوق رخامة المطبخ. ثمة أيام قد يقترب فيه وجود الإنسان

المجرد كثيرًا من معنى السعادة. أعدنا بناء الحياة على مقاسنا، بعد مغادرة الأوكراني، حيث يمضي الزمن وَفقًا لإيقاع الشمس. انقسمت المهام بيننا بصورة لم تتطلب نقاشًا فتوزعت مشاغل البيت وحدها. أنا أطبخ وهو يغسل الأطباق. تنظيف البيت وحظيرة الدجاج مسؤوليتي، في حين يعتني هو بمسؤولية الأعشاب الضارة (العشبة الخبيثة التي تنمو كشيء شرير) وأحواض الزهور والأشجار الأربعة المثمرة. بالنسبة إلى العمل في البستان، فالمسألة جيِّدة إلى حَدٍّ ما. لا يسود التوتر تعايشنا، لكن نجوانا تصاغرت منذ يوم الأحد الذي ودعنا فيه فيتالي، فاستحال الأمر إلى محادثات مقتصرة على الأساسيات، كأن كل شيء قد قِيل، أو كأن قلقنا قد أرسى حجابًا بيننا. لم أحكِ له اكتشافي أن أبي شنق نفسه مثل السيد. لا أرغب أن يتناول معي هذه المسألة. أحاول ألا أفكر في الأمر وألا أسمع رفرفة ذباب الخيل. لا أفكر في البيت أيضًا. شاهدني إبراهيما وأنا أحرق الظرف الملعون الذي جاء به ديونيسيو من دون حتى أن أفتحه، ولم يأتِ أيٌّ منا على ذكر الموضوع. يوم آخر وقطع آخر في التقويم المعلق على الحائط. أودُّ أن أسأله منذ أيام، لكنني عاجزة عن اتخاذ قراري تخوفًا من إهانته: لا أعرف ما الذي يفعله معي هنا، في هذا البيت القديم، من دون مستقبل سوى رؤية شجيرات الفاصوليا تنمو وانتظار المطر. بالنسبة إليّ، الأمر جيد. ربما تحصنتُ هنا مبكرًا، وأنا ما زلت شابة، لكنني شعرتُ آنذاك بأنني عشتُ كثيرًا. هكذا كانت السعادة؛ تقريبًا. عشتُ ما عليّ عيشه، لكن هو؟ ما الذي ينتظره؟

يعود إلى الطاولة مع القهوة. يفتح العلبة ويضع ثلاثة ملاعق ملآنة بالسكر. تُحرِّك يده الملعقة بنشاط. ما يزال فتيًا جدًا. يمكنه أن يمضي في طريقه بعيدًا عن الضيعة وعن هذه الحقول التي يزداد فراغها وجفافها بمرور الوقت. لا أفهم، مهما حاولت، لماذا فَرَّ من أفريقيا. أي

فائدة عادت عليه بمغامرة الأيام العشرة التي قضاها من كازامانس إلى سانتا كروث دي تينيريفي، مع الأمواج التي هددت بابتلاع زورقه المُحمَّل بستة وتسعين شخصًا، ليتذوق طعم بوله، قبل أن يقفز إلى شبه الجزيرة، ويُودَع في مركز للأجانب، ومن بعدها انكسار عوده في الحقول، والعمل في المذبح، ثم الشجار والهروب مُصابًا عبر الجبال؟ لأي سبب فعل هذا؟ لِمَ يدفن نفسه هنا معي؟ أين ذهب ربيعه الأفريقي؟ وموسم أمطاره؟ أين هي طبوله النقَّارة وطبول الـ«جيمبا»؟ أتذكر الوطاويط التي حدثتي عنها وهي تحلق في السماء الأرجوانية مع سقوط أول قطرة، وحبله السري الذي دفنته جدته ما إن ولد أسفل شجرة باوباب وراء بيت العائلة كي يجد دائمًا مكانًا يُمكنه العودة إليه. أي حلم جاء إلى هنا بحثًا عنه؟ يشعر إبرا بالخوف، وأحيانًا يبتلعه. في نهاية المطاف، أنا لا أعرف حقًا شيئًا عنه.

أطلب إليه:

- ساعدني في حلاقة شعر الكلبة قبل أن تذهب. لا يزال لديك وقت. بعدها، سأجهز لك بعض البيض كي تأخذه إلى الأرملة.

لم تعد القبطانة تحتَجُّ على الحلاقة كما كان الأمر في البداية حين وصلتْ متشردة ومصابة بالجنون من فرط الألم، بعد أن باتت طعامًا للقُرادة. تتبعنا مطيعة نحو حوض الغسيل أسفل التعريشة. تقبل الماء النظيف الذي أسكبه ببطء فوقها براحتي يديّ. يُمسكها إبراهيما ويبتسم. في البداية نستخدم المقص بعناية مع سيقانها ثم نحلق ظهرها بالآلة. هكذا، اهدئي، جميل جدًا. تعرف أن الحَرَّ قادم، ولهذا تترك نفسها.

فجأة، ينهض الكلب السلوقي الذي كان نائمًا بخمول أسفل شجرة التين. يقفز منطلقًا نحو البوابة المُسيجة ويضع خطمه بين وريقاتها

الصلبة والثقيلة جدًا عليه. يخمش القضبان بقائمتيه الأماميتين، ساعيًا إلى الخروج إلى الدرب. ما الذي يحدث لك يا «بلوتو»؟ تفلت «القبطانة» من بين يدي إبراهيما وتنبح في وجهنا، مكشرة عن أنيابها. تنفض الماء، وتقفز من دون إكمال حلاقتها، بحثًا عن الكلب السلوقي. نتبادل أنا وإبرا نظراتنا، من دون أي كلمات. نفهم بعضنا فجأة. ثمة مَن يتجول هنا. يركض إبرا لفتح البوابة، وإذا بالكلبين بعد انفتاح ضفتيها، ينطلقان نحو الحقول كسهمين. «القبطانة» بوبرها المقصوص كفزاعة وبلوتو كما هو. يبدو أن سمعهما يرشدهما أكثر من حاسة الشم. يخرج إبرا خلفهما. أرتدي بعفوية نعل أمي المطاطي المخصص للبستان وأحاول اللحاق بهم. الآن فعلًا يمكنني تمييز هدير معدني عنيف يتوجه إليه الكلبان. تفوح رائحة الديزل من الهواء. إنها رائحة حارقة تلتصق في سقف فمي وتثير أعصابي. تنحني سيقان الشوفان البري لدى مروري. يهرول «بلوتو» و«القبطانة» عند نصف الأرض البائرة ويتفجر نباحهما في الهواء كعيدان قصب جافة تنكسر. أركض وأركض وأركض. دمي دماء عجوز، إلا أن ساقيّ جيدتان وعضلاتي وأربطتي قوية بسبب مسيراتي. ينزلق النعل فوق حصى الأرض. تخترق إحدى أشواك الحراشف البرية جوربي، أو ربما هي حشفة من بقايا موسم الحصاد الأخير، الذي لم أعد أتذكره. لا أتوقف. أمضي قدمًا، قدر استطاعتي، وأنا أعرج. وصل إبراهيما والكلبان عند الحَدِّ تقريبًا. أختنق ويشق عليّ التنفس. تؤلمني رئتاي. لا بسبب المجهود، وإنما من غضبي مما أراه على بُعد ثلاثمائة متر. إنهم يقطعون أشجار المصطبة الزراعية؛ أشجار لوزي التي تفصل أراضينا عن ملكيات عائلة خلدون. يربط الرجل ذو المنشار الآن أحد الجذوع المقطوعة بسلسلة متصلة بجرار كي يستأصله من جذوره كضرس وحش ضخم. ما الذي يحدث؟ ولماذا؟ تهتز الآلة لأن الجذور تأبى أن تُستأصل من أرضها. يزأر المحرك. أصل وأكاد

أقع. أميِّز أن ديونيسيو هو مَن يقود جرار «جون دير» وأن الرجل ذا السلسلة هو سباستيان ماجانيا، صاحب ورشة الصاج. أقرفص وأمسك بأول حجر أعثر عليه وألقيه بكل قوة، لكنني ألاحظ كيف يرتد من فوق فولاذ المقصورة بصوت سخيف.

- ما الذي تفعلانه يا ابنا العاهرة؟

يكشط صراخي حَنجرتي، لكنني أكاد ألا أسمع نفسي. يتمترس إبراهيما خلفي. تقف الكلبة بين جسدي والجرار كأنها تحميني، من دون أن تقترب كثيرًا من الإطارات، بينما يلف «بلوتو» ببؤس حول كتل الفروع المقطوعة وساقيّ ماجانيا، الذي يظل هادئًا أشد الهدوء، وثابتًا في مكانه ومنشاره الكهربائي فوق الأرض بأسنانه الناظرة نحو السماء وسط رائحة الزيت المحروق.

- مَن الذي أذن لكما؟

يخلع رئيس العمال مفتاح المحرك من مكانه فيتوقف برعشة يبدو صوتها كالرعد. لا يكلف نفسه أصلًا عناء النظر إليّ. لا تزال يداه تحوطان المقود ونظرته تائهة وسط العدم.

أطلق سُبابي هذه المرة من دون صراخ:

مكتبة
t.me/t_pdf

- يا ابن العاهرة.

أسمع ماجانيا يقول وهو يقترب منا:

- لا يوجد الكثير أصلًا على كل هذه الجلبة.

- أطبق فمك يا ماجانيا، فالمسألة ليست معك أنتَ، رغم أنك تبيع ولاءك بثمن بخس.

يصمت حِرفيُّ الصاج ويشيح ببصره. نظرته الآن ثابتة فوق طرف حذائه المكسو بالتراب. يتشمم «بلوتو» ما بين ساقيه والأرض المبقور بطنها. لا تنفصل الكلبة عني. ينزل ديونيسيو من الجرار بحركات منهكة؛ آخرها قفزة خرقاء منزوعة الرغبة من فوق مسند الصعود. يرتدي حذاءَ ماءٍ طويل العنق حتى ركبته، من تلك النوعية التي تُرتدى لتسميد الأرض. أودُّ أن أنقضَّ عليه، لكن إبراهيما يمسكني من خصري من الوراء ويجذبني نحو جسده. أشد وأجذب معه، فيقول لي في أذني: «أنجي، اهدئي يا أنجي». يُهدئني صوته في أذني. أشم رائحته التي تبدو كجلد حيوان غير مدبوغ. يُلين إمساكه بي رويدًا رويدًا، حين يلاحظ انتظام تنفسي. أفلت منه وأقترب من رئيس العمال بخطوتين واسعتين. تفوح من فمه رائحة الـ«أجوارديينتي».

- لا بد وأنك قد تورَّطت كثيرًا كي تقدم على هذا العار. ينقصك المال، أليس كذلك؟

أمسكه من ياقة قميصه، فينفصل أحد أزراره، ثم أفلت نسيجه وأضربه بكلتا قبضتيّ في صدره، فيمسك معصمي وهو ينظر إليّ من دون أن ينظر إليّ. ليس في حاجة إلى ممارسة ضغط كبير ليوقف حركتي. تُهاجمه الكلبة، فأحاول تهدئتها:

- اهدئي، يا «قبطانة»، اهدئي. ما الذي كان السيد ليقوله! ما الذي كان السيد ليقوله لو رأى ما تفعله الآن؟

ينظر إليّ مباشرة في هذه اللحظة. يحدق إلى عينيَّ. تلمع البقعة التي تتخذ شكل قفل وترتعش. لون قزحيته أزرق قذر كقزحية والدي. إنه يعرف ما أفكر فيه. أتخيل كليهما: هو والسيد وهما يتضاجعان في الإسطبلات: خوليان متشبثًا بسور المكان المخصص لأكل الخيول

وديونيسيو يمضي بتهور كأعمى في دفعاته. إنه يعرف أنني أعرف.

- لقد جئت إليكِ منذ ثلاثة أسابيع ومعي الظرف ولم تقولي لهما شيئًا.

يُخرج ديونيسيو منديلًا من بنطلون العمل وينشف وجهه، ولحيته الرفيعة القصيرة، ومقرني فمه.

- وما الذي كانتا تنتظرانه؟ أن آتي لزيارتهما بالزهور وسلة من البرقوق. ترغبان في طردي إلى مقلب القمامة وأقسم لك أن هذا أمر لن تراه عيناك. سأذهب إلى المقلب وحدي، وفقط حينما يطيب لي الأمر.

- أنا أنفِّذ فقط ما أومر به من قبل الخلدونتين والمحامي.

يتوقف قبل أن يضيف:

- هذه الأرض ليست أرضك يا أنخيلا.

وددت أن أصفعه بكل أريحية لانتزاعه من حماقته:

- ألا تُدرك يا ديونيسيو؟ كلهم يستغلونك للقيام بالأعمال القذرة، وبعد ذلك حينما لا يصبحون في حاجة إليك، سيركلونك في مؤخرتك.

ينظر إليّ رئيس العمال غير مصدق. لقد انكسر ظهره في المزرعة ولا يتسع رأسه لحياة أخرى غير هذه، بل إنه غير قادر على تخيلها أساسًا. يشق عليه كثيرًا أن يُواجه نفسه بعد وفاة خوليان. يا له من تعيس بائس. لا يعرف أن رؤيتي تصل إلى حيث يعجز الآخرون.

أتابع:

- لأنه ببساطة.. قل لي: هل ترك لك السيد شيئًا من الميراث؟

أعرف الأمر. لقد أطلقت رصاصتي بغرض القتل. ها أنا ذي أُهينه.

تنزل يد رئيس العمال الغليظة فوق خدي الأيسر، وحين أحاول التحرك، إذا بإبراهيما يسحبني من ظهر قميصي ويجذبني نحوه ويُلجمني بالقوة.

- أنت جبان يا ديونيسيو! أفلتني يا إبرا، اللعنة!

يُحدثني إبرا في أذني، بنعومة وحسم:

- اهدئي. اهدئي.

يحميني الكلبان وينبحان بصورة متتالية، من دون أن يقتربا أزيد من اللازم من ديونيسيو، لكنهما رغم ذلك يبدوان مستعدين للدفاع عني.

يقول ماجانيا واضعًا نفسه بين الكلبين ورئيس العمال:

- لنحظَ بحفل سلام هنا، لكن تعقَّلي يا أنخيلا. هذه الأشجار جفَّت على أي حال ويعلم الرب وحده منذ متى لم تثمر ولو لوزة واحدة.

أصرخ:

- لم يتجرأ أحد على لمسها. لا أحد على الإطلاق على مدار مائة عام. لقد احترم دون خوليان العادات القديمة.

لا تبكي يا أنجي. ابتلعي لعابك، ولكن لا تبكي.

- كل ما لديّ هو هذا البيت.

يجذبني إبراهيما ويضُمُّني إلى جذعه. يُجبرني على السير إلى الوراء. خطوتان، ثلاث، أربع خطوات. أطيعه من دون أن أتوقف عن النظر إلى ديونيسيو.

أقول لهما من دون غضب، تقريبًا:

- افعلا ما عليكما فعله، لكن الحطب لي.

نعود إلى البيت وكل منا يحوط خصر الآخر بذراعه، في ظل هياج الكلبين حولنا. الحق أن إبراهيما هو مَن يُساعدني على المضي قدمًا بخطواتي المترددة فوق هذه الأرض السيئة التي كانت لنا. اعتلت الشمس السماء وقريبًا ستحرقنا أحياء.

يمُر ما بقي من النهار في صَمت بين ذهاب وإياب حتى الحد الفاصل، مع جَرِّ الأشجار بالحبال: الجذوع في البداية، ومن بعدها الجذور. لم يذهب إبراهيما إلى بيت المستنقع. قال إنه سيذهب إليهم غدًا متحججًا بأي عذر. تشتعل راحتي يدي من الجهد المبذول. حينما ننتهي من بذر الطماطم، علينا أن ننشر الخشب؛ ولأن السقيفة لن تتسع للحطب، فعلينا أن نصفَّ الجذوع الفائضة إلى جوار الحائط الخلفي. حطب أشجار اللوز سيشتعل جيدًا، بغضب. سأذهب يوم السبت إلى متجر «إل تشانو» وأطلب إليه، تحسبًا فقط، جِوالَ فوسفات فارغًا لتغطية كومة الحطب، على الرغم من أنني توقفت عن عَدِّ الأسابيع الخالية من الأمطار.

سخن إبراهيما لنفسه طبق حساء مع بعض الشعيرية. أسمعه يرشفه الآن، من وراء ظهري، وهو يجلس إلى المائدة. لست جائعة. يطلب فمي النبيذ. صببتُ لنفسي كوبًا كبيرًا وجلست إلى المقعد المنخفض إلى جوار المدفأة المطفأة؛ تحديدًا إلى المقعد ذي المسند المصنوع من الحبال المُضفَّرة الذي اعتادت أمي أن تستخدمه للحياكة. كتاب القسِّ فوق تنورتي، لكن جسمي غير قادر على القراءة. لست في قمة تركيزي. لم نتحدث تقريبًا عما حدث، ولسبب غريب، يبدو إبرا مرعوبًا أكثر مني. ينهض الآن، وأسمع من وراء ظهري، صوت تدفق المياه الساقطة فوق الطبق الفارغ. يُغلق الصنبور، ويقترب من الموقد. يجلس إلى جواري،

على الأرض، فوق البلاط الأحمر. لا أعرف كم ثانية مرت إلى أن سمعته يقول، كأنه يهمس:

- لنرحل عن هذا المكان يا أنجي.

# لحم وظلام

يحكي إبراهيما:

- عليّ أن أعود إلى بيت المستنقع. لم أنتهِ بعد من كشط البِركة. لقد أهدرت اليوم وأنا أفصل بين الإناث والذكور وفي تنظيف الجناح. الوضع كان منفرًا.

لا يروقني مطلقًا الاستماع إلى قصته المليئة بالريش والدماء والغائط، لكن أقول لمجرد القول:

- أتخيل الأمر.

- نُزعت عينا إحدى الإناث. ثمة واحدة أخرى كانت بنصف رأس. لقد ذبحناهما.

- أتخيل، فنفس الشيء حدث منذ بضع سنوات.

حدث هذا بعد عودتي إلى هنا بقليل وذهبتُ أنا وأمي إلى بيت المستنقع لمساعدة «الدباغين» وتنظيف آثار الكارثة. كان الأمر لا يطاق؛ فطيور السمان، أو أغلبها، قتلت بعضها نقرًا. تكالب الذكور على وجه الخصوص على الإناث، وأثخنوها في رؤوسها بالجراح. لم يتمكن أحد من تفسير الأمر في الضيعة. قال أحدهم إن الطيور توحشت بسبب ضيق المساحة ووضع ذكور أكثر من اللازم في نفس المستودع. ربما مرد الأمر نقص الطعام أو أحد الفيتامينات. كل ما أعرفه أن الشمس كانت في أوجها. لهذا أستشعر أن هذا سيكون صيفًا أسوأ. يبدو الكلبان مضطربين وسريعي الغضب من شدة حرارة اليوم.

يجلس إبراهيما إلى يساري قرب طرف المائدة، كما هو الحال

دائمًا. يمضغ طعامه في صمت. نسمع الآن صوت أنبوبة الغاز ورفرفة الفراشات الليلية التي تحلق مبهورة حولنا لترسم دوائر متحدة المركز تزداد قُربًا من ضوء الفانوس، كلما مرَّ الوقت. لا يُمكنها مقاومة الإغراء. لا يزال وجود وميض في وسط الليل لغزًا عصيًّا عليها بعد ملايين الأعوام من التطور. لا تفهم الأمر وتلقي نفسها نحوه مباشرة.

– في ليالي الصيف في بلادي، يقترب العث كثيرًا من الشموع فيحترق من شعلتها. لطالما قالت جدتي إنها أرواح يملؤها الأسى.

– مثلنا نحن الاثنين تقريبًا.

نضحك، لكن ما ينبثق منا هي ضحكة عجوز، منهكة. قطعوا الكهرباء منذ ثلاثة أيام. ثلاثة أيام وثلاث ليال؛ الليالي الثلاث التي تَعَشَّيْنا فيها نفس الشيء: أضلاع لحم الخنزير على ضوء مصباح الغاز. لحم في الغداء ولحم في العشاء. لحم في كل الساعات، كذئاب الجبل. نأكل اللحم الذي أحتفظ في مُجمّد السقيفة من أجل برد الشتاء، قبل أن يفسد. أدركنا مسألة انقطاع التيار في الليلة السابقة، وأنا أستعِدُّ لتحضير العشاء، فحينما ضغطت المفتاح لم يعمل ضوء المطبخ. صعدت فوق المائدة وأدرت المصباح ولم يحدث شيء. كان في وضعية مثالية. تفقَّد إبرا الغرف ووجد نفس الشيء. لم يعمل مصباح المدخل أيضًا. اقتربنا من كُشْك المحوِّل، الواقع على بعد ثلاثمئة متر من السياج الخلفي للبستان وأغرب شيء أننا بمجرد أن نظرنا إليه رأينا سُلَّمًا ذا درجات عريضة، من تلك السلالم التي تستخدم لجني الزيتون، مستندًا إلى الجدار الطوبي. لماذا تركوه هناك؟ لإرهابنا على ما أفترض أو للسخرية منا. كان إبرا هو مَن لاحظ بتر السلك النازل من أحد القواطع الكهربائية. هل كانوا قد فعلوا الأمر للتو؟ أم أثناء الليل؟ كيف نجحوا في المسألة من دون

أن أدرك؟ لا أتذكر أنني خرجت من البيت طوال اليوم. قال إبرا حينها: «إنهم يضيِّقون الخناق علينا». عُدنا في صمت، والليل يحُلُّ على رأسنا، وسط إضاءة الفانوس لخطواتنا، مع صرصرة جداجد الليل فوق تراب الأرض الساخن.

لا بد أن أحدَهم أطْلَعَ الخلدونتين على مسألة أننا نمتص الكهرباء مجانًا. لا بُدَّ أن أحدًا ساعدهما على قطع الكابلات. أظن أن المسألة ترتبط بالتوأمتين وحاشيتهما، لكنني لست متيقنة. لم أعد أعرف مَن هو مَن في الضيعة ولا الكيفية التي تتوزع بها الولاءات المنقسمة. البيت متصل منذ أعوام كثيرة بمُحَوّل «لاس برينياس»، لكننا لا نسرق الكهرباء من المزرعة، وإنما من الشركة. هذا هو ما قاله ماجانيا لأمي حينما نفَّذ الحيلة.

- هل تودين شريحة شمام؟

- لا شكرًا. لا أودُّ أن آكُلَ الشَّمَّام ليلًا.

ينهض إبراهيما ويتوجه إلى غرفة المطبخ الخلفية، التي أستخدمها دائمًا كخزانة للمؤن؛ لأنها تُطلُّ على مكان ظليل وأبرد جزء في البيت. أنزلنا طاولة مجوفة من إحدى الغرف الخاوية لتلعب دور خزانة الأطعمة ووضعناها أسفل النافذة إلى جوار الحائط. أيضًا، وضعتُ في إناء قديم لعجن الخبز كل اللحم الموجود في المجمد: ضلوع الخنزير وبعض النقانق وأرنب كامل، ومن فوقها جزء مقطوع من الناموسية لكيلا تلمسها الحشرات، لكن ما من نسمة هواء واحدة هَبَّت هذه الليلة.

إنهم يختبرونني. أقصد الخلدونتين والمتآمرين معهما، لكنهم جميعًا لا يدركون أنني على الأرجح قادرة على مواصلة حياتي وسط العتمة إلى أن يحين أجلي وأنا عجوز. يبدو أن الأسمر هو الآخر لا يلقي بالًا بالأمر،

رغم أنه يدخن الماريجوانا أكثر من أي وقت مضى، وبات منغلقًا على نفسه، كحلزون أبكم. خلال النهار، يمضي يومنا وفقًا لإيقاع الشمس. أستيقظ قبل الشروق وأستغلُّ النهار حتى آخر شعاع من الضوء لترتيب البيت وغسل الملابس يدويًّا والاعتناء بالبستان ومشاغله التي لا تفنى صيفًا. ينتهي بي المطاف منهكة من ريِّه باستخدام الدلاء والحبل وبكرة البئر في ظل عجزي استخدام مضخته. لا أشكو. مَن سبقوني، عاشوا على هذه الحال طيلة قرون: الحصاد وليالي الصيف. تأملهم النجوم من الفناء وسط أشجار الزيتون. دفء النيران في يناير. النوم مبكرًا، وبدء كل هذا من جديد. نحن ليلًا. نجلس إلى المائدة ونتناول العشاء، وهي أكثر اللحظات التي يتباطأ فيها الزمن ويزداد عمقًا. يظهر الضباب من وراء حزمة ضوء المصباح وأيدينا والأطباق. أتخيل أسلافي هنا، حول نفس هذه المائدة المنحوتة من خشب الجوز، وهم يجلسون على ضوء قنديل الزيت ويتحدثون بصوت خفيض، همسًا، كدمدمة الأعشاب المتنامية. عن أي شيء اعتادوا أن يتحدثوا؟ عن أي شيء نتحدث نحن معشر الفقراء؟ هل عانقت إيميتريا أبي ذات يوم كما تعانق الأم ابنها؟ أسمع صوتًا من بين كل الموتى يقول: «لقد كانت الأمور دائمًا على هذه الحال». يُمكنني أن أستمر في العيش هكذا، لكنني أعلم أن النهار سيصبح أقصر في فصل الشتاء وأنني سأفتقد موسيقى الراديو. تنفد البطاريات التي يشحنها لي «إل تشانو» في المتجر سريعًا. كما أن بصري يرهقني من القراءة تحت إضاءة مصباح الغاز القاسية. يمكنني العيش هكذا، لكن عليّ أن أفعل شيئًا ما.

سأرقد الآن لأواصل اجترار ما في داخلي فوق الفراش. أتمنى لإبرا ليلة سعيدة. يتمنى لي نفس الشيء. عليك أن تتذكر إطفاء مصباح الغاز. حسنًا يا أُخْتاه. أصعد إلى الغرفة، وينعكس ظلي الضخم على جدار

السلم.

أفتح عينيَّ. يدخل ضوء النهار الغرفة. تأخر الوقت عن موعد استيقاظي المعتاد. نِمْتُ بصورة متقطعة، لكنني أعرف أن ما حدث ليس حلمًا: لقد تسلَّلَ إبراهيما الليلة الماضية إلى فراشي. لا بد أنه قد اجتاز الظلام كأعمى، لكن مع يقين المتخفي الذي يتشمم الطرق المختصرة، بعد أن تفادى خزانة الملابس ذات المرآة، ودار حول الكومود وبطنه المتكور. أنا معتادة على مواربة الباب، وعلى الرغم من أن نومي خفيف كالنمل، لم أدرك الأمر إلا حينما جذب الغطاء، وانزلق أسفل الملاءات واقترب من ظهري وبدأت يده تستكشف أولًا بطني قبل أن تتحسسها بشك. كنت قادرة على إفلات نفسي، وعلى طرده بركلاتي. أعلم أنه كان ليُطيعني، لكنني تركته يفعل ما يوده. بحث بحسم عن تواطؤ حلمتيّ. لقد جاءت أصابعه، ولسانه وعضلاته، وحرارة جسده كلها لتخدمني. وَدَّ أن أعرف هذا بالتركيز على بُطئه. لحم الإنسان حكيم وله ذاكرته. لقد داعبني، وتجرعني بإصرار، كأن الحياة نفسها كلها قد تركزت هناك، في الأسفل، فتركت نفسي أمضي في طيران منبسط، لكن عقلي ظَلَّ متأهبًا ومشدودًا كقوس على وَشْك إفلات سهم. دخل فيَّ فقط بعد أن وجدني راضية، لكن من دون استمتاع حميمي، إذ صَبَّ تركيزه على تطبيق آلية الجماع بدفعات تسارعت مع مرور الوقت؛ كي يفرغ ما في جعبته بأسرع صورة. لما انتهى، أفلت تنهيدة عكست الراحة والإحباط في الوقت نفسه. نظفني بقميصه، ورحل فورًا إلى غرفة أمي. لم أحْتَج حتى إلى طلب الأمر إليه.

يؤلمني مهبلي. أتحسسه. إنه رطب. إنها دماء. عاد الحيض بعد وقت لم أعرفه. ها هي ذي الأنثى الموجودة داخلي تزدهر. يا له من تناقض! ما كان في شبابي إزعاجًا منزليًّا، أو مدعاة للقلق بسبب تأخُّره، استحال

الآن إلى صرخة؛ إلى انتصار بيولوجي صغير على الزمن؛ إلى لحظة مخطوفة من العدم. أنهض وأبحث بين أدراج الكومود. لا أملك فوطًا صحية، وأكثر شيء لديّ يشبهها هي خراطيش بندقية «ساراسكيتا» عيار اثنا عشر. آخذ منديلًا وأثنيه على شكل مثلث وأضعه في لباسي الداخلي. أعود إلى الفراش. فعلًا؟ لقد لطخت الملاءة أيضًا. إنها بقعة حمراء فوق لونها الأبيض. إنه لون الحياة؛ لون ما يحركها.

ذات مساء، عدتُ ذات مساء إلى المنزل في وقت أبكر من المعتاد، بعدما اضطررت إلى العمل في وردية الصباح في الحانة. ناديته بصوت مرتفع. لم يكن نايجل موجودًا في المرسم. ظننت أنه خرج إلى التمشية. دخلتُ إلى الغرفة لتغيير ملابسي وحينئذ اكتشفتها: بقعة حيض فوق أغطيتي؛ دم مهبل آخر فوق ما ظننته فراشي ومحرابنا. علمتُ آنذاك أن ما بيننا انتهى. وهناك، في نفس المكان، كتبت له خطابًا طويلًا وتركته فوق البقعة. جمعتُ أغراضي، أو ما كان يهمني منها، وكومتها في حقيبتين رياضيتين وذهبت إلى الحانة لأنتظر انتهاء سالي من ورديتها. لم أحدس حينها ما هو آت: لا أنني سأعود إلى المرسم ولا أنني سأسرق أحد الدفاتر التي تركها نايجل في مصفوفة فوق طاولته. ما زلت أحتفظ بهذا الدفتر.

أفتح أدراج الكومود من جديد. ها هو ذا. دفتر سميك غلافه من الورق المقوى الملطخ بآثار دائرية لأقداح. ثمة عنوان على غلافه مكتوب بالحبر الأحمر يقول «flesh and bones» أو «لحم وعظام». تتميز الإنجليزية بربط اللحم بالشهوة. أجلس إلى طرف الفراش. أشعل شمعة. أتفحص من دون منهجية معينة الرسوم الأولية والملاحظات المتحذلقة

حول الألوان. «الأزرق مشتق من الأسود ويثير إحساسًا بالبرد، كما أنه أيضًا يستدعي التظليل. الأزرق يطلب المزيد دائمًا. الأخضر البحري، على النقيض، لون فاخر». راجعت هذا الدفتر عشرات المرات، ومزقتُ معه ألمي وحبي بالذات إلى حد الاشمئزاز. ها هو ذا البحث عن نايجل وعباراته. «تتوهج بشرتك باللون الوردي». اعتاد أن يقول إن الألوان الزهرية والوردية البرتقالية تمنح بشرتي لمعة خاصة. ثمة ملاحظات مؤرَّخة - رغم أن هذا الدفتر ليس بمذكرات - مثل المرة الأولى التي يتحدث فيها عني: «الثالث من أبريل 1989: أنجي، إسبانية، ضئيلة الحجم، بياض فضي مرتفع النسبة. مكثتْ الليلة الماضية للمبيت. كانت تتنفس كحيوان مستثار. لست واثقًا، لكنني أعلم أنها ستعود». قرأت هذه الفقرة وغيرها مرات كثيرة؛ تلك الملاحظات التي كتبها عن عارضات جئن قبلي وأولئك التي جئن ونحن معًا وتناولت خليط الصبغات للوصول إلى درجة لون بشرتهن. «هازل، إنجليزية طبقًا للمواصفات القياسية: الأبيض الزنكاوي، الأحمر القرمزي، البنفسجي الكوبالتي». «أنجالي، أب وأم هندوسيان: الأحمر الكدميومي، الأبيض التيتانيومي، أصفر الأنتيمون، الأخضر الباهت، وأكسيد الكروم». «أوكسانا، جمال سيبيري بارد: الأسود المريخي، الأبيض الفضي، أحمر الرخام السماقي المصري، الأصفر الملكي، ولون أعالي البحار». آنذاك اكتسبت مسألة الجسد ولحمه أهميتها. لم أعرف أن أعمق أشكال الجنس التي استمتعت بها ستصبح معه بعد أن صرت عارضته وسلمت له نفسي كاملة مكتملة. أعرف أيضًا أنه ما من امرأة أخرى قد توغلت إلى نفس العمق الشديد الذي وصلتُ إليه في مغارة ظلاله وأضوائه. تنزلق الصفحات بين أصابعي نحو الأمام ونحو الخلف. «أكتوبر 1990: أدرك أن الكثير من عارضاتي فتيات لديهن فراغ ما في حياتهن، أو ثقب لا يمتلأ إلا بالوقوف أمام فنان ليرسمهن». أستمر في القراءة. إنها تدوينات قصيرة، كخيوط الدخان:

«أنا شيء كشبكة العين. أنا آلة للنظر». «جهد رسم اللوحات يبدو كسكن الكهوف». «**الثور المسلوخ**[32]. متحف اللوفر. أعشق درجات حُمرة اللحم، وزُرقة واصفرار الدهون. سيطيب لي أن أصبح جزارًا ماهرًا، كحال رامبرانت، أو سوتين، أو فرانسيس بيكون». بالنسبة إليّ، فأنا أعجز عن نسيان الرائحة النتنة للحم المتعفن.

ها هي ذي الصور الفورية القديمة موجودةٌ عند نهاية الدفتر وملتصقة بأوراقه. صَوَّر نايجل نهر التيمز في ساعات مختلفة أثناء المَدِّ والجَزْر على مدار أيام متباينة، لكن السنواتِ طمست كُلَّ الصبغات وحوَّلتْها إلى درجة واحدة، لا لمعة فيها؛ لون الطمي الداكن والزمن. لندن هي مستنقع ذاكرتي. لندن هي النهر. لندن هي المياه المُنَوِمة مغناطيسيًّا، لأن ثمة شيئًا مغناطيسيًّا في حركتها التي يصعب على المرء ملاحظتها. شعرت بالفزع. حدث هذا مرات كثيرة، لكنني رغم هذا كنت أعود وأعود إلى ضفتها الغدارة. تتهيج المياه من دون توقف، أسفل سطحها الهادئ ظاهريًّا، وتتشابك التيارات مع كتل الوحل كأذرع تشد وتجذب لتهدد بِجَرِّ كل ما ينزل فيها إلى الأعماق. ثمة تدوينة أخرى موجودة في الصفحات الأخيرة: «22 نوفمبر 1990: البرد فظيع، سبع درجات داخل المرسم. أسمع في الراديو أن الشمطاء تاتشر قد استقالت. عاجز عن التصديق. وداعًا أيتها الساحرة ماجي». ثمة تدوينة أخرى تُلقي مؤشرات أو ربما إنذارات خفية لم يتمكن أحد من التقاطها، سواء تعلق الأمر بأصدقائه أو بي: «أن تكون فنانًا أشبه بسباق المسافات الطويلة، لذا عليك أن تحدد معاييرك. يصل فنانون قلائل إلى النهاية بكرامة. لا تنفد الأفكار، لكنك تكرر نفسك وتنسخ منها إلى أن ينتهي بك المطاف، من دون أن تدرك، محاكاة ساخرة لها». تدوينة أخرى: «لا يُمكنني التوقف عن

---

32- (32) إحدى لوحات رامبرانت. (المترجم).

العمل. أشعر أنني ميت ولا فائدة مني على الإطلاق».

أسمع إبراهيما في المطبخ. أرتدي بنطلون الجينز الذي استخدمته أمس وقميصًا نظيفًا. أنزل السلالم. أعثر عليه جالسًا إلى الطاولة يفطر شريحة خبز مع قطعة من اللحم البارد باقية من الليلة الماضية. صباح الخير. ألاحظ قلقه في السرعة التي يرمش بها. ألف سيجارة وأحضر فنجانًا من القهوة. لا تزال مؤخرة إبريق القهوة ساخنة. أضعها أسفل الماء البارد. أعرف أنه يُراقبني، رغم أنني لا يُمكنني رؤيته، فظهري له وأنا أمام مغسل الأواني. أشعر ببؤبؤيه السوداوين يمضيان فوق ظهري، بداية من عنقي وحتى عُصعُصي، بل ويمكنني حتى أن أخمن ما يفكر فيه. استيقظ كلانا مضطربًا، وإن كان اضطرابه يفوق اضطرابي، لأننا نخمن أن ما حدث بيننا الليلة الماضية قضى على الاتزان الوقتي للبيت وبات يشوشنا بطريقة لا نعرف معها ماهية الرابط الذي يجمع بيننا. صاحبة بيت ومستأجر؟ أُم عشيقة وابن داعر؟ شقيقان ضائعان في زنا المحارم؟ أم سيدة وعبد؟ روبنسونا كروز وجمعة [33] في تحصنهما في جزيرة آكلي اللحوم. بشكل ما، أنا أقدم له المأوى وهو قوته البدنية، رغم أنني لم أفحص بِنية أسنانه كحصان. لن أخدع نفسي. رحمي يجف وما أصففه في شعري هو الشيب أكثر من الشعر الملون، وعلى الرغم من أن حياة الريف ومسيرات التل تحافظ على ليونة جسدي، فأنا أعرف أن إبراهيما لم يدخل غرفتي الليلة الماضية مشتعلًا من فرط الرغبة. لن أخدع نفسي. لحم الجسد الشاب يطلب لحمًا شابًا، لكنه أيضًا لم يَنَمْ معي ليُسدّدَ الإيجار أو ليعرض عليّ متعة لم أطلبها منه. أنا مُعجبةٌ بجسده لكن من دون جزع، كمن يتأمل قطعة رخامية قديمة. على الرغم

33- (33) في إشارة إلى شخصيتي روبنسون كروز وجمعة، حيث أنثت المؤلفة اسم روبنسون وحافظت على الأمر نفسه في الترجمة (المترجم).

من أنني لا أودُّ أحدًا في بيتي، إلا أنني لم أجبره على أي شيء أو ألمِّح حتى إليه بأن وُجودَه يُزعجني منذ طَرَدُوه من «لاس برينياس». دخل إبراهيما بين أغطيتي الليلة الماضية بحثًا عن شيء لن أنجح أبدًا في تقديمه إليه: دفء الأم. أمي نفسها لم تنجح في فعل هذا الأمر.

ذات ليلة دخلَتْ أمي بملابسها إلى فراش أخي لتدفئته. راقبتهما من فتحة الباب، من وراء المدفأة الموجهة نحو الغرفة المفتوحة. ظلَّ جابي يصرخ، مرتعشًا من البرد، ويخمشُ ذراعيه كأنه يود أن ينزع جلده. تعانق ثلاثتهم: جابي، وأمي، وقرد الإدمان المجنون. عدتُ فورًا إلى غرفتي، بعد أن اجتزت الطرقة وسط الظلام الذي اشتعلت فيه نيران مدفأة الغاز بألوان زرقاء وبرتقالية. أغلقتُ الباب وسمعت أمي عبر الجدار الورقي كأنها تحدثني أنا في أذني وهي تقول: «افعل الأمر من أجلي، يا بني، افعله من أجلي. اترك هذه القذارة من أجلي. أنت قادر على هذا». بدا صوت أخي، على النقيض، كهمس حيواني. لم أدرك كم من الوقت استغرقته حتى نمت أو إن كانت الهمسات قد صمتت أصلًا. خلال تلك الفترة، كنت بكماء وغير مرئية بالنسبة إليهما. عاد جابي إلى البيت لمحاولة التوقف عن التعاطي بعد ثلاثة أو أربعة أيام من دفن أبي، بعد أن وصل الخبر إلى شقق المحافظ أو حانة "الفيلقي"، أو على الأرجح حينما استفاق واستجمع الشجاعة الكافية ليأخذ جرعة من الواقعية. جاء بملابسه كما هي. أغلق عينيَّ وأجد نفسي قادرة على رؤيته راقدًا بلباسه الداخلي فوق الحاشية المزهرة التي تفتلت خياطة أطرافها، بنحافته وصدره الممصوص نحو الداخل والهزال الأنيق لمدمني الهيروين، وأمي وهي تغسل بنطلونه وقميصه الأسودين في حوض الغسيل. نظرتُ إليه من عند فتحة الباب من دون أن أتجرأ بشكل كامل على دخول غرفته. قال لي: «لقد كبرتِ كثيرًا. قريبا سينمو

ثدياك»، ثم أخذ يضحك بعدها بابتسامة غير مكتملة. كان كاحلا جابي وقدماه منتفخة بالماء المتراكم. لم يحقن نفسه بالهيروين الذي جاء الحي كالمَنّ القذر، وإنما كان يستنشقه أو يُسخنه فوق ورقة ألمونيوم، وهو ما يسميه الإنجليز «chasing the dragón» أو «مطاردة التنين». هذا هو الوحش الذي أحرقه في النهاية. أعرف جيدًا أن جابي قد حاول التوقف مُعتمدًا على العقارات المنومة، وشرب الماء كثيرًا، وإدخال الطعام في معدته غصبًا. توقفت أمي عن تنظيف البيوت فترة لمراقبته. اعتادت أن تبقى ملتصقة بالنافذة حينما ينزل في الصباح الباكر ليُمَشِّي ساقيه ويقطع الشارع غير المُعَبَّد من أعلى لأسفل مرتين، قبل أن يدخل إلى حانة الجاليثية لتناول قهوة بالحليب الساخن، ثم يصعد فورًا من دون أن يغامر بالذهاب إلى ما هو أبعد من هذا أو بالتوجه إلى حانة "الفيلقي"، خوفًا من انتكاسته. كانت أمي تسدد ثمن سجائره، وتشتري له الويسكي الرخيص. لا أعرف كم يومًا وليلة قضاها معنا. أتذكر صباحًا واحدًا فقط حين أفرغ جابي محفظة أمي وأظْرُفَها ورحل. أخذ أيضًا سلاسلها الذهبية. الوحيدة التي كانت لديها.

ترتفع القهوة. أصُبُّ لنفسي كوبا وأجلس أمام إبراهيما. في النهاية، أنا لا أعرف شيئًا عنه. لا يعرف أحد شيئًا عن أحد. هل ترك في السنغال زوجة وأبناء؟ يؤكد أنه لم يفعل هذا. هل ينتظره أحد؟ أتفحَّصه بعناية. خداه العظميان، وأنفه المستقيم، ومنخراه، وقزحيتاه بلون السَّبَج، ويداه اللتان لمستاني أمس. يرتدي قميص النقابة الزراعية ويبدو واسعًا عليه. أحدق إليه، لكنني لا أتمكن من إجباره على النظر إليّ. حين يفعلها في النهاية يقول لي:

- هل تودين أن أرحل يا أنجي؟

- أنا لم أقل هذا.

- أفترض أن اللحظة قد حانت.

بشكل ما، انتظرت هذا الأمر قبل الليلة الماضية أصلًا. لن يشق عليه العثور على عمل، حتى ولو بأوراق شخص آخر. ما من أحد يتزمَّت في الأعمال المرهقة. مفتشو العمل؟ نسخر هنا من هذه المسألة. كل ما يأتي هنا لزيارتنا هي الرياح. ينهض إبرا من على المائدة ببطء. يأخذ القبعة ويستعد لبدء يوميته في بيت المستنقع.

- افعل ما يجب عليك أن تفعله يا إبرا. أنتَ أدْرَى، لكن لو أنك سترحل، سأطلب إليك قبلها أن تساعدني في بعض المسائل. أنت تفهم في الآلات، أليس كذلك؟

- أي آلات؟

- قلتَ لي إنك كنت لحَّامًا في بلادك.

- صحيح.

- هل يُمكنك أن تصلح مولدًا كهربائيًّا؟

- يمكنني أن أحاول. يداي ماهرتان وأنا صبور. من أين ستأتين به؟

- روداليس لديه مُولِّد متروك في الطاحونة، وهو على الأرجح من ممتلكات المصنع القديم. لم يعد يستخدمه. سأجْري معه مقايضة. حاشية فراش أحد الأسِرَّة العلوية ومناشف ومفرش وبعض زجاجات النبيذ. سنرى ما سيطلبه. لن أرفض.

لا يمكننا أن نستمِرَّ على هذه الحال. هذا هو ما أفكر فيه، لكنني لا

أقوله، وإنما:

- نحتاج فقط إلى تحميله فوق سيارة. إن لم تنجح في تبيُّن الأمر، يمكن أن يُلقي ماجانيا صاحب ورشة الصاج نظرة عليه.

ينظر إبرا إليّ بابتسامة مندهشة:

- هل ستتحدثين مع ماجانيا بعد كل ما حدث؟

ليس لدي خيارات أخرى.

- نعم. هذا المساء، بعد انتهائك من العمل في بيت «الدباغين»، اذهب إلى حانة توماس. سأنتظرك.

# الكلبة كورا

تتردد أغنية «ذا كينكس» عبر مكبرات الصوت.

ستظل كلماتها تتبرعم في أعماق رأسي، حتى لو مَرَّ عليها مليونُ عام، كأنني سمعتها أمس في مطبخ الحانة عبر الراديو وأنا أدعك الأطباق؛ أو عبر الـ«ووكمان» وأنا مغمضة العينين ورقبتي مستندة إلى زجاج نافذة المترو، خلال الساعة والربع التي اعتدت أن أمضيها تحت الأرض في طريق عودتي إلى مرسم بيرموندسي عند الطرف الأخر من المدينة والطرف الآخر للنهر. «mind the gap». **انتبه إلى الفراغ** [34]. أجل. أنا أتذكَّر كلمات الأغنية جيدًا: «هناك شرخ في السقف والماء يتسرب من حوض الغسيل. ليس لديّ عمل أو مال. شوائي ليوم الأحد قطعة خبز بالعسل. لأي سبب نعيش؟». اسم الأغنية هو «الشارع المسدود». ها أنا ذي هنا بالضبط، عن بداية الحارة المسدودة التي يرغبون في دفعي إليها. **انتبهي إلى الفراغ**. يضعون مسدسًا في يدي كي أضغط بنفسي على الزناد. يسعون إلى أن أربط العقدة وأضبطها على مقاس عنقي. يودون أن يجعلوا مني مادة للنميمة في الحانة. «أوه. نعم. أنخيلا. ابنة عائلة ماروتو، التي عاشت وحيدة في "إل أتشويلو"، في بيت ضخم. ألا تتذكرونها؟ كانت عمتها بلهاء وهي أيضًا أصابها الجنون. في النهاية شنقت نفسها أعلى التل، عند نفس الشجرة التي شنق فيها سيد "لاس بريناس" نفسه. يقولون إنها ذهبت عند نفس الشجرة وشنقت نفسها عارية، إلا من حذائها. عثروا عليها بعد أربعة أو خمسة أيام وملابسها

---

34- (34) تتردد عبارة «mind the gap» أو «انتبه إلى الفراغ» بصورة آلية مع كل قطار جديد يصل إلى محطات مترو لندن لتحذير الركاب من خطر السقوط في الفراغ القائم بين القطار والرصيف. وردت العبارة مكتوبة في هذه الجملة مرة بالإنجليزية ومرة بالإسبانية، فأوردتها في الترجمة مكتوبة مرة بالإنجليزية وأخرى بالعربية بالطبع للحفاظ على روح النص الأصلي. (المترجم).

مكومة تحتها. إنها مأساة تحدث عنها الجميع. إنها الوَحْدَة. هكذا تمضي الأمور: ينادي موتى المشنقة على بعضهم بعضًا». يتحدثون ويتحدثون ويتحدثون، لكنهم لا يعرفون شيئًا. يجهلون أنني بِتُّ بعيدة عن مرماهم.

تفلتْ مني ضحكة. ما زلتُ قادرة على الضحك. ينظر إليّ توماس بطرف عينيه، مندهشًا نوعًا ما من ابتسامتي التي جاءت من دون مزحة، وعلى الفور ترتسم إيماءة تعاطف بين شاربه ولحيته. توماس رجل هادئ. يملأ لنفسه الآن قليلًا من الجعَّة عبر الصنبور. إنها نحو السادسة مساء وما من روح واحدة موجودة، لا في الشارع ولا الحانة. لا يزال الجو حارًا. اضطررت إلى النزول إلى الضيعة بمظلة أمي السوداء لكيلا تحرق الشمس رأسي.

يصُبُّ لي توماس كأسًا من النبيذ قائلًا: «على حساب المحل». لا أعرف كيف هي أحوال حساباته، لكنه يأتي ليجلس إلى جواري، عند جانبي من المشرب. أندهش من النظر إلى حذائه. لا يمكنني تفادي الأمر. إنه أسود وينتهي بطرف مدبب، كحذاء رعاة البقر الجبليين. يجلس بساقين مفتوحتين، معلقًا كعبيه على المسند السفلي للمقعد.

- إذن.. كيف هي الأحوال هناك في الأعلى؟

إنه مجرد سؤال أجوف لتمهيد الطريق. لا بُد أن المائة جار باتوا يعرفون بالفعل أنهم يسعون إلى طردي، وأنهم قطعوا أشجار اللوز، وأنني أصررت على أخذ الحطب لأنه ملكي، وأنهم نزعوا وصلة المُحوِّل من دون إنذار وإنني أعيش مع إبرا منذ ذلك الحين وسط العتمة، كالمتوحشين في أزمنة الكهوف.

أقول وأنا أرفع كتفيَّ:

- الأحوال تمضي وهذا أصلًا أمر زائد عن الحد.

لن يخرجوني من بيتي إلا على جثتي. أفكر في هذا الأمر، لكنني لا أقوله. ينظر توماس إلى ساعة الحائط القديمة ذات البندول التي لا بُد أنه أنزلها من غرفة الطعام، ثم يقول:

- ماجانيا شارف على الوصول. إنها ساعتك.

- لست في عجلة من أمري على الإطلاق.

أُفضل أن أنتظره هنا على الذهاب إلى ورشته؛ لأنه ربما يتخذ وضعية دفاعية. أتعرق فأهوِّي لنفسي بصحيفة صادرة منذ أسبوع كان توماس يقرأها حين دخلت. لم أر سباستيان ماجانيا منذ يوم الحد الفاصل، ولم أعد إلى الحانة منذ فترة. الانفصال عن العالم سهل، سهل جدًا.

أسمع همس الستارة المعدني. ألتفت، لكنه ليس الميكانيكي، وإنما إبرا. ينحني عند عتبة الباب لمداعبة رأس الكلبة. نعم. إنها كلبة روداليس. أتعرَّف عليها بسبب اللطخة الموجودة عند فكها وأنفها عديم اللون. يدخل إبراهيما في النهاية. يأتي مكسوًا بالتراب والغبش، ومعه حقيبة بلاستيكية كبيرة يطل من فتحتها رغيف خبز. يخلع قبعته وينشف عرق جبهته. تصلني رائحته اللاذعة بعض الشيء التي تبدو كالبرقوق المجفف. تروقني. ما زلت أميز أثرها فوق لحمي بعد أن تحممت. يرمش. نظرته متملصة أكثر من الليلة الفائتة. يقول إنه مَرَّ على متجر «إل تشانو»، حيث اشترى نصف دستة شموع وغطاء مطرزًا جديدًا لمصباح الغاز، وإنه أخذ البطاريات بعد شحنها كما طلبت إليه.

يترك الحقيبة على الأرض ويجلس إلى جواري، فوق مقعد توماس، الذي عاد إلى مكانه، وراء المشرب. تتغير الموسيقى. يُشغل زعيم الجلسة ألبومًا قديمًا للـ«بيتلز»، الألبوم الوحيد لديه.

يناول توماس إبراهيما عبوة الكوكا-كولا التي طلبها إليه من دون كوب، كما أوصى، ويسأله:

- وأنت يا فتى؟ متى سترحل؟

يا للسرعة يا رجل! تتنقل الأنباء الآن راكضة كالأرانب الجبلية. لماذا لم يخبرني بالأمر قبل ذلك؟ منذ متى والأسمر يفكر في الرحيل؟ الأسرار لا وجود لها هنا، إذ يدرك الجميع كل شيء قبل حدوثه. على الأرجح يعرفون أصلًا في القرى المجاورة أن إبراهيما سيرحل. ما هي أسبابه؟ هل يتهامس هو الآخر من وراء ظهري؟ ما الذي يقوله لهم؟ ربما يتحدث معهم عن حياتي الزاهدة ومسيراتي نحو التل، ويشرح لهم أنني لا أنام وأخرج إلى الأرض البائرة في منتصف الليل وأحتفظ في غرفتي بأرمدة أبي، وأتحدث مع نفسي، وأتطهر كما الحيوانات، وأن ملابسي التحتية الموجودة فوق المنشر قديمة وفيها صَمْغَة، وأنني في حاجة إلى رجل. لا بُدَّ وأنه يحكي لهم كل ما يتخيل أنني أفعله حينما لا يراني أحد. سأتسلى على الأرجح بالاستماع إليه. لم يعد ثمَّة شيء ليربكني. ليتحدثوا!

يجيب إبراهيما منزعجًا، من دون أن ينظر إليّ:

- سأرحل في غضون خمسة عشر يومًا. في الوقت الحالي، يفترض أنني سأمكث في شقة في العاصمة يعيش فيها أحد أبناء قريتي الذي يعرف قريبًا لي، ومن هناك سننطلق شمالًا على متن حافلة نحو فاكهة إقليم آراجون. سنجد عملًا بالتأكيد إما في الحصاد أو في التعليب.

يقول توماس:

- سترى فعلًا كيف سيحدث كل ما تقوله يا رجل.

سترى فعلًا. رويدًا رويدًا. صبرًا... الجمل المريحة التي تعلموا التحصُّن خلفها لكيلا يتلطخوا بخراء الآخرين. تتردد الآن أغنية «إليانور ريجبي». نحن هنا لا نأخذ حبوب الأرز من أمام باب الكنيسة لطهيها لاحقًا. نحن هنا ليس لدينا حفلات زفاف.

يضع إبراهيما يديه فوق فخذيه ويمُدُّ عوده ناظرًا نحو عوارض السقف:

- ربما سأعود شتاء.

ينظر بعدها إليّ متفقدًا ردَّ فعلي.

سيعود. أعرف أنه سيعود يومًا ما. «Ah, look at all the lonely people»، أو «آه. انظر إلى كل هؤلاء الأشخاص الوحيدين» [35]. من أين أتوا؟ أي مكان ينتمون إليه؟ حرَّكت الكلبة الستارة بذيلها. تشرب الآن بتلذذ من الإناء الموضوع عند قدميها.

- قل لي.. ورودااليس، أين هو؟

ينظر إليّ توماس متعجبًا. يدهس بعدها عقب سيجارته في مطفأة السجائر بعين متجهمة، فقد دخل بعض الدخان إلى قنواته الدمعية.

يقول:

35- (35) مقطع من أغنية «اليانور ريجبي» للـ«بيتلز». وردت العبارة في النص الإسباني مكتوبة مرة بالانجليزية ومرة بالإسبانية. (المترجم).

- لكن.. ألم تعرفوا؟

- هل مات؟

- أودعوه في الجمعية الخيرية.

يسب إبراهيما:

- خراء كبير عليهم! [36]

سيقتلونه. العجوز السكير... لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا كي يتآكل داخل هذا التابوت بجدرانه شديدة البياض. هو وخاكوبا الوحيدان اللذان يعرفان حقيقتي، وكلاهما محبوس في نفس المكان. إنهم يسعون لمحوهما وتضييق الخناق عليَّ.

- ما يُعرف هو أن الأب أندريس ذهب ليوصل شيئًا له في الطاحونة، لكنه عثر عليه ملقى وسط الطريق، فاقدًا وعيه.

يستند توماس بكوعه إلى المشرب ويفرك صدغيه ثم يواصل:

- انهار كلُّ شيء فوق رأسه. اتصل صديقك القسُّ بالخدمات الاجتماعية أو أيًّا كان اسمها وقرروا إيداعه هناك.

- والكلبة؟ ما الذي تفعله هنا؟

يومئ توماس برأسه:

- هذا هو أغرب شيء: لقد جاء روداليس في المساء السابق وتناول بعض النبيذ، ثم ربطها في الحلقة. قال «احتفظ بها لبعض الوقت. أنا

---

36- (36) وردت في النص الإسباني مكتوبة بالفرنسية. (المترجم).

ذاهب لقضاء مصلحة»، وها أنت ترين. ما زلت أنتظره.

- أتعجَّب من نسيانه.

- وأنا أيضًا. أظن أن العجوز كان يشعر باقتراب المسألة، ولهذا تركها لي. كان يعلم أنه حين يُوضع في القفص، سينتهي المطاف بها في ملجأ للكلاب، أو ربما ما هو أسوأ من هذا: قتلها.

- المسكينة.

يشير توماس نحو الباب بطرف ذقنه:

- هل تودين أن تكون لكِ؟

أنظر إليها من دون إجابة.

- يمكنك أن تحصلي عليها. أمي لا توَدُّ أي وجود للكلاب في الأعلى. أتركها هنا ليلًا بعد إطفاء الأنوار. فرشت لها ملاءة قديمة وراء المشرب.

- توقف، توقف. لديّ ما يكفيني مع كلبيّ.

أقفز من فوق المقعد وأخرج إلى الشارع. أُقرفص. أهلا يا «كورّا». تركَكِ صاحبُكِ هنا، أليس كذلك؟ تتشمم الكلبة يديّ وحذائي وتهز ذيلها عديم الشعر بحماس. هل تعرفتِ عليّ؟ هل تتذكرينني؟ آه فعلًا؟ إنها قذرة ولن أتعجب إن كان فيها براغيث من الطاحونة. لا أعتقد أن روداليس حَمَّاها سوى بتغطيسها في مياه النهر. لا بد من حلق فرائها أيضًا. وهذا الطوق البلاستيكي، ألا يخنقك؟ إنها أنحف وأيتم من «القبطانة»، لكن كلتيهما تمتلك نفس العينين الجائعتين. مَن الفاسق الذي ركب أمك؟ قولي لي. من هو يا ترى لتولدي كستنائية وضئيلة الحجم بهذه الصورة؟ هكذا، يا جميلة، اهدئي. فتاة مطيعة. أنهض وأفرد ظهري،

ثم أنظر نحو مدخل الزقاق، وأجد سباستيان ماجانيا هناك بمبذلته الزرقاء المصنوعة من نسيج الـ«نانكينج». حين يتعرف عليّ، يتوقف فجأة، ويبدو أنه سيعود أدراجه، لكن دميان حفار القبور، الذي جاء في صحبته، يُوقفه من ذراعه. يتحدثان بينهما وينظران إليّ، ثم يتحدثان من جديد. يستأنفان خطواتهما ويقتربان. أنتظرهما عند الباب من دون أن أتوقف عن النظر إليهما. لا يزال ماجانيا يحتفظ بشعره الكثيف. لا يظهر الشيب كثيرًا في رأسه مقارنة بعمره. إنه نحيف وأسمر وخفيف. يداه ماهرتان. لم يرثهما ابناه ولم يودَّا الاستمرار في صنعته، فرحلا عن الضيعة. يكسر ماجانيا ظهره في العمل. لا يرفض أي شيء أبدًا. إنه رجل أمين وكثير المشاكل في نفس الوقت.

أنظر إلى عينيه الصغيرتين شديدتي السواد، وهالاته السوداء البارزة. لا بد أنه يفكر: «كان على هذه المرأة أن تظهر لتعكر عليّ مزاج شرب النبيذ».

- لماذا فعلتها؟

- كنتِ تنتظرينني على ما يبدو.

- على الأقل، كان بإمكانك أن تخبرني أنك ستقطع الكهرباء.

يتكاثف الغضب داخلي من جديد بفعل الازدراء. لماذا لم يحذرني؟ لقد انكسرت يدايَّ من إخراج الماء من البئر.

- كم عامًا مر على تعارفنا يا سباستيان؟

- لم يكن لي صلة بالأمر، سواء صدقتِ الأمر أم لم تصدقيه.

يتدخل دميان، دافعًا كاينا من ظهرينا بنعومة:

- حسنًا، حسنًا، هيا بنا. تحدثا في الداخل عما تودان أن تتحدثا عنه.

نجلس في الداخل، في ركن اجتماعاتنا، بين الأريكة الملتصقة بالحائط والمقاعد القصيرة. ينضم إبراهيما إلى جوقتنا. أراقب يديّ ماجانا المتسختين بدهون الآلات مهما غسلهما. يُقسم أنه لم يُكلَّف بقطع الكابلات من مُحوِّل الكهرباء، وأنها على الأرجح شركة الكهرباء أو فنيٌّ آخر جاؤوا به من العاصمة. لا أعرف إذا ما كان عليّ تصديقه أم لا، لكن على أي حال: ما هو معنى أن يكذب عليّ؟ لو أن التوأمتين كَلَّفَتاه بالمسألة، كيف له أن يرفض؟ بأي حجة؟

- لا بد أنهما تودَّان تقوية هجومهما من أجل الشيء الملعون الذي تعملان عليه.

- هل تعرف شيئًا آخر؟

- ديونيسيو يسمع شيئًا من هنا وشيئًا من هناك، لكن الأمر لم يتضح له بعد. المسكين يشعر بالقلق. قلت له إن الحياة هكذا: يوم على القمة لتوزع الأرزاق في «لاس برينياس»، وفي اليوم الثاني يلقونك في الأسفل، عند جدول الماء.

يداعب ماجانيا جلد ذقنه:

- مسألة الفندق. مسألة الشاليهات. مسألة مقلع الحجارة.. مسألة أن الخلدونتين تسعيان إلى التخلُّص من المزرعة بالكامل. إنهما في حاجة إلى سيولة مالية بين أيديهما.

- وأنتم لا تبالون بالأمر؟

يطفو سؤالي في الهواء. يرفع ماجانيا كتفية ويتجعد وجهه. يضحك

حَفَّار القبور، فعمله لا يضطرب مع التغييرات. يبتسم إبراهيما كأحمق. يراقب توماس المشهد من عند المشرب، كأن الأمر لا يخُصُّه. عليّ أن أقاوم بمفردي، وهذا هو ما سأفعله. سأجعل مُولِّد روداليس يعمل لكيلا أعيش حياة متوحشة، ولأستمر في ريِّ البستان الذي أعتمد عليه. سأحاول إقناع ماجانيا بمساعدتي.

- حسنًا. سألقي عليه نظرة.

- لكن ليس لديّ ما قد أدفعه لك.

للحظة، أرى لمعة لطيفة تبرق في عيني الميكانيكي:

- لا توجد مشكلة. إيميتريا قضت على جوع أهلي في الأزمنة السيئة.

يقول حفَّار القبور:

- إيميتريا كانت روحًا طيبة. لطالما أهدتني الزيت، كلما فاض منكم.

يتراجع ماجانيا:

- لكن.. ثمة مالك للمُولِّد.

لا تكن مزعجًا يا سباستيان. المُولِّد مليء بالخراء وأقدم من مرض السعال نفسه.

- لا تزُجِّي بي في مشكلات داعرة. لا أودُّ أن يراني أحد أتجَوَّلُ حول الطاحونة. حينما يصبح لديكِ المُولِّد في «إل أتشويلو»، سأصعد لرؤيتك.

يتجرّع ماجانيا رشفة من النبيذ ويضيف:

- وعليكِ أن تسرعي. لقد سمع ديونيسيو أنهم سيبدؤون في هدم مصنع الطحين بالكامل، مع أجنحته ومستودعاته.

هذه هي المشكلة: كيفية جَرِّ هذا الشيء الثقيل إلى البيت. أتذكر أنه على الأرجح مزوَّد بإطارات، لكنني لست متأكدة. فوق كل هذا، عليّ أن أسارع وأفعل الأمر. أفكر في القسِّ، وفي إبريق قهوة أندريس. لا أعرف أحدًا لديه سيارة ومستعد لمساعدتي سوى أندريس. أطلب إلى توماس أن يتصل بهاتفه الآن.

- المولدات تستهلك بنزينًا كثيرًا يا أنخيلا.

- حينها سأجد حلًّا.

يقترب توماس ويجلس إلى جوارنا. لقد صَبَّ لنفسه جعَّة أخرى. لديه هو الآخر سيارة متهالكة، لكنه لا يعرض شيئًا عليّ، فتوماس رخو نوعًا ما.

- لا شيء. القسُّ لا يجيب على الهاتف.

يضع إبراهيما يده فوق فخذي. أشعر بدفئها عبر نسيج البنطلون. يُريحني ملمسها.

يقول:

- لا تقلقي يا أنجي. سنجد حلًّا ما.

# عيد الخبز

لم تنتصف الظهيرة بعد، ورغم المنديل الأبيض المعقود حول رقبتي، تضرب الشمس جمجمتي كالرصاص. صعد أغلبنا سيرًا على الأقدام. مَن فعلوها بالسيارة أو فوق بغل أو حصان تركوها عند الدرب في الأسفل، في حماية ظلال أشجار السنديان الساخنة. يسطع الضوء بقوة شديدة فوق جدران المزار المُجَصَّصَة إلى درجة تدفعني إلى تضييق عينيَّ. وصلت إلى طرف الربوة عند انتهاء الاحتفال تقريبًا. لكن لأنني سرت كالأفعى بين حلقات الحُجاج تمكنت من الوصول إلى الصف الأول عند باب الصومعة، التي لولا المحراب الواقع أسفل سقفها المُسنم، لبدت كوخًا لأحد الرعاة من فرط طابعها المتواضع. وَفقًا لما سمعته أثناء الطريق، لا يُفتح المزار إلا في جمعة الصوم الأربعيني، وفي عيد راعيته، أي اليوم. أنفصل عن كل هؤلاء القوم. عشر خطوات، اثنتا عشرة خطوة: عدد الخطوات الكافية كي يلاحظ القسُّ وجودي. يُقدَّر الموجودون بنحو مائتي شخص تقريبًا بين أهالي «إل سالوبرال» وزوار من قرى المنطقة. لم أرَ من ضيعتي سوى أخت «إل تشانو»، لكن أعتقد أنها لم تتعرف عليّ. يحمل بعضهم صلبانًا ورايات. لم أحصِ سوى مجموعة قليلة من الأطفال. في نهاية المطاف الاستمرار في الاحتفال بعيد الخبز سنة تلو الأخرى معجزة في حد ذاته، مع انخفاض عدد السكان بالإضافة إلى الوحدة والبؤس وكل الأمور التي طردت أبناء هذه الأرض منها كما تعصف الرياح بالبذور السيئة. يبدو أنه رآني الآن فعلًا. ها أنا ذي، أبانا أندريس، قد جئت بحثًا عنك، لأنك مختبئ. يرتدي لفَاعًا أبيض طُبع صليب ذهبي على جانبه فوق ملابسه المدنية: بنطلون جينز وقميص مضلع أخضر. طال شعره كثيرًا عن آخر مرة رأيته. لطالما أعجبني شعر أندريس، بخصلاته القوية والمموجة. يعلن عن قراءة إحدى آيات

سفرِ التثنية قبل تقديم القربان. أسمعه يقول «لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ آتٍ بِكَ إِلَى أَرْضٍ جَيِّدَةٍ. أَرْضِ أَنْهَارٍ مِنْ عُيُونٍ، وَغِمَارٍ تَنْبَعُ فِي الْبِقَاعِ وَالْجِبَالِ. أَرْضِ حِنْطَةٍ وَشَعِيرٍ وَكَرْمٍ وَتِينٍ وَرُمَّانٍ. أَرْضِ زَيْتُونِ زَيْتٍ، وَعَسَلٍ. أَرْضٌ لَيْسَ بِالْمَسْكَنَةِ تَأْكُلُ فِيهَا خُبْزًا، وَلاَ يُعْوِزُكَ فِيهَا شَيْءٌ. أَرْضٌ حِجَارَتُهَا حَدِيدٌ، وَمِنْ جِبَالِهَا تَحْفُرُ نُحَاسًا». كذب! لم أصدق قصصكم قط. الذنب ليس ذنبَ الأرض. لقد حُرم آباؤنا وآباء آبائنا من كل شيء بمباركتكم. لقد عاشوا في العَوَز، ولم يُسمح لهم حتى بالاستفادة من معادنها.

يصُبُّ القسُّ الآن ماء من زجاجة فوق مِرَشَّة المياه المقدسة المخلوطة بإكليل الجبل التي يمكسها بيده الأخرى، ثم يبارك الخبز الموضوع عند قدميه في صناديق بلاستيكية. إنها ثلاثة صناديق طويلة ذات قضبان صغيرة. أقف في الصف. ها هو ذا المعنى العميق لتوزيع الخبز. يقولون إنه فيما مضى كانوا يوزعونه على أشدِّ الناس عوزًا. أي مجاعات علمانية وأوبئة وطواعين وجوائح وظلم لم يستفدْ منها هذا الطقس الذي يتكرر كل صيف! شهر أغسطس: الأرض والقمح البعيدين بعد انتهاء موسم الدراسة والجهد المبذول فيهما. نصطَفُّ ببطء لتأخذ كل عائلة رغيفًا. يحمل بعض الحجاج فروع المارجريتا وزهورًا بريَّة يضعونها لاحقًا داخل الكنيسة الصغيرة: زهور الدِّفلي والبروق الأبيض والوزال الفواح والقنطريون العنبري. لقد علَّمتني أُمِّي التمييزَ بينها عبر أسمائها. في النهاية يأتي دوري. يُحييني القسُّ. آخذُ رغيفي وبنظرة سريعة نفهم بعضنا: عليّ أن أنتظره.

تستغرقُ عيناي اللتان عمتهما الشمس وقتًا للاعتياد على العَتَمَة الجزئية. هنا، في الداخل، الهواء أيضًا رائحته كالليف، لكنني على الأقل في مأمن من النار المستعرة. الصومعة صغيرة وجميلة في تجرُّدها. عوارض السقف غير مصقولة ومطليّة بالجير، وثمة صورة للعذراء فوق

رفٌّ بين قنديلين، ومائدة مغطاة ببلاستيك شفاف، وخمسة آرائك كَنَسِيَّة فقط لأنها لا تتسع لما هو أكثر من هذا العدد. أجلس منتظرة إلى أقربها من الباب. أعتقد أنني لم أفعل شيئًا آخر في حياتي سوى الانتظار. لِمَ يهرب القسُّ مني؟ لَم يُعاوِد الاتصال بتوماس. هل صحيح ما يحكونه؟ لم تخطِ قدماه فوق أرض الضيعة منذ عشرين يومًا.

تركع ابنة الرعية الوحيدة الباقية داخل الكنيسة الصغيرة أمام الصورة، وترسم الصليب ثم تخرج. أنظر إلى طرفيّ حذائي ذي الأربطة المكسوين بغبار ناعم كمسحوق التلك. أشرب بعض الماء من حقيبتي. أطل من الباب الموارب. يبدأ الحجاج بالفعل عودتهم. يصف أندريس الصناديق الثلاثة. ثمة خبز باق. يُنشف أندريس عرق جبهته ببطن كوعه. ينظر حوله. ها هو ذا آت. يقترب مطأطئ الرأس ويجتاز الباب:

- هل حدث لك شيء يا أندريس؟

يتنهد ويجلس إلى الأريكة بصورة سيئة:

- عليكِ أن تسألي: أي شيء لم يحدث لك!

أجلس إلى الأريكة الواقعة خلفه.

- يقولون في الضيعة إنك سترحل.

يُمرر أندريس يده فوق طرف ذقنه وحلقه، ويجذب جلده نحو الأسفل، ثم يُميل برأسه إلى الخلف:

- الأصح أنهم سيطردونني. أرسلوني إلى الشمال، بعيدًا جدًا عن هذه المنطقة المنعزلة. لقد نفوني.

لا أعرف إن كنت أفهم ما أسمعه الآن.

يقول:

- إنهم يروننا معًا كثيرًا.

- حسنًا. لم يحدث هذا في الأيام الأخيرة. أحاول منذ أكثر من أسبوعين التواصل معك.

يشيح القسُّ ببصره. إنه يعرف. بالطبع يعرف، فقد وصل بي الأمر إلى ترك رسالة له مع الواهفة تيودورا ولم أتلقَ ردًّا.

- كنت في حاجة إلى أن تعيرني السيارة.

- ألفوا مسألة أننا نتحامق معًا. ثمة مَن قال إننا خليلان وإنني رافقتك إلى العاصمة.

- هل رأونا؟

- أفترض هذا. يقولون إنني أخذتك هناك لأجهضك.

- منك؟

- مني أو من الأسمر. أي فارق ملعون قد يصنعه الأمر! المشكلة أنني وفقًا لهذه القصة قد رافقتك إلى العيادة رغم كوني قسًّا. هذا بخلاف أنك أيضًا ارتحتِ في منزلي.

تولد من داخل أحشائي قهقهة بعلو الصوت، إلى درجة أنني أعتذر منه. يحاول القسُّ الابتسام، لكن ترتسم إيماءة مُرَّة عند مقرن شفتيه. يقول إن عليّ أن أهدأ وألا ألقي بالًا. أنا لست السبب، لو نفوه، وإنما الشكاوى التي وصلت إلى الأسقفية بسبب عظاته. لا يتسامحون مع أن يتحدث فوق المنابر عن المظالم واحترام المثليين، بخلاف هجومه على

القساوسة الذين يشتهون الأطفال ومن يتسترون على أفعالهم. يرغبون أن يقتصر كلامه على الأرثوذكسية والإحسان وأن يتخلى عما يسمونه بالمكائد السياسية. لا يروقهم أيضًا أن يجلس مع مَن هم أصغر منه سنًّا في حانات القرى وأن يشرب معهم إلى وقت متأخر، كما يحدث أحيانًا. سيغادر بعد غد. جهَّز متاعه بالفعل. ينظر أندريس إلى ساعة معصمه. يقول لي، واضعًا يديه فوق فخذيه، وظهره مستقيم، بصورة توحي بنهوضه، إنه لا يزال يتبقى له تعميد في «لاس فراجواس»، وإنه يمكنه أن يوصلني بالسيارة حتى تقاطع الضيعة لو أن هذه هي رغبتي. أقبل. أتساءل أين كان هو وسيارته في يوم المُولّد الملحمي، لكنني أصمت.

آخذ الصندوقين الفارغين ويأخذ هو الثالث بخبزه الفائض. نسير نحو الأسفل في صمت. يُسمع فقط صوت خطواتنا وصخب حشرات الزيز أسفل الشمس المستعرة. «بيجو» القسِّ هي السيارة الوحيدة الموجودة في الساحة. نحشر الصناديق قدر استطاعتنا بين صندوق السيارة والمقعد الخلفي المائل. أجلس في الأمام، في فم الجحيم. ملمس درج السيارة يحرق. أفتح النافذة بسرعة وعنف بلف ذراع تدويرها. نمضي فوق المطبات وغبار الطريق.

- لماذا لا تترك الأمر؟

يحدق أندريس إليّ بثبات، ويداه تُمسكان بالمقود كأنه يمسك بلجام جواد أصيل:

- الكهنوتية؟ وأنا في عمر السابعة والخمسين؟ أنت لا تدرين ما تتحدثين عنه.

أخمن إلى أين ستمضي المحادثة، ورغم ذلك أقول:

- أنا لا أبيع حُريتي.

تسقط العبارة فوقنا كناقوس زجاجي يخلو من الهواء.

- يدفعون لي سبعمائة يورو بخلاف بدلات الانتقال. أما الإقامة فَمَجَّانية.

لا يروقني أن نمضي عبر هذا المسار. تخرج نصف دستة من أبناء الرعية من وراء أحد المنعطفات وهم يعودون أدراجهم مع عُصيهم. يضغط أندريس بوق السيارة بهدوء. يودعونه بأيديهم. يرُدُّ لهم التحية عبر المرآة الأمامية، حيث لا تزال سلسلة مفاتيح سان كريستوبال تتأرجح.

- وأنتِ؟ ما الذي ستفعلينه؟

خدعة جيدة يا قسِّي الصغير. كنت في انتظارها:

- العيش والمقاومة.

لستُ في حاجة إلى التفكير كثيرًا للرد عليه. لا يمكنني ولا أرغب في فعل شيء آخر:

- عليهم أن ينتزعوني نزعًا كبصلة من أرض «إل أتشويلو».

- ارحلي. خُذي المال الذي عرضوه عليك وارحلي. ستكون حالك أفضل في العاصمة أو في أي مدينة كانت. لا تزال صحَّتك جيدة، لكن بعد بضع سنوات، لن يكون الأمر سهلًا.

يتوقف القسُّ، منتظرًا أن تجد العقلانية بمفردها طريقًا لتمضي فيه داخل رأسي، ثم يضيف بعدها:

- يمكنني أن أرى لو أن بإمكاني تقديم يد عون لكِ عبر رئاسة إقليم الرُّهبانية. في العاصمة، ثمة شقق مشتركة لنساء يُمكن..

- كُل خراء يا أندريس. أنت لم تفهمني على الإطلاق.

نمضي في طريقنا بضعة كيلومترات، وكل منا منغمس في أموره. كل ما أفكر فيه هو الوصول إلى البيت.

أقول:

- آسفة. لم يكن عليَّ التحدث بهذه الصورة. أنت لا تستحق هذا.

- لا توجد مشكلة يا امرأة. كلانا يمر بلحظة صعبة.

تظهر أول بيوت الضيعة ولافتة محطة البنزين. يحيد أندريس عن الطريق الرئيسي، بعد أمتار قليلة من التحويلة، ويدخل في طريق الأرض المشاع لإفساح المجال المروري وكي نتمكن من توديع بعضنا، كما أفترض. ها هو ذا الوداع المهيب على جانب الطريق. نخرج من السيارة. يضبط بنطلونه. يفتح صندوق السيارة. يطلب إليّ أن آخذ مزيدًا من الخبز. لا تتسع الحقيبة إلا لرغيفين فقط. حينما تستقر أموره في الشمال سيبلغنا وسيترك إشاراته عبر توماس، وربما قد يأتي صيفًا لزيارتنا. مَن يعرف! يعانقني القسُّ. أتركه يعانقني من دون رغبة. يقول: بالتوفيق. يدخل سيارته. يديرها ويخرج إلى الطريق. يغير اتجاهها بلف المقود ويتوجه نحو «لاس فراجواس». أظل أنظر إلى بقعة الـ«بيجو» الحمراء إلى أن تختفي متصاغرة في الأفق. الأب ماكنزي [37] الذي يرتق جواربه ليلًا حينما لا يراه أحد ويكتب عظات لن يسمعها أحد.

37- (37) إشارة إلى الأب ماكنزي الذي يظهر في أغنية «إليانور ريجبي» لفريق الـ«بيتلز». (المترجم).

أنطلق لأسير نحو البيت وأنا أفكر في أنني لم أُعِدْ له كتابه. أترك الضيعة خلفي متقدمة عبر الدرب المفتوح بين نباتات القستوس التي ترشح راتينجاتها الزلقة والفاترة والصلبة وسط الامتداد الشاسع. تبدو رائحة الهواء كالعسل الساخن. بعيدًا، يرتعش محيط الأجمات أسفل ضوء الشمس كأنها تسعى إلى تحويلها إلى جيلاتين ساخن عكر. بين الفينة والأخرى، يلطخ المشهد رغبة شجرة بلوط وحيدة في الظهور. أخضر. أخضر لوزي. أخضر بلون الغار. أصفر رمادي. أصفر المستردة. رمادي حديدي. لون المحار الضارب إلى لون العاج. «قد أغدو مجنونًا. الألوان هُوَّة. هل الأحمر أوضح من الأزرق. لا أعرف». نايجل. نايجل وعباراته المحفورة بالنار في ذاكرتي.

الكل يختار نفس الطريق. كل الرجال يرحلون. يوم الاثنين. ها أنا ذي أكنس الغرف. تلتقط المقشة أحدَ أزرار إبراهيما. أعرف أنه له بسبب لونه الأخضر. لا أمتلك ملابس خضراء. لا بد أنه من بنطلونه المُمَوَّه. سقط من أحد جيوبه الجانبية حسبما أفترض. إنه مكسور وفيه نقرة كطست دون كيخوتي. أحتفظ به في الكومود، حيث أضع الأغراض التي تهمني: دفتر نايجل، جرّة الخزف التي تسكنها أرمدة أبي، طلقات البندقية من عيار اثني عشر. كل الرجال يرحلون، وأتحول أنا إلى منفذة لوصاياهم. لم نود أنا وإبراهيما أن نُجسد وداعنا. لقد غادر فجرًا، كفأر؛ ليستقل أول حافلة تمر عند «منعطف السكين». سمعته يتحرك في المطبخ، ويفتح الباب ويغلقه فجأة، لكنني لم أود أن أنزل. كنت في خير حال حيث أنا. ترك قطعة من الورق المقوى فوق مائدة المطبخ كتب فيها بخط يخلو من زوائد الأحرف التجميلية كلمة «شكرًا»، ونصف المال الذي حصل عليه من العمل في بيت المستنقع.

لقد ساعدني قبل أيام من رحيله على جلب المُوَلِّد الذي كان لدى

روداليس في المستودع. بقيت قبعة الحاصد، التي لم يخلعها قط، معلقة فوق مسمار في الجدار. شعرت بأسى عميق على العجوز الذي رَوَّضوه بالمهدئات في جحيم الجمعية الخيرية البارد. اقتربنا من الطاحونة ليلًا، كما تقترب الثعالب من حظيرة الدجاج. لم تَسِر الإطارات بسلاسة وتطلب منا الأمر جهدًا كبيرًا لإخراج المُولِّد من المصنع القديم والتوقف لإراحة أذرعنا وجَرِّه لمسافة بلغت نحو كيلومتر حتى الجسر الحجري، انتظارًا لظهور توماس بسيارته. أخذنا أيضًا الصفائح الثلاث الخاوية. تمكن إبراهيما وماجانيا من تفكيك الآلة وأزالوا صدأها وزغبها، وزيَّتوا كبَّاسها وجعلوها تعمل فعلًا. أعمال البيت الآن أسهل مع الكهرباء. لا يستهلك المُوَلِّد بنزينًا كثيرًا كما افترضنا. أحدِّدُ جرعات الكهرباء: أستخدمها لمضخة البئر والأمور الأساسية. أتحمَّمُ بالماء البارد، وبالنسبة إلى القراءة فَبتُّ معتادة على ضوء مصباح الغاز. بدأتُ تجاربي على المُجمد: لا بد أن ثمة طريقة لكيلا يتفكك الطعام وتضمن عدم تشغيل المولد بصورة مستمرة. إطفاؤه وتشغليه. إطفاؤه وتشغيله وصولًا إلى الاتزان بين عدد الساعات والبرد. سأبدأ غدًا في تخزين الطماطم للشتاء.

أدفع السياج وأجتاز الفناء وأدخل إلى المنزل، حيث أترك الحقيبة ومعها الخبز فوق الطاولة. أغسل وجهي في حوض المطبخ وأنشف نفسي بخرقة. أعود إلى سلامي، ورغم ذلك ثمة فراغ يُمزقني: الحفرة الموجودة في وسط الصمت. الكلبان. لم يخرجا لاستقبالي عند البوابة، كما هي العادة. أخرج مجددًا إلى الفناء. أعود أدراجي إلى المدخل. أبحث بين الأفرع المنخفضة لشجرة التين. أُلُفُّ حول محيط المنزل بالكامل. أدخله الآن وأبحث في كل الغرف، واحدة تلو الأخرى: أفتح خزائن الملابس وأفتِّش في خزانة الحائط. أنا خائفة. أخرُج. يا «قبطاااااااانة». يا «بلوووووووووتو». أصرخ باسميهما في الهواء.

لا شيء. أشعر بنبضي يثقب صدغيَّ. أبحث في السقيفة وأصعد إلى حيث حظيرة الدجاج والبستان، إلى أن أسمع في النهاية أنينًا وأميز «بلوتو» وراء السياج. أتعجب من الأمر: قليلة هي المرات التي يغامر فيها الكلبان بالتجول هناك؛ لأن أمي عودتهما على الجزء الأمامي من البيت. «بلوتو!» يصدمني ألا يأتي إليّ على الفور بطريقة مشيه كابن ذوات أنيق. أكرر اسمه. لا يأتي. أقفز من فوق السياج قدر استطاعتي فأخدش ذراعي. أركع إلى جواره. خطمه يدمي وتختلج قائمتاه الخلفيتان في رعشة عصبية. لا يقوى حتى على إبعاد البعوض عنه. أهمس: «بلوتو». «بلوتو». حينما أضع يدي فوق جمجمته الصغيرة يحاول أن يحرك ذيله، لكنه لا يرفعه إلا قليلًا وبمشقة. ينظر إليّ بعينيه الصغيرتين الملآنتين بالدموع. أرقد إلى جوار جسده وأنا أكرر اسمه إلى أن أتمكَّنَ بعد جهد ومداعبات كثيرة من جعله ينهض. نبدأ في نزول المنحدر ببطء. يميل جسده يسارًا لدى نزولنا. بين الفينة والأخرى تتعثر خطواته، كأنه فقد القدرة على تحديد الاتجاهات ولا يتذكر الطريق نحو البيت. يغير اتجاهه الآن وهو يعرج ويتوقف أمام نبتة سن الأسد. يلعق نفسه ليتطهَّر. يمضغها ليداوي نفسه. أتركه يأكل، واثقة في غريزته. يتقيأ بلوتو على الفور سائلًا أصفر. ما إن عبرنا مدخل البيت، أرقدته إلى جوار فتحة المدفأة، حيث ارتجلت فراشًا من بعض المناشف القديمة وخرق المطبخ. أخلع قميصي وأضعه فوق رأسه لكيلا يفتقد رائحتي. و«القبطانة»؟ أين هي «القبطانة»؟

مكتبة
t.me/t_pdf

# الجمعة

لم ينْجُ «بلوتو» أصلًا حتى الفجر. طهيتُ في الليلة الماضية حفنة من الأرز الأبيض الذي لم يرغب في تذوقه. لا هو ولا لحم الخنزير المطهو الذي حاولت إرغامه على تناوله. لم أعرف ما وجب عليّ أن أعطيه له ولا كيف أنقذه. رفعت حاشية فراشي ورقدت إلى جواره على أرض المطبخ وأنا أعانقه وأهمس باسمه لأبقى في صحبته. لا أعرف كم ساعة مَرَّت علينا ونحن بهذه الصورة. فتح الكلب السلوقي عينيه الصيادتين الصفراوين، بين الفينة والأخرى، طالبًا إليّ ألا أتركه يستسلم. أظن أنني نمت في لحظة ما فجرًا، مجرد غفوة بسيطة، وحينما استيقظت كان «بلوتو» قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل، ولسانه خارج فمه بعد أن انتفخ وازرَقَّ. اعتدلت ووجدت قائمتيه الخلفيتين ترقدان فوق بركة من الغائط المختلط بالدم. نهضت وتوجهت إلى غرفة المطبخ الخلفية وعدت ونثرت النشارة القليلة المتبقية لديّ فوق البركة وغَطَّيتها ببعض صفحات الكلمات المتقاطعة من الجرائد القديمة. شربت كوبًا من النبيذ صعد فورًا إلى رأسي. منعني الغضبُ من البكاء. لا تزال عَضَّاته في يدي تؤلمني. رفعت بعدها جسد «بلوتو» بنفسي وأخذته إلى حوض التعريشة. غسلته بصابون الملابس، وفرَّشت أسنانه، وتركته ممددًا فوق حوض زهور التبغية لتهويته لأن الرياح بدأت تهب، كما يحدث فقط في الأيام السيئة. بينما أصعد نحو مدخل البيت لجلب كيس، سمعت قرقعة القراميد فوق العوارض كغضبة بيانو مجنون. نزلت وواصلت الشرب. طالبني فمي بمزيد من النبيذ وشيء آخر أقوى منه. فكرت في إبراهيما، وكم أحتاج إليه قربي. تخيلته جالسا إلى الأريكة الطويلة، بكوعيه المغروسين في فخذيه، ووجهه الغاطس بين يديه المفتوحتين، منهارًا أكثر مني. أخذت المقص الموضوع فوق الطاولة، وقطعت

الخياطات الجانبية لكيس الطحين؛ قمح أبي وأسلافه الذين زرعوه في «إل أتشويلو» وأخذوا محصوله لطحنه في الطاحونة التي اصطاد آخرون فيها روداليس كرجل مريض.

كان النهار قد اشتد حينما أخذت المعزقة والمجرفة من السقيفة وبدأت أحفر مقبرة «بلوتو» أسفل شجرة برقوق إيميتريا. إنه ضريحه المنخفض الواقع أسفل دائرة ظلها، والبعيد في نفس الوقت عن جذعها بمقدار خطوتين لكيلا يلحق ضررًا بجذورها. لقد نَمَت بعض هذه الجذور بالفعل؛ مجرد فُسيلات متُفتلة، لكن لولاها لما تمكنت هذه الشجرة العجوز من البقاء على قيد الحياة. استغرق مني عملُ الحفرة بالمجرفة نحو ساعتين تقريبًا وبلغ عمقها نحو متر ونصف. شعرت بالتحسُّن. يُخفف المجهود البدني بشكل ما من الألم المعنوي. لا أعرف السبب ولا كيفية ترابطهما، لكن هذه مسألة صحيحة. لديّ بثرات في لحم راحة يدي الحي. البداية كانت أقسى شيء، حينما اصطدم حد المعزقة بحجر هنا أو هناك، لكن بعدها بدأت تخرج طبقات سائبة من الأرض يسهل العمل فيها.

الحفر والحفر ثم الحفر؛ التعمق في طين الذاكرة كمن يبحث عن نبع في آخر طبقاتها. اضطر الرجلان اللذان أخرجا حقائب قمامة أبي من باطن الأرض إلى حفرها بإزميل ومطرقة مِخلبية صعد بها السيد ماتيو إلى جبل «تورّى بارو» مخفية في بطانة معطفه. استخدما أيضًا أياديهما وأظافرهما. ظَلّ جاري النجار يراقبهما من وراء ظهريهما وهما يقرفصان ويقلبان الطمي على ضوء كشاف مستطيل أمسكه أحدهما بين أسنانه. كنت أعرفهما بصورة بسيطة، بعد أن رأيتهما في حانة الجاليثية، وكل ما علمته سماعيًّا أنهما كانا يعملان في مصنع السيارات؛ المصنع الجيد. التفكير في الماضي خدعة، فما يتذكره المرء يحدث

باستمرارية داخل رأسه ولا يتوقف عن التحول، لكن الآن، في هذه اللحظة تحديدًا أتذكر الأمر بهذه الصورة بالضبط: قرعوا الباب وحينما فتحت لهم أمي، ظهروا جميعًا متلاصقين عند صحن السلم. السيد ماتيو وهذان الرجلان، وكل منهما يرتدي حقيبة فوق صدره. كان قد مَرَّ يومان على دفن أبي ولم يظهر جابي بعد. أدخلتهم أمي إلى غرفة الطعام ظنًّا أنهم جاؤوا بأنباء عنه. كان الظلام قد حل، لكننا لم نكن قد فكرنا بعد في العشاء. تحدَّث الجارُ النجَّارُ مع أمي بصوت خفيض، قُرب أذنها، ثم اقترب مني، فقد كنت جالسة إلى جوار النافذة. ركع وأمسك ذراعي بيده مبتورة الإصبعين التي تبدو كقدم عصفور. نظر إليّ بجدية وثبات وتحدث: «أنخيلا، هل تتذكرين حينما رافقك أبوك إلى قلعة "تورّى بارو"؟ قولي لي. هل تتذكرين؟» فأومأت برأسي. «هل تتذكرين أنكما دفنتما حقائب بلاستيكية؟ هذا صحيح، أليس كذلك؟ أنتِ طفلة ذكية وقادرة على العثور عليها. هيا بنا. عليكِ أن تساعدينا». حينها لم أقدر على تحديد الاتجاهات جيدًا، لكنني وثقت في غريزتي، وفي المخطط الذي رسمته داخل رأسي، وذاكرة السمع. أكثر ما تذكرته من تلك النزهة مع أبي هو الطنين، وصوت آلاف الأمبيرات التي تراقصت فوق كابلات برج الضغط العالي. طلبت أمي إلى السيد ماتيو أن نتوخَّى الحذر وأن نعود في أقرب وقت ممكن.

تركت آخر بيوت الحي الصغيرة خلفنا، وبينما نجتاز الأرض المكشوفة التي لا يمتلكها أحد، تقابلنا مع عمال ينزلون المحطة؛ من القطارات الصغيرة التي تأتي بهم من المصانع البعيدة عن وسط المدينة؛ رجال حوطهم الضباب والإرهاق وبدوا كأنهم يمضون مسرنمين. اجتزنا كوخ الخردة وفنائه المزدحم بِحَوَاشي فراش صوفية، وزجاجات، ومصابيح، وأنابيب صلب قديمة، ومضينا نحو الجبل حتى برج الضغط العالي.

هناك، تحت الأجمة، حيث أشرت لهما، بدأ الرجلان في الحفر. فاحت رائحة البول والصوف المبتل، فيما اخترق البرد الرطب الملابس بخبث شديد إلى درجة ظننت معها أن معطفي الخشن مصنوع من قشر البصل. على الرغم من توتر السيد ماتيو، إلا أنهما لم يتأخَّرا في العثور على الحقائب وإخراجها من تحت الأرض: الحزم الثلاثة الملفوفة في حقائب قماشة. انقطعت إحداها لدى إخراجها وتقيأتْ جزءًا من الأوراق الموجودة فيها. انحنيت لأخذ إحداها وتبيَّنتُ أنها منشور يدعو إلى إضراب لإعادة تعيين العمال الذين سُرِّحوا من مصنع السيارات. جمعناها نحن الأربعة وكَوَّمناها في الأكياس. لا أعرف إن كنت قد تساءلت آنذاك - في تلك اللحظة تحديدًا - أم بعدها وسط اجترارِي المستمر للذكرى داخل رأسي، لماذا حرس أبي أوراقًا شديدة الخطورة في هذه السنوات، على الرغم من أنهم لم يعينوه في مصنع السيارات وأرسلوه إلى فرن الخزف. على الأرجح، حدث الأمر لاحقًا، لكنني على أي حال كنت أعرف فعلًا السبب وراء دفن المنشورات أو على الأقل أخمنه. هل رجته أمي أن يُخرج الأكياس من البيت؟ هل كانت تعلم ما يفعله رجلها؟ إلى أي مدى قد تورَّط؟ سَمِعْتُهما يتجادلان كثيرًا في نقاشات استنبطتُ منها تحديات ونظرات وعبارات لها مغزاها: «لا تفرط في الثقة. سيزُجُّون بك في ورطة». «سيتركون مُؤخَّرتك عارية». «كل هذه السياسة وماذا بعد!». «ألن تخرج اليوم أيضًا بحثًا عن عمل؟». لكنني أجهل حقًا إلى أين وصل مدى معرفة أمي أو إن كانت فعلًا قد خافت ذات مرة من أن يفعل أبي ما فعله. ما من أحدٍ يعرف أحدًا تمام المعرفة. وَدَّع السيد ماتيو الرجلين عند منطقة أشجار الصبار، ثم ابتلعتهما العَتَمَة، ومضينا نحن في نزولنا عبر المنحدر. في النهاية، أعادني النجار إلى البيت بحذاء مليء بالطمي.

حين فرغت من حفر قبر «بلوتو»، رَشَشْتُ الجيرَ الحَيَّ في أعماقه لطرد الحشرات ولتجنب أن تنبش الحيوانات الضارة الجثة ليلًا منجذبة إلى الرائحة. عدت إلى المطبخ وشربت كوبًا آخر من النبيذ. أخذت الكفن المصنوع من الخيش ولففت به جسد الكلب السلوقي البارد، تاركة رأسه خارجه. وضعته في الحفرة، وبالمقص الذي استخدمته مع الكيس قصصتُ شعري خصلة تلو الأخرى. لقد قصصت كُلَّ شعري حتى آخر خصلة فيه كي أدفنه معه. لطالما أَحَبَّ «بلوتو» شعري واللعب بخصلاته الشعثاء. بعدها، ألقيتُ الترابَ بملء يديّ وكومة الشعر فوق جسده. حينئذ فقط، شرعتُ أبكي. فكرتُ في إبراهيما. لو أنه كان موجودًا هنا؛ لو أنه لم يرحل من أجل الفاكهة، كان ليتلو مزاميره، رافعًا راحتي يديه نحو السماء، ولربما صَقل بعد مرور الأيام سياجًا من أفرع الزيتون لتحويط القبر. أنا أجهل كيفية الصلاة.

دخلتُ أسفل الدش، غسلت رأسي المجزوز شعره وجسمي. الذراعان، الإبطان، مهبلي، ساقاي. التراب، الخراء، العرق، المخاط. ارتديت بنطلونًا وقميصًا نظيفين وخرجت لأمشّط محيط البيت. وصلت حتى أشجار السنديان الواقعة عند الدرب. عدت بعدها أدراجي، وتوغَّلت في أرض السيد ولم أجد شيئًا. وددتُ أن أؤكِّد يقيني إن أتاحت لي الظروف. بعد التجوُّل عدة مرات، ذهبتُ إلى ما بين السقيفة والسياج حيث عثرت على ما أبحث عنه: أثر الموت. أنسجة اللحم النيء الذي قد اسوَدّ بالفعل. طُعْمَان فيهما سم الفئران الذي يُنثر عبر الجبال لتسميم إناث الثعالب والذئاب، وأيضًا كلبي.

إنهم يُضيِّقون الخناق عليّ. ما الذي فعلوه بكِ يا «قبطانة». أيًّا كان مكانك، تحمَّلي. لقد حانت لحظة الحقيقة الوحيدة.

منذ دفنت الكلب السلوقي انبثقتْ مني أناي التي هي أنا أكثر من أي وقت مضى. صعدت إلى الغرفة، باندفاعٍ أعمى، مبتلعة درجات السُّلَّم درجتين تلو درجتين. فتحت صندوق خشبِ الجوز القديم، وأبعدت الغطاء وتأملتها هناك في نومها: البندقية القديمة. بداية من الآن، سنعرف أنا وهي كيف نصبح جسدًا واحدًا. زناد مزدوج وفوهة مزدوجة. سأنفذ أمرًا هو الأول من نوعه. سأطيع أمرًا واضحًا للغاية لا أعرف بعد من أين يأتي. سأنال من التوأمتين. ألم تحصلا على الكثير يا خلدونتان؟ لقد سرق قومكما أراضي «إل أتشويلو». أنتم من أجبرتمونا على الرحيل عن هنا. وأنتما الاثنتان قطعتما أشجار اللوز عند الحد الفاصل، وفصلتما عني الكهرباء، وترغبان في حرماني من بيتي، والآن، «القبطانة»؟ يتَّسع الثقب الموجود في صدري حين أفكر في النصيب الذي نالته الكلبة، فأعرف أنني الآن قادرة على القتل. أين ذهبتِ يا «قبطانة»؟ ما الذي فعلوه بكِ؟ اصبري. ها أنا ذي أستعيد أنفاسي، جالسة أسفل شجرة البلوط، مستندة إلى جذعها، ومعي الـ«ساراسكيتا». لقد جئت بحثًا عنكِ.

ربما لن أنجح تلقيم البندقية وأنا معصوبة العينين، لكن حاسة اللمس لها ذاكرتها الخاصة، فها هي ذي الطلقات تنزلق مطيعة داخل الثقب كأنها مصنوعة من الزبدة. أصابعي ولحم يدي كلها مثخنة بجراح لا تؤلم. لقد أفرغت حقيبة الطلقات فوق الكومود. العلب الثلاث. أنا الآن على بُعد خطوتين من «لاس برينياس» شاهرة سلاحي. تعبتُ من الطريق، لكنني مستعدة. أنهض وأنفض التراب والأوراق الجافة من فوق مُؤخَّرتي. أمسك البندقية بكلتا يديّ وأمضي نحو ملكيتهما عبر الدرب المترب. ربما كان ليصبح الأمر أقل إرهاقًا لو أن لديّ حزامًا جلديًا لأضع البندقية فوق كتفي. أقطع الأمتار القليلة المتبقية حتى فناء البيت الكبير. إنه أكبر بكثير مما تخيلته.

سأعلن عن وجودي لتعلم الخلدونتان أنني وصلت. أسند كعب البندقية إلى جانب فخذي وأطلق النار. أكاد أسقط من الارتداد. أطلق الرصاصة الثانية في السماء. يتردد صدى رعدها في طبلتي أذنيّ وسط هواء الظهيرة المعتم. تحلق طيور السَّمَامة في سرب واحد. أنزل المزلاج، أخرج الفارغين. يتصاعد الدخان منهما، لكن أصابعي لم تعد تشعر بشيء. ها هما تان طلقتان أخريان. كليك. أحب صوت إعادة التلقيم. إنها طقطقة دقيقة، جافة، خالية من التردد. تُثيرني رائحة البارود الحارقة. الأوامر.. لا أعرف من أين تأتي إليّ، لكنها تقول لي الآن أن أصوب نحو بوابة البيت، فأطيعها. اخرجا يا خلدونتان. أفتح ساقي اليسرى نحو الوراء وهي ثابتة وصلبة، كقائمة نعجة. أطلق على الباب. بوم! تتحمل العظام الصلبة الطلقة، لكنني لا أصيب مرماي، إذ يظهر أثر الطلقة فوق السور وتنتزع جزءًا من قشرته. لو أن لديّ نقطة يمكنني أن أسند إليها البندقية، لفعلت الأمر بصورة أفضل. المحاولة الثانية. الآن نجحت وأصبت الهدف. أصرخ في الهواء:

- لا تختبئا يا صفيقتان! لماذا سَمَّمتما كلبي؟

أمسك بيدي صلب الماسورة الساخن والحارق عند فوهتها، وحينما أستعد لثنيه لوضع طلقتين أخريين، يُمسكني أحدٌ من الوراء بسرعة مصيدة. أعجز عن الحركة. أعلق أنا والبندقية في معصرة صلبة واحدة.

- اهدئي يا أنخيلا. اهدئي!

إنه رئيس العمال. لا يمكنني أن أراه وظهري إليه، لكنني أتعرف على صوته، وذراعيه القويتين، ويديه بأظافرهما المسودة من العمل في الحقول.

- أفْلِتْني.

يهمس في أذني:

- ناوليني البندقية. أطلب إليك الأمر من فضلك. ناوليني البندقية هيًّا، وإلا سيكون الأمر أسوأ بكثير. لا شيء مما يحدث هنا في صفك.

أتوقف عن المقاومة. ليست لديّ القوة الكافية لقتال هذا الرجل. أستسلم. أسلمه الـ«ساراسكيتا» وأستدير. ينظر إليّ ديونيسيو كأب مرهق. يتضاءل القفل الموجود في عينيه.

- هل جننتِ؟

- هما من تودان إصابتي بالجنون.

تُسمع ضوضاءٌ آتيةٌ من البيت لمزاليج وأقفال تفتح. لا بد وأنهم جميعًا في البيت يتجسسون عليّ من نافذة ما. يخرج الآن رجلان من أبناء المدينة يرتديان حذاءين من الـ«موكاسين»، ومن بعدهما تأتي التوأمتان، بعدما شعروا جميعًا أنهم في مأمن. الآن بعد أن جَرَّدوني من سلاحي، يتجرؤون فعلًا على الخروج.

- أين هي «قبطانتي»؟

أحاول الاقتراب منهم، لكن ديونيسيو يمنعني بإمساكي من ذراعي. إنه يؤلمني.

أنظر إليهما. تبدوان نسختين شقراوين بائستين من بيتي ديفيز. طويلتان، نحيفتان، ولا يمكن التمييز بينهما لولا أن إحداهما تعقص شعرها في ضفيرة قصيرة، وأن الأخرى ترتدي عقدًا من اللآلئ فيه دلّايات سائبة. تحافظان على المسافة الفاصلة بيننا - نحو خمس خطوات - في حراسة كلبيهما القادمين من المدينة. اللآلئ لا تجلب

سوى النحس أو الغم. هذا هو ما اعتادت أمي أن تقوله.

يقول أحد الرجلين:

- لو غادرتِ الآن من حيث أتيتِ، لن نقدم بلاغًا.

هل هو المحامي؟ رجل المال.

- ارحلي عن هنا وسنقول إن شيئًا لم يحدث.

- أولًا أعيدوا لي كلبتي.

تقول صاحبة عقد اللآلئ:

- أي كلبة؟

أصالة النسب ملحوظة في يديها الناعمتين والكيفية التي تحركهما بها. تُغطي الخلدونة الأخرى، ذات الضفيرة، بطنها بذراعها كأنها تحمي نفسها وتضع يدها الأخرى فوق فمها لتكتمه. تنظر إليّ من أعلى إلى أسفل؛ من رأسي مجزوز الشعر إلى حذاء أمي.

أقول:

- على أي شيء تضحكين يا حمقاء؟

يمسكني ديونيسيو مجددًا بِضَمِّي إلى جسده. تبدو رائحته كذكر مرهق، ورغم ذلك يتشبث بماسورة بندقيتي بثبات.

يقترب رجل القانون أو أيًّا كان من ذات اللآلئ ويهمس شيئًا في أذنها.

- ما الذي تسعون كلكم خلفه؟ أن أشنق نفسي، كأخيكم خوليان. انتحار آخر؟ ألا يقولون إن الانتحارات تأتي اثنان تلو اثنين؟ أهذا هو ما

ترغبون فيه؟

تقول ذات الضفيرة، بعد أن انمحت ابتسامتها:

- الذنب ذنبك.

يتدخل المحامي أو أيًّا كانت هويته الملعونة:

- سننهي موضوع بيتك عبر المحكمة. الأرض لم تعُد لك والعقار آيل للسقوط. عليكِ أيضًا أن تعرفي أننا طلبنا بالفعل تقريرًا نفسيًّا حولك.

يا أبناء العاهرة! كيف درستم اللعبة جيدًا هكذا! «إنها مجنونة. مجنونة وضائعة. غير قادرة على الاعتناء بنفسها. إنها تمثل خطرًا». ينقَضُّون على النساء دائمًا من هذه البوابة؛ بوابة دواخلهم. أبلَعُ ريقي وأقول ناظرة إلى قدميّ:

- لن يكون الأمر سهلًا. أؤكد لكم هذا.

تتحدث ذات اللآلئ الآن:

- تعَقَّلي وخُذي المال يا امرأة. لو توقفتِ للنظر، سترين أن أحوالك ستصبح أفضل في الجمعية الخيرية. سيعتنون بكِ جيدًا وستتحسن حياتك.

- أنتم مجرد خراء. ستتعفن دماؤكم من سُمكم.

أبصق فوق الأرض التي يخطون عليها وفوق كلماتهم. أنطلق لأسير عائدة نحو «إل أتشويلو» وأنا أكز على ضروسي. لم أكن قد قطعت سوى مائة متر حينما التفتُّ لأجد ديونيسيو عند طرف الطريق يراقب خطواتي، ممسكنا ببندقيتي من ماسورتها، وكعبها مستند إلى الأرض.

# السبت والأحد

حلقت شعري بالكامل بماكينة الكلاب. شعر رأسي بالكامل. باتت جمجمتي ملساء، كبطيخة، وسينمو شعري الآن متساويًا.

حين يهدأ الحَرُّ، سأصعد التل. أنا في حاجة إلى السير أمام ظلي.

الحقول يابسة من دون قطرة ماء. حكت لي أمي ذات مرة عن عام جفافه متوحش وسنابله عقيمة، بلا حبوب تقريبًا، فأخذت إيميتريا وهي في وسط الحقل تطلق رصاصات البندقية ببؤس لتمزيق أي سحابة عابرة. إنها البندقية ذاتها التي أخذوها مني. اضطرت نساء البيت إلى كسب بعض المال بغسل وتنفيض المراتب في النهر، لمَّا استقرَّ الفقر في «إل أتشويلو». هذا هو ما قالته أمي.

هل من الممكن أن يموت المرء من الوَحْدَة؟

عليّ أن أستعيد قواي. حينما عدتُ أمس من شجار «لاس برينياس»، قتلت دجاجة بنفس الصورة التي ربما كنت لأذبح بها ذات اللآلئ. هكذا بِجَزٍّ رقبتها بثبات. قيَّدتها من ساقيها وعلَّقتها منهما في فرع شجرة البرقوق لتصفيتها من دمائها التي ظلَّت تتساقط: تك، تك، تك. مكثت الليلة بطولها تتهوى، «وبلوتو» مدفون أسفلها. كم من الوقت يستغرقه الجسد كي يتحلل تحت الأرض؟ أغسل الدجاجة الآن بالماء الساخن. أنتف ريشها وأشعل نار الموقد. لو أن «القبطانة» هنا، لألقيت لها الحويصلات والقوانص، والكبد أيضًا. أفتقدها طوال الوقت. لم أعد أتعثر بها لدى نهوضي من فراشي. لم تعد موجودة لتقترب طالبة مداعباتي، أو لتهز ذيلها خلفي وأنا أجتاز الفناء نحو المنشر والسلة مملوءة بملابس مبتلة، أو لترافقني في مسيراتي. لا شيء من هذا ولا أثر لها.

مطر لندن غالبًا خفيف، لكنه لا يتوقف. ثمة نقطة يتسرب منها الماء في كوة السقف. وضعت طست القصدير أسفلها. تك، تك، تك. أتذكر أنني أزَلْتُ عفنَ نعل الجدار بِكَشَّاطة. حينما توقفت عائلة نايجل عن إرسال المال له، بِتْنا أفقر، لكن نايجل شعر لفترة وجيزة أنه يتقدم. «حينما كان فان جوخ يرسم، كنتِ لتسمعي صوت العشب من حوله». إنها عبارات نايجل «الدباغ». طردني ذات مرة من المرسم في بداية البدايات، حينما كان يدفع لي مقابل كل جلسة، لأنني في الأحد السابق ذهبت لأتشمس في الحديقة واسمرَّتْ وجنتاي وجبهتي. لا هي نفس درجة اللون ولا الصبغة ولا الإضاءة. لم يرسم نايجل أحدًا سواي خلال السنوات الثلاثة الأولى. «تعري. اثبتي. انفتحي. انفتحي». أنجي بين زهور النرجس الصفراء، أنجي كأوفيليا في حوض الاستحمام بشعر سائب، أنجي تتموضع ليرسمها ممسكة ساق حمل. تلك الساق التي التهمناها في ثالث أيام العمل، بعد أن سويناها في الفرن مع معجون التفاح.

**«أنجي، ما زلت أحبك. تذكري كل الليالي التي بكيناها. كل الأحلام التي أمسكناها قربنا؛ كلها تتصاعد كالدخان»**. كل شيء يرتفع كما الدخان.

ها هي ضوضاء المُوَلِّد. أنا في طور الاعتياد على الأمر. وَفْق حساباتي، يساوي لتر البنزين تقريبًا ساعتين من الكهرباء.

نسختُ بماء الجير عند حائط المدخل وبين طرفيه افتتاحية الكتاب الذي أقرضني القسُّ إياه. كتبت كلمات الافتتاحية حرفًا تلو الآخر وبخط يخلو من الزوائد: «جئت إلى كومالا لأنه قِيل لي إن أبي يعيش هنا. إنه رجل يُدعى بدرو بارّامو. أمي قالت لي ذلك، ووعدتها بأنني سآتي

لمقابلته، حين تموت». تروقُني هذه الافتتاحية كثيرًا، فعلى النقيض منها، أنا لم أعِ أنني أتيت إلى الضيعة لمعرفة من هو أبي. لم تحكِ أمي لي شيئًا. رسَمت أيضًا وجه أبي بقلم الكلمات المتقاطعة الرصاصي على الحائط.

تتكون عُقدة الشنق الكلاسيكية من سبع لفات، لكنها تقبلُ أيَّ عدد يطيب للمرء. تأتي دائمًا في عدد فردي، لأنها بأي طريقة أخرى، لن تتحمل. استخدم أبي حبل الستائر. كم لفَّة احتاج إليها؟

تُودع حُبّك في المخلوقات، وفي الأشياء، وفي الأماكن، وبعدها تجهل ما ينبغي عليك فعله بما بقي بين يديك ولم تستخدمه، فتحترق راحتاك.

في يوم مثل هذا - تحديدًا منذ أربعين عامًا وتسعة شهور وثلاثة وعشرين يومًا - كان عمري أحد عشر عامًا. لم يسمحوا لي برؤية الجثة ولم يأخذوني إلى الدفن. كذبت أمي عليّ. هذه هي الحقيقة. أمي التي تحدثت عن الموتى كما لو أنهم أحياء.

أفتح دفتر نايجل عشوائيًّا. أقرأ أول تدوينة تتوقف عيناي أمامها: «إن التفكير في طبيعة الألوان قادر على إصابتك بالجنون. الفارق بين الأسود والبنفسجي الداكن هو نفسه الفارق بين صوت طبلة البومبو وصوت طبلة التيمبال. كم عدد الألوان الموجودة في نهر التيمز؟ كيف ترسم المياه. إنها ضوء متحرك وليس لها لون ثابت».

لا أعرف إن كنت نفس المرأة التي رافقتني منذ بداية الرحلة.

إنها الخامسة مساء. تصاغر الزمن. تصاغر كشيء ينكمش. إن العادات هي ما يُكسب الأيام معانيها. النظافة الشخصية، والطبخ، والقراءة، ودَعْك الملابس في حوض الغسيل، وغلي صفائح تخزين الطماطم، وإغلاقها

جيدًا، والتنزه، وحظيرة الدجاج، وري زهور الأرطنسية والأضاليا، وسكب المياه فوق الفناء لترطيبه، وقطف ما جاد به البستان. الكُوسَة في طور النضوج. الكوسة نبات يتميز بعرفان الجميل الشديد ويغدق في عطائه رغم قلة ما يطلبه. الآن، وسط قيظ العصر، تأخذ الأوراق قيلولتها. أوراق الكرمة ناعسة؛ هي وأرض عائلة خلدون البائرة، وشجرة التين التي تتخطى دائمًا أضرار الصيف بسلام. هكذا كانت الحرية. أُشغِّل الراديو، فيقفز إريك بيردن في منتصف أغنيته: «**لا تسمح بإساءة فهمي**». أتذوَّقُ الطبيخ. بات جاهزًا فقد انضبطت طراوة اللحم وسط عصارته. الزيت، البصل، ورق الغار والزمن. خُبز القِسِّ كالحجارة، لكن لا يوجد سواه. أحمِّص قطعة منه في المقلاة، أما البقية فسأنقعها للدجاج. أُطفئ النار وأغرف لنفسي طبقًا ملآنًا، ثم أجلس إلى المائدة.

«**من فضلك لا تسمح بإساءة فهمي**». لا تُسِئ فهمي. على الحياة أن تصبو إلى البساطة، ورغم ذلك فهي تتعقد وسط حالات سوء الفهم، وعبارات لم تُنطق، ومشكلات لا تُحل إلا في الوقت الضائع. هل ارتبكت؟ هل أصابني العمى؟ أتساءل أحيانًا هل أحبَّني نايجل بقدر ما أحببته، لكن هذه الفكرة لا تقودني إلى أي مكان وتصيبني بالغم. أفضل الظن أنه قد أحبني فعلًا بقدر ما أحببته. وحده الحُب الذي قدرت عليه هو ما يُبقيني واقفة. أنا أعيش داخل أثره. لماذا رحلت؟ لماذا فررت من لندن؟ لأنه على الأرجح كان ليجرني معه إلى أعمق الأعماق.

يقرع أحدهم الباب ببراجمه. مَن هو يا ترى؟ أنهض، وأسمعهم يقرعونه مجددًا بإصرار:

- مَن هناك؟

- نحن. أنا أركاديو ومعي أختي.

«الدباغ»؟ نعم. إنه هو. لقد تعرفت عليه من صوته. ما الذي ضاع منه هنا؟

- أنا في الطريق.

أفتح الباب مواربًا وأطل بنصف جسدي.

يُدمدم أركاديو، «الدباغ»، من دون أن يبعد نظرته عن رأسي القرعاء:

- آسف يا «ماروتا». أنت لا تعرفين ما أشعر به مما حدث في بيتي.

- ما الذي حدث؟

أفتح الباب على مصراعيه.

- وأختك؟ قل لها أن تدخل. ألم تقل إنها جاءت معك؟

أنظر نحو البوابة المُسيَّجة، لكنني لا أتمكن من تمييز رأس الأرملة من مكاني. أدعو «الدباغ» إلى الدخول وأنا أشير بذراعي، لكنه يرفض برأسه بإصرار.

- إرمينيا مكثت هناك في الخلف. مع عربة اليد.. لم نعرف أي طريقة قد نُبلغكِ بها، فأنتِ ليس لديكِ هاتف.

عربة اليد؟ يخفض أركاديو نظرته وينظر إلى طرفي حذائي. ينزل شعره الأشعث حتى ذقنه. تبدو رائحته كالجدي.

- ما الذي حدث؟

يتوقف ويداعب وجهه بكلتا يديه:

- كلبتك. لقد ظهرت في بيتي.

- متى؟

- الآن، في تلك الفترة التي استغرقناها للوصول.

يشيح ببصره مرة أخرى:

- عثرت عليها تطفو في البركة.

«قبطانتي»؟ «غريقة»؟ إنّ كلبتي الهجينة قادرةٌ على السباحة!

أنطلقُ نحو البَوَّابة المُسيَّجة وأركاديو ورائي، أفتحُها وأجدها هناك ميتة. ساقاها مثنيتان ومضمومتان إلى صدرها كي يتسع صندوق عربة اليد لجسدها. أسقط فوق ركبتيَّ على الأرض. تتراجع الأرملة خطوتين إلى الوراء، مطأطئة الرأس. جاءت سيرًا من المستنقع بشبشبها المَطّاطي.

أداعبُ جبهةَ الكلبة. إنها متيبسة. ثمة شعر ضارب إلى البياض فوق عينيها وبطنها منتفخ، كأنها على وَشْك ولادة قطيع كبير. ثمة قشرة عند شفتها السفلية لشيء يبدو كالدم الجاف. تقترب الأرملة مني. تداعب يدها مُؤخَّرة رقبتي عديمة الشعر. أختلج. لا أرغب أن يلمسني أحد.

- مَن الذي فعلها يا أركاديو؟

أنظر إليه، فينظر إليّ. نُبقي على نظرتنا في صمت. عينا كُلٍّ مِنَّا جَمْرتان وسط شمس العصاري. ينبثق صوتي مني من دون شكوك:

- لو نَمَا إلى علمي أن ثمَّة صلة تجمعك بما حدث، أقسم لك أنني سأقتلك ولو كان هذا آخر شيء سأفعله في حياتي.

يميل أركاديو برأسه ويشير بإبهامه إلى الدرب الواقع وراء ظهره،

حيث جرَّا عربة اليد فوق الحصا والحجارة:

- أتظنين أنني سأجُرُّها إلى هنا من المستنقع، لو أن لي صلة بالأمر؟

هذا هو ما لا أفهمه. يقع بيت المستنقع على بُعْد كيلومترين من هنا و«القبطانة» لم تبتعد قط لمثل هذه المسافة.

تضم إرمينيا كلتا يديها بمحاذاة صدرها وتعُضُّ شفتها السفلية. أنهض، وأنظر مجددًا إلى «القبطانة» وتَحَدُّب قوائمها.

- هل كانت مهمة لصالح التوأمتين يا أركاديو؟ لو أنك تعرف شيئًا قله لي.

يغلق «الدباغ» عينيه ويرفع كتفيه.

- أيًّا كان مَن فعلها، فسأفجر رأسه. سواء كان ديونيسيو أو أي شخص آخر.

ترتسم ابتسامة تهكميَّة مثلومة على وجه أركاديو، بلثته الملتهبة جدًا اليوم ويقول:

- ديونيسيو؟ تخلصتا منه هو الآخر. طردتاه من المزرعة. أبعدتاه في الليلة الماضية عن لاس بريناس.

لم تعُد الخلدونتان في حاجة إليه. ليستا في حاجة إلى أي من الممثلين الثانويين. هما ودماؤهما الخبيثة.

أسأل وأنا أنظر إلى الأرملة، الاجتماعية أكثر من أخيها:

- وما الذي يقوله الناس في الضيعة؟ ألم يتحرَّك أحدٌ؟ ألن يحركَ أحدٌ إصبعًا؟ سيملؤون الجبال بالحافلات.

يعمي ضوء الشمس عيني إرمينيا فتحميهما بباطن ذراعها وتجيب:

- على حد علمي، يقف الناس مكتوفي الأيدي والخوف يسكنهم. ما من أحد يثق في التوأمتين، لكنهم لا يفعلون شيئًا. مَن يقولون إن عملية البيع جيدة للضيعة وأنها ستُدِرُّ مالًا وربما تجذب بعض الشباب، قليلون.

تفلت ضحكة من أركاديو ويميل برأسه نحو الخلف. يُبقي بنطلونه ثابتًا حول خصره بحبل رفيع.

تعقد إرمينيا ذراعيها أسفل صدرها:

- ما الذي تضحك منه يا بسيط؟ هذا هو ما يقولونه.

يجيبها أخوها:

- كل ما ترغبان فيه هو المال. مالهما.

ثم ينظر إليّ ويقول كأن موت كلبيّ حادث عرضي:

- هذه الأشياء تحدث.

- الطُعم كان في أرضي يا أركاديو.

- لا تفكري في الأمر كثيرًا... الكلبة المسكينة ودَّتْ أن تشرب، واقتربت وغرقت في البركة.

أظن أن عليّ أن أصدقه. لقد أخذوها ليقتلوها، وهربت. أو أن «القبطانة» على الأرجح التهمت اللحم الملوث بسم الفئران، بكمية أقل من الكلب السلوقي، وانطلقت لتسير، ثم فقدت الاتجاهات، قبل أن تسقط ظمآنة ومحتضرة في البِركة؛ خزان الماء الذي كان ينظف إبراهيما صفائحه الطباشيرية.

لم أعُد قادرة على البكاء. لا أودُّ أن أبكي. «قبطانتي» هي الأخرى غرقت؟

- اخدمني في أمر ما يا أركاديو.

- أيًّا كانت رغبتك، تحت أمرك.

- خذها حتى السقيفة.

يبصق «الدباغ» في يديه. يفركهما ويمسك ذراعي عربة الجر باليد ويدفعها. نجتاز الفناء وزاوية البئر. نمضي عبر الزقاق المنحدر المؤدي إلى الحظيرة والبستان. أسير في مقدمة الموكب الجنائزي الذي تُكمله إرمينيا في الوراء بردائها ذي الحمالتين الكحليتين. ها هو ذا صرير الإطارات. ها هي ذي خطواتنا منزوعة الرغبة. ها هو ذا طنين الدبابير عند شُجيرة الورد. أدفع الباب. أفتح المُجمد. أصُفُّ حزم الفاصوليا التي جمَّدتها منذ يومين في إحدى الزوايا لتوسيع المساحة. أخرج إلى النور. أمسك القبطانة من قائمتيها الأماميتين وأسند رأسها إلى صدري.

- ساعدني يا أركاديو.

يُطيعني «الدباغ». يُمسك الكلبة من ذيلها وقائمتيها الخلفيتين.

أُحذره:

- بحرص.

مكتبة
t.me/t_pdf

أدفع الباب بفخذي.

- هل ستضعينها في المجمد؟

- بالطبع. الجو حار.

تضع الأرملة يدًا فوق فمها وتنظر إليّ بفزع من مكانها عند فتحة الباب، بملامحها غير الواضحة تحت الضوء المعاكس. أنا أُخيفها.

أنظر إلى القبطانة ثانيتين أسفل ضوء الثلج الأزرق. ستكونين هنا في خير حال يا ملكتي. أغلق الغطاء ببطء، من دون أن أتوقف عن النظر إليها.

- خالص العزاء يا أنخيلا.

تحاول إرمينيا معانقتي، فأتركها من دون رغبة. يقول «الدباغ»:

- انتهينا. انتهينا. هيَّا، هيَّا بنا إلى المنزل.

أشكرهما. أودُّ فقط أن يرحلا.

«قبطانتي»؟ هي الأخرى غرقت؟

«نايجل تانر. تسعة وثلاثون عامًا. فنان. طوله خمسة أقدام وإحدى عشرة بوصة. ذكر قوقازي. لا يعاني من سوء التغذية. شعر ناعم، قمحي، مع بعض الشيب. عينان زرقاوان مائلتان إلى الرمادي. لحية نابتة. صلب العود وذو عضلات. أسنان طبيعية. ثمة حشوات وتاج. قميص أبيض وسترة صوفية عليها بقع ألوان. معطف كُحلي من الجوخ وبنطلون مخملي بنفس اللون. جورب أخضر وحذاء بأربطة سوداء. سوار جلدي ملفوف حول معصمه الأيسر».

حتى رائحة ملابسه، أحببتها.

يواصل تقرير شرطة التيمز قائلًا إنهم في البداية ظنوا جثته كومة متشابكة من القماش البالي والفروع. لاحظ أحدُ المشاة الكومة عند الضفة الجنوبية، في حي «روثرهايت» وهي تطفو في مياه مرفأ الملح،

فأبلَغَ الدورية. كان نايجل قد ربط كاحليه بشريط لاصق بلون الكراميل. لم يلصقهما تمامًا، لأنه احتاج إلى التقدم عدة خطوات قبل إلقاء نفسه في الماء، لكنه لصقهما بإصرار، في أكثر من لفة، لزيادة قوة العقدة. العفونة الخضراء والقطران هما آخر هواء شَمَّ رائحته تقريبًا.

كم مرة فكر نايجل في الانتحار؟ كم مرة تخيل الأمر؟ في أي ساعة قرره؟ لماذا اختار الغرق؟ هل فكر في مستويات المد؟ أم أن الموت ارتجل الأمر؟ أكاد أراه يتفحص ساعة المد في الجريدة. هل خرج فجرًا؟ ربما شرب على مرة واحدة آخر رشفة من ويسكي «جيمسون» ليتجرأ ويُدفئ جسده. لقد زرر معطفه، الذي ملأ جيوبه بالعملات وقطع من الأسمنت، والحجارة، والحصى، والصواميل، والبراغي الصدئة، وكل ما استطاع أن يكنزه من طوب في مسيراته عبر الحي وما ورائه. كلها أجزاء من المدينة التي سرقتها تاتشر منا. خرج من الباب الخلفي، المفضي إلى مرش الماء والحديقة التي التهمتها العشبية الخبيثة، حيث تموت إحدى تفرعات السكة الحديدية، ثم بدأ يسير عبر الأسيجة والأفنية الخلفية، على امتداد القضبان الحديدية الصدئة. تساقط مطر خفيف أو كان على وَشْك التساقط. أنا واثقة من هذا الأمر. إنها أمطار لندن المستمرة. وصل إلى الزقاق، اجتاز الأسيجة الرمادية والأكواخ الخشبية ذات النوافذ المسدودة إلى أن وصل إلى مصدات الاحتواء، وورش السفن المهجورة، والمرافئ الخاوية. أي زاوية اختارها؟ ربما هبط سلالم «وابينج»؛ الدرجات التي أخذ الجَزْرُ يكشفها حتى معبر الماء المصنوع من القصدير، من دون تفكير أو توقف، كمن يضع نفسه أسفل أغطيته ليرتاح. أو ربما مضى قدمًا مع مجرى النهر وصولًا إلى جسر البرج أو ما بعده داخل المدينة؛ كي يلقي بنفسه في المياه من الأعلى. الأمر غير مهم. أم أنه مهم؟ قالت الشرطة إن الكثير من المنتحرين يختارون جسر

«ووترلو». لا بد أنها ليست ميتة جميلة. إن لم يقتلك السقوط من علو، فإن الغريزة ستجبر رئتيك على القتال وبذل الجهد للحصول على الهواء وسط إحباطهما كخياشيم سمكة ملقاة عند الضفة. هل الغرق مؤلم؟ هل الذوبان مُسبب للألم؟ ينسخ الماء شكل القالب الذي يحتويه. ماء على هيئة القصبتين الهوائيتين وماء على هيئة المعدة. لقد هدهده تيار النهر، كجذع شجرة، وطفا جسده فوق بطنه وانتهى معانقًا مهد الثلوج. إنها نهاية البحث. إنها نهاية إحباط الفنان. كَفَتْ سِتُّ أو سبع دقائق كي يوقف البرد حركة القلب.

كان صديقه بول مَن أبلغني بالأمر في اتصال إلى الحانة. رافقنا أنا وهو وأخت نايجل رجال الشرطة حين فتحوا المرسم. لم يكن مع أحدٍ منا نسخة من المفتاح. ما إن كسروا الباب المعدني، حتى باغتتنا رائحةٌ لحم متعفن. ها هو ذا شعور الغثيان وأنفي أسفل قميصي. حتى رجال الشرطة أنفسهم اضطروا إلى استخدام مناديل. كان نايجل قد اشترى نصف خروف من السوق، فتحلَّلَ وامتلأ بذباب اللحم. لا بُد أن المشروع الذي كان يعمل عليه هو ملاحظة التعفن والحالات التي يمر بها الجسد قبل أن يتفسخ اللحم. اللون الأرجواني، واللون الأزرق بدرجاته، والعروق الخضراء. امتزجت في المرسم رائحة حلوة للموت والتربنتين. عثرت فوق رخامة المطبخ على خليط من ألوان الزيت كان لا يزال صالحًا للاستخدام وأعده في طبق حساء. في تلك اللحظة سرقت الدفتر. لم أفكر في الأمر كثيرًا، فقد أخفيته بحركة سريعة أسفل قميصي. لم يدرك أحد شيئًا.

أمضي في طريق أشجار الحور عند مدخل الضيعة وحقيبتي مليئة بحجارة جمعتها عبر مسيرتي. أمضي متحركة كزنبرك، كأنني أطيع أوامر لا أعرف ماهية منبعها. أتقدم أسفل الظلال الساخنة المُرقطة

بسهام ضوئية. أصل إلى ميدان «ساليتري»، وأشرب جرعة من الماء وأصرخ:

- كم دفعت لكم الخلدونتان؟

يُفزعني إصرار صوتي قليلًا.

- مَن منكم سَمَّم كلبيّ؟ اخرجوا، اخرجوا من جحوركم! ما هو ذنبهما.

يتقاطع طريقي في شارع «مايور» مع أدريانو الذي يتقاسم العمل في المخبز مع أخيه.

- يا هذا، هل تعرف من قتل «قبطانتي»؟ مَن وضع قطع اللحم؟ هل تعرف؟

يتوقف الخباز. يرفع كتفيه. أرفع يدي وألقي حجرًا يصطدم بذراعه. ينطلق ليركض مذعورًا. ينظر الآن نحو الخلف، يتعثر ويدلف إلى أول مدخل بيت يجده مفتوحًا. أصرخ مجددًا:

- ألا تدركون؟ إنهما تسرقان الضيعة رغمًا عن أنوفكم. البيوت الصغيرة المتلاصقة والسياح. سترون الأمر، سترونه. يا جبناء. تستغلكم الخلدونتان كديكورات قديمة.

أتقدم وأنعطف عند شارع «ألبيتشين». تُغلق الستائر. ثمة ستارة معدنية تسقط الآن، ومعها أسمع صوت انغلاق النوافذ وسط تقدمي. لم يعودوا يثرثرون. لم يعودوا ينظرون إلى قدميّ ولا إلى حذائي. لم أعُد أسمع ضحكاتهم ولا افتراءاتهم. ها هي ذي ابنة آل «ماروتو» قادمة، مجنونة «إل أتشويلو»! لست ثملة، ليس بعد. لقد قصصت شعري. هل رأيتموه؟ أعرف أن أحدكم ينظر إليّ من الثقوب المعلقة في مداخل

البيوت. ها أنا ذي جئت لزيارتكم. هل أنتم سعداء؟ أصل إلى ميدان الكنيسة، الخاوي في تلك الساعة.

أصرخ:

- اخرجي يا تيودورا.

أُلقي حجرًا على شرفة الواهفة. لا أُصيبه. أحاول مجددًا، فأصيبه هذه المرة وتسقط أمطار الزجاج فوق البلاط.

أتوجه إلى شارع توماس. لم يروِ الماءُ عطشي. الباب مغلق من وراء الستارة المعدنية. أقرعه بمطرقة الباب. لا يفل الحديد إلا الحديد. ضربة. اثنتان. ثلاث ضربات. لا تُسمع ولو همسة واحدة في القرية، وإنما فقط قرعي بمطرقة الباب.

- افتح يا توماس هذه أنا.

أركل الخشب. أفعلها بضراوة. أضربه أفضل بكعب حذائي. ثمة صرير معدني يتردد فوق رأسي:

- شششششششش. لا تصرخي.

إنه توماس يُحدثني من شرفته. تتشبث يداه بسورها الحديدي ونظرته منصبة نحو نهاية الشارع، تحسبًا لاقتراب أحد.

- افتح لي.

يشير إليّ براحتي يده، كأنني رُاحلة ويرغب في قطع الطريق عليّ:

- سأنزل الآن. اهدئي. فقط، اهدئي.

أسند ذراعًا فوق الجدار، وجبهتي فوق الذراع الأخرى. فمي أنشف

من الكتان. أسمع صوت ضربات عصا فوق بلاط الأرض. ثمة أقفال ومزاليج تنزلق، وتكة مفتاح. يُمسكني توماس من ذراعي ويسحبني نحو الداخل.

- هل يُمكن معرفة ما الذي يحدث لكِ؟

أثق فيه. أمضي في طريقي خلفه عبر العَتَمَة. لم يُشغل توماس إضاءة الحانة. أتعرف على رائحة الرُطوبة والجعَّة الهادئة، وإذا بنباح كلبة روداليس يستقبلني.

- «كورّا» يا جميلة! تعالي إلى هنا. ثمة شخص بائس قتل أمك.

أنحني وأداعبها. تلعق الكلبة يديّ ووجهي وتتشممني، فأعانقها.

- لكن أي أمر ملعون فعلته بنفسك؟

أضاء توماس النور. يحدق إليَّ؛ إلى جمجمتي القرعاء اللامعة، كما أفترض. لا أعرف كيف تبدو. مرت عدة أيام على آخر مرة نظرت فيها إلى وجهي العظمي في المرآة.

- لقد تعرض كلبيّ للتسميم.

أنهض. تراقبني أم توماس عبر فتحة الباب الواقع في الخلف، مستندة إلى عكازها. لم أرها منذ سنوات. لا تخرج من المنزل ولا تنزل إلى الحانة وقت جلسات السمر. إنها عجوز جدًا، شديدة البياض ونحيفة كسمكة الحسكة. لا أعرف إذا ما كانت قد رسمت الصليب وكوَّمت المنشفة الموضوعة فوق كتفيها رغم الحَرَّ حين سمعتني أتحدث عن السم أم حين رأت هيئتي. يشعر العجائز بالبرد على الدوام.

- تعالي إلى هنا وتناولي هذا.

أقترب إلى المشرب والكلبة ملتصقة بربلتي ساقيّ. صَبَّ لي توماس أربع جرعات من شراب الـ«خوتابيه» في كوب أسطواني. من دون ثلج. الجرعة تكفيني وتزيل الغشاوة من على عينيَّ.

أقول وأنا أجلس أمامه إلى المقعد عديم الظهر:

- يا توماس، الخلدونتان ستفسدان القرية، لو تركتموهما.

يتنهد توماس. يسرح ضفيرة شعره. يداعب جبينه، وإذا بأمه تسأل:

- يا طفليَّ، هل أنتما جائعان؟

- لا، شكرًا جزيلًا، يا سيدتي.

تتحدث المرأة وهي تصعد السلالم بعرج:

- الأكل ساخن.

- سآتي لاحقًا يا أمي.

ينظر توماس إليّ ويقول:

- سنرى هذا الأمر. المهم الآن هو أن تهدئي. تناولي هذا الويسكي وسنتنزه بعدها وأنا أوصلك إلى البيت بالسيارة.

يعرف توماس أنني محقة. عليهم هم أيضًا أن يكافحوا.

أقول:

- «كورّا» ستأتي معي، اتفقنا؟

- الكلبة؟ احتفظي بها. إنها لك.

# الاثنين

صباح اليوم نحو السابعة وأنا أقصُّ زهور الأضاليا إلى جوار السياج، ولأن الوقت مبكر، لفتت انتباهي سيارة سوداء ضخمة مرت من جانبي في اتجاه «لاس برينياس». بعدها بفترة معتبرة، جاءت مركبة دورية تابعة للحرس المدني ومضت بهدير محركها إلى درب غابة السنديان. بعد ذلك، وصلت سيارة أخرى باهظة، من تلك المركبات التي لا تظهر غالبًا في الضيعة. الساعة الآن نحو الحادية عشر ولم ينزل أحد بعد: لا المدنيون ولا السيارة السوداء.

زهور الأضاليا التي تنجو من الحر بديعة. لونها أرجواني حادٌّ. أطراف بتلاتها زهرية. لون قرصها الدائري أصفر زعفراني. أفتح غطاء المجمد. أتأمل الـ«قبطانة». إنها راقدة ونائمة، كأن الحياة لم يمسسها شيء بعد؛ كأننا على وَشْكِ الصعود للهرولة في التل ككل المرات الأخرى. بدأ أثر الصقيع يظهر على رموشها وجلد وجهها. الابتكار في طور النجاح. يبدو أن جسدها سيتحمل، ما دام سيبقى مُجمدًا، رغم أن المُجمد ظل مغلقًا طوال الليل. أضع زهور الأضاليا حول جسدها، لتُدثرها. ستحصل على الزهور ما دامت موجودة، وحينما لا أجدها، سآتي لها بأفرع الغار والزيتون. «كورّا»، ابنتها المنبوذة، لا تنفصل عني. ترفع الآن قائمتيها الأماميتين، راغبة في تشمم المجمد. ثمة قُرادة جاءت بها من الطاحونة. إنها موجودة في ظهرها ورقبتها وبين أصابعها. لا بُد أن توماس قد أزال تلك الموجودة في أذنيها. ألبستها طوق أمها الجلدي. اضطررت إلى أن أضيق إبزيمه بمقدار ثقبين. إنها أنحف بكثير من الـ«قبطانة». أهزل منها. أجبن منها.

فجرًا، سمعت همسات. إنها أصداء كل ما قِيل بين هذه الحوائط؛

بين هذه الجدران القديمة التي أنقذت حياتي وكان أهلي على وَشْكِ خسارتها. لطالما أحب آل ماروتو لعب الأوراق والنساء والنبيذ. البيوت لها ذاكرتها، وأحيانًا يضحك الموتى.

قالت إيميتريا إنه بعد كل هذا الجفاف سيحل علينا شتاء سيئ. سيتجمَّد النهر ومعه ثمار الزيتون. لو أن ديونيسيو فعلًا لم يعد موجودًا، فأنا لا أعرف أي عمل في جمع الثمار التي تسقط مع نفض الشجيرات قد يستدعونني إليه. قالت إن الأمطار ستغرقنا بعد الجفاف. ستُباغتنا عواصف. تُجهِّز السماء الآن تعويذاتها، وحين تمطر، سيتضخَّم المستنقع وستغرق الأراضي المحيطة به في الوَحْل. سمعت «الدباغ» في حانة توماس يقول إنه ذات مرة غرق حمار يمتلكه في المستنقع، بعد عاصفة استمرت ثلاثة أيام. لم تكن ثمة طريقة لإخراجه، إذ ابتلعه الوحل، رغم وصول ماجانيا وشخص آخر لا أتذكره إلى البيت لمساعدته ببغل وحبلين.

أخرج إلى الفناء. لا تزال الشمس تتوسط كبد السماء. أجلس إلى ظل شجرة البرقوق ومعي دفتر نايجل في حجري. أتصفَّح الرسوم الأولية، وبين الفينة والأخرى ألقي نظرة على البوابة المسيجة وطريق الشجيرات. لم تنزل السيارات بعد. ثمة شيء يحدث هناك، في الأعلى. أقرأ الفقرات المكتوبة بقلم حبر أنيق: «في لوحة "داوود مع رأس جوليات" (وقد شاهدتها مع بول في جاليري بورجيزي في روما) يرسم كارافاجيو نفسه كرأس مبتور يُمسكه بطل اللوحة من شَعْره. الفَمُ الذي هو لا مفتوح ولا مقفول، الأسنان السوداء، الهالات، الإحباط المرسوم على جبينه.. حينما يرسم فنانٌ نفسَه، فإنه يصُبُّ في لوحته كُلَّ ما يظنه عنها». ذات يوم، قبل هروبي بقليل، اكتشفت لوحة ذاتية رسمها نايجل لنفسه في المَرسم. كانت مغطاة بملاءة عليها بقع زيتية وبلوحات أخرى

غير منتهية، ووجهها إلى الحائط. لقد فزعتُ مما رأيته.

بالأمس بعد أن أوصلني توماس إلى البيت، تناولت القليل من طبق الدجاج ورقدت قليلًا واستمنيت وقرأت. قضيت المساء بالكامل في الفراش، تاركة الزمن ورأسي يمضيان وَفقًا لهواهما. لم أعُد أدمي، هناك من الأسفل. لن أخرج اليوم من البيت. كل حواسي في حالة تأهب.

انتباه. ثمة شاحنتان لونُهما رمادي معدني تتوقفان أمام باب البيت. ينزل من الأولى رجل يرتدي بنطلونًا وسترة كحلية. يبدو زيًّا رسميًا. معه أوراق في يده. اللعنة! هل هو من مسؤولي الإخلاء؟ ينظر عبر سياج البوابة. يتحقق من أنها مفتوحة. يدفعها. تنطلق «كورّا» لتنبح أمام الدخيل حين أنهض وأقترب من المدخل. يتوقف الرجل فجأة. عمره يزيد عن الأربعين بقليل. ينظر إليّ بريبة بين الفينة والأخرى. يتفحص بعدها أوراقه والواجهة كأنه يبحث عن رقم أو مرجعية، ثم ينظر مجددًا إلى وجهي.

- صباح الخير. ما الأمر؟

أنا الآن قريبة منه. أقرأ الأحرف المطبوعة فوق المعدن. إنهما شاحنتان قضائيتان: الطب الشرعي. أتنفس الصعداء.

- هل هذا هو بيت «لاس برينياس»، سيدتي؟

يناديني «سيدتي» وتلقائيًّا أضم قبضتيّ، بل إنهما تنغلقان وحدهما.

- لا. ليس هذا البيت، لكنكم على الطريق الصحيح.

أعبر البوابة مع الرجل والكلبة خلفي. أمُدُّ ذراعي، وأشير إلى الطريق الذي يحيط بالأرض البائرة.

- هل ترى سيادتك هذه الشجيرات؟

- نعم.

ينظر الموظف القضائي إلى حيث أشير، مظللًا عينيه بيده.

- لا يظهر البيت من هنا جيدًا، لكن بمجرد وصولكم إلى أشجار البلوط، ستلاحظون طريقًا ينفتح عند اليمين.

يومئ الموظف برأسه.

- امضوا هناك مباشرة نحو الأعلى ولا تحيدوا عن الطريق. بعد كيلومترين ستجدون بيتًا. الطريق سيئ، لكن من الصعب أن يتوه المرء فيه. خذوا حذركم من المطبات وبطن الشاحنة.

يثني الرجل الأوراق ويشير بها إلى الموجودين في الشاحنة الثانية. إلى الأعلى، إلى الأعلى.

- شكرًا واعذريني على الإزعاج.

في المرة القادمة سيأتون من أجلي. هذا هو ما أفكر فيه، لكنني أطبق فمي. أتجرأ في النهاية على السؤال:

- لكن ما الذي حدث؟

يُقوِّس الرجل حاجبيه ويقول وهو ينظر إليّ:

- ثمَّة ميت.

- في «لاس برينياس»؟ مَن؟

يقول وهو يصعد إلى الشاحنة:

- لا أعرف المزيد، سيدتي. قالوا لنا فقط أن نذهب لأخذ الجثة.

تبتعد السيارتان عبر الدرب وترفعان خلفهما سحابة من التراب. ميت؟ ميت آخر؟ هل أدركوا الأمر في الضيعة. لا أظن. أمسك الحقيبة وقبعة إبراهيما وأملأ زجاجة ماء وأمضي في طريقي. هيا يا «كورّا». ما الذي حدث يا ترى؟ لا تجلب التوأمتان معهما سوى الدمار.

أصل إلى الشجيرات، وبمُجرد أن أسلك الطريق، تظهر سيارة تأتي من الاتجاه المعاكس. أتوقف. إنه الحرس المدني. أظل ثابتة في وسط الطريق. تقف كلتا قدميّ فوق أثر لإطار سيارة. أرفع ذراعيَّ كفزاعة. أهزهما بالصورة التي قد يهزهما بها غريق على جزيرة نائية بعد أن رأى زورقًا. يخففون سرعتهم ويطلقون نفير سيارتهم عدة مرات. أمسك الكلبة من طوقها لإيقافها. اهدئي هنا. أتنحَّى جانبًا ويمرُّون. لا، بل يوقفون السيارة على بُعد عِدَّة أمتار، في منعطف ظليل على الطريق. ينزل مَنْ في السيارة. إنهما اثنان من أفراد الحرس المدني.

يسألني أكبرهما سنًا، وهو رجل بطنه كبير، ذو شعر أشيب، ويكبُرني بعدة سنوات:

- أنتِ.. إلى أين تذهبين؟

يقتربان.

- أنتِ ساكنة «إل أتشويلو»، أليس كذلك؟

أتعرف عليهما ويتعرفان عليّ، من الليلة الطويلة في نُقطة شرطة «إل سالوبرال»، حينما اضطررنا إلى أن ننتظر وصول القاضي لإنزال خوليان من شجرة الجوز. يبتسم أكبرهما سنًّا. نظرته بشوشة.

- ستحرصين على عدم إثارة المشاكل.

- أحاول فقط الدفاع عن نفسي.

يقول:

- لا تصعدي. كلما قَلَّ عددُ الموجودين في الأعلى، كلما كان الوضع أفضل. لقد بدأ إخلاء المنطقة بالفعل.

- لكن.. ما الذي حدث؟ قال لي موظفو القضاء إن هناك ميتًا.

يضع الشاب يديه فوق وجهه. يغلق عينيه وينظِّف عرقه. يبدو مُنْهكًا. لم يكمل عامَه الثلاثين على الأرجح.

يُخرج العريف علبة سجائر ويعرض عليّ واحدة، فأقبلها. الآخر، الأصغر سنًا، لا يُدخن.

- هل تعرفين رئيس عمال المزرعة.

- ديونيسيو؟ أعرفه بالطبع؟ ألم يطردوه؟

يقرب النار إليّ، فأحوطها بكلتا يديّ.

- ما الذي حدث؟

- صباح اليوم اقتحم ديونيسيو هذا المنزل ومعه بندقية بماسورة مزدوجة. وضع فوهتها في فمه وأطلق النار على نفسه أمام المُلَّاك الذين كانوا يتناولون إفطارهم في غرفة الطعام.

لكن ما الذي فعلته يا ديونيسيو. اللعنة! بندقيتي!

يواصل الشرطي الأصغر سنًا الحكاية:

- الأذى كان كبيرًا. وصل الدم إلى الجدران.

أرى وجه رئيس العمال المدبوغ بفعل الشمس. أرى الرجل الذي لم يقدر على أن يستمر في النظر إليّ حين قطع أشجار اللوز. أرى الظرف حُمصي اللون فوق مائدة المطبخ.

يقول الأكبر سنًا:

- خذي حذرك.

يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة وينظر إلى الطريق الذي نزلاه:

- ها قد رأيتِ كيف تنتهي الأمور.

أعرف أنه يفكر في كل لحظة انتظرنا خلالها في أرض التل الجرداء وصول القاضي وحاشيته. برد الصباح. السجائر التي دُخنت أثناء الانتظار. ما تحدثنا عنه. هذه الحقول، وسلسلة الانتحارات، وعائلة خلدون. ومَن كان ليظن هذا في ظل ثرائهم. جثة دون خوليان المعلقة في شجرة الجوز، ويداه اللتان اقترب لونهما من لون النبيذ.

يقول الأصغر سنًّا:

- وجدنا إلى جوار جثة رئيس العمال نُسخةً من وثيقة البيت والمزرعة.

أيُّ شيءٍ طَالَبَ به ديونيسيو التوأمتين؟

يُمسكه الأكبر سنًّا، العريف، من كتفه ويقول:

- هيا، امْضِ. لقد تأخَّرنا كثيرًا.

# البحر

عقلي الآن ضوءٌ صافٍ.

«كورّا» في صحبتي، ومعها وكل أمواتي: إيميتريا بفستانها الأسود وشعرها الأبيض المعقوص بدبوس فوق مؤخرة رقبتها. أخي جابي الذي يبتسم بكل أسنانه وهو لا يزال فتيًّا في السابعة عشرة. أبي بأزرار قميصه المغلقة حتى ياقته؛ حتى رقبته التي عانقها الحبل. قميصه الأبيض الذي لا تشوبه شائبة كأنه يوم الأحد ويستعد للنزول إلى حانة الجاليثية. أمي وذراعاها المفرودتان بكامل طولهما لتعانقني. يداها الحمراوتان من الغسيل. «القبطانة» والكلب السلوقي ببنيتهما العضلية المكتملة ونور الحياة يشع من أعينهما. نايجل، بشعره المبتل، وسترته الصوفية المحبوكة المبتلة هي الأخرى والملطخة بالألوان. طرفا كُمَّيه الواصلان حتى براجم أصابعه. يداه الزرقاوتان الممسكتان بفنجان شاي ليُدفئ نفسه وهو غارق في بحثه. أيضًا، ديونيسيو رئيس العمال في الصباحات الباردة وهو في طريقه إلى أشغال حصد الزيتون، وسقف فمه لا يزال في مكانه. خوليان، بابتسامته الخجولة التي اعتاد أن يُطلق بها نفير الـ«لاند روڤر» وهو يمُرُّ من أمام بيتي، في العد التنازلي لموته المُفصَّل بالمقاس.

مَرَّ أسبوع على ما فعلتُه ولم يُمسكني أحدٌ بعد. لم أتوقف عن السير منذ ذلك الحين إلا للراحة والنوم قليلًا، مختبئة بين الأشجار أو في أحد أكواخ القشِّ الموجودة في الحقول كملجأ، وأنا أفرك قدميّ لتخفيف ألم كاحليّ وأتناول الطعام لاستعادة قواي. معي «كورّا» القادرة على الانسجام مع أي شيء.

سلقتُ كُلَّ البيض الذي وضعه الدجاج قبل رحيلي. وملأت الحقيبة

بكل ما اتسعت له من طعام. وضعت في حقيبة أخرى عُلَبَ التونة واللوز والتين المجفف، ولوحيّ شوكولاتة، ونقانق خنزير مدخنة، ومَرْطَبانًا من الحمص المطبوخ، ثم كل ما تمكنتُ من سرقته من البساتين حين حَلَّ الليل. هل سينجحون في اصطيادي؟ هل سيكتشفون أنني مَن فعلها؟ لم يعُد الأمر يُهمني. أطعتُ فقط اندفاعي الذي طالبني بالانتقام مما حدث لكلبيّ، وفعل ما هو عادل لإيميتريا وذكرى أبي والتكفير عن أحلام ديونيسيو المهدرة. ما الذي وعدك به خوليان؟ أتخيَّل أن السيد وَدَّ أن تشيخ في «لاس برينياس»، في كوخك الواقع إلى جوار البستان، ليُداعِبَك في الأحلام، بعيدًا عن أعين العالم. وَدُّوا أن يسلبوك كرامتك يا ديونيسيو، لكنني تكفلت بالانتهاء من العمل الذي بدأته.

لم تكُن الشمس قد أشرقت بعد حين فتحت سياج حظيرة الدجاج، وهششتها كي تركض لكنها لم تبتعد كثيرًا. تحممتُ بعدها وتناولت إفطارًا غنيًّا من اللحم والبطاطس المقلية وثمرتي طماطم مفتوحتين، ثم رتبتُ سريري ووضعت زهرة أضاليا أسفل وسادتي على الفراش الذي كان لإيميتريا. جهزتُ صُرتي من أجل السفر، وودعت جسد «القبطانة» المتجمد، ثم فصلت قابس المُجمّد، وأخذت كل ما أحتاجه من السقيفة: قفاز التشذيب، الفأس، صفيحتي البنزين، وحزمة من الصحف القديمة.

استغللت الجذوع التي صففناها عند الواجهة الخلفية. إنها كمية كبيرة من الحطب تخطّى ارتفاعُها طولي بنحو شبر. بعدها، أخرجت فروع أشجار اللوز التي ساعدني إبرا على وضعها في السقيفة ووزَّعتها جيدًا في محيط البيت. كان الحَرُّ شديدًا في الأسابيع الماضية، فذَبُل الخشب مع أشعة الشمس بصورة لم أضطر بها تقريبًا إلى استخدام الفأس لأن الأفرع انكسرت بسهولة كقشر البندق. أشعلت المحرقة ومضيت ومعي صفيحة البنزين الثانية في اتجاه «لاس برينياس» و«كورّا» خلفي. حينما

ألقيت نظرة نحو الوراء، وجدت ألسنة اللهب تعانق الطابق العلوي. أيُّ غضب وإصرار اشتعل به حطب أشجار اللوز من الحد الفاصل! تحولت الدماء والإهانة إلى نار حيَّة. وقفتْ الرياح التي لطالما أزعجتني إلى جانبي ونشرت الحريق. استأنفت مسيرتي وأنا أفكر في كل ما يتأجج خلفي: صندوق خشب الجوز، والكومود، وأرمدة أبي، ودفتر نايجل، والحصيرة التي تسيج البستان، وعلب الطماطم المحفوظة، وملابسي، والتعريشة، وشجرة برقوق إيميتريا. حرجت بالملابس التي كانت عليّ: بنطلون جينز جديد وقميص أزرق له كُمَّان طويلان، ووضعت في الحقيبة زوجين من الملابس الداخلية، وسترة صوفية، وبعض الجوارب، التي ساعدتني كثيرًا في ليالي الجبل الباردة.

توقفت عند أحد منعطفات الدرب الصاعد إلى «لاس برينياس»، وجهزت كمية لا بأس بها من الحطب وأنا أرتدي قفازي. كانت نيران «إل أتشويلو» في تلك اللحظة قد وصلت إلى أرض السيد البائرة وتمضي متقدمة في خطاها. لم أتخيَّل قط اشتعال القستوس وإكليل الجبل بمثل هذه السرعة، ولا أن رائحة الدخان الصاعد منهما ستكون طيبة هكذا كالعسل والبَخُور. اضطررت إلى الإسراع في خطاي. سكبت صفيحة البنزين فوق النخيل الجاف والأوراق الذابلة بتوزيع السائل في الجوانب الأربعة، وأنا أتفادى أن تتلطخ ملابسي. صنعتُ مشعلًا من بعض أوراق الجرائد القديمة وأشعلت القداحة، ثم المشعل، وألقيته وتراجعت خطوتين إلى الوراء. ارتفعت ألسنة النيران على الفور بلهيبها الأزرق، وإذا بـ«كورّا» تنطلق راكضة قبلي.

مضينا نهرول مع تيار النهار. التفت إلى الوراء حينما توقفت عند مصنع فحم قديم، من ضمن أملاك مزرعة آل خلدون، فوجدت أن نيران المحرقة قد ابتلعت الشجيرات القزمة واقتربت من لحاء أشجار الصنوبر

المحيطة ببيت «لاس برينياس» الكبير. لم يرنا أحد. أنا واثقة من هذا. فكَّرت في التوأمتين: هل لا تزالان نائمتين في فراشيهما المريحين؟ من أين ستهربان؟ تخيَّلتُهما في قميصي نومهما الأبيضين، وشَعْر كل منهما يتأجج بالنيران. واصلت الركض. أعجز عن تذكر متى وصلنا إلى سفح التل، لكنني اضطررت إلى التوقف هناك لاستعادة أنفاسي. عادت «كورّا» أدراجها والتصقت بساقيّ. نظرت مجددًا نحو الخلف، وحينئذ فعلًا تأمَّلت بيت السادة يتأجج بالنيران: أصفر يُعمي، برتقالي لامع، عسلي، أحمر دامٍ، أسود بلون الحبر. النيران منومة مغناطيسيًّا.

مضيت في طريقي نحو الجنوب، بإجراء دوران هائل، لكيلا أخطو فوق أرض الضيعة وللابتعاد قدر استطاعتي عن الطريق الإقليمي. التهمتْ جلبةُ النيران خلفي كُلَّ أصوات الجبل في زئير متوحش وهمهمة عمياء مستمرة تخلَّلتها طقطقةٌ صغيرة صوتُها أكثر حِدَّة، كأنها بكاءٌ من السيقان والأوراق المشتعلة والزجاجات المتفجرة من فرط الحرارة والجمر المتأجج والأفرع المتفحمة. تأجَّجت رؤوس الحراشف البرية والتمعت جُذامات الزرع ببريق يكاد يُقارب حَدَّ البياض. بصقت نبتات القستوس حبوبها وراتينجها مشتعلًا كالجمر. جرَّت دفقات الرياح الشَّرَرَ كَيَرَاعات مضيئة. بين الفينة والأخرى، كنت أتوقف لتأمُّل ألسنة اللهب، فيعانقني يقينٌ بأن الحياة ستزدهر مجددًا في هذه الحقول المغطاة الآن بالرماد الأبيض الخصيب. ارتفع عمود من الدخان من بيتي نحو سماء الشروق، وكان كثيفًا جدًا. إنها نيران الحقيقة.

بعد سبعة أيام من السير، ها أنا ذي أتأمل الآن البحر من فوق رَبْوة، مستندة إلى جذع شجرة زيتون بَرِّيٍّ. إنه البحر الذي يشفي كل شيء غارقًا في الضوء البرتقالي لهذه الساعة المسائية. تنزل الكثبان إلى الشاطئ الخالي وسط عيدان قصب الرمال وزهور الأربيان البرية. تهُبُّ

نسمة مذاقها كالملح والعرقسوس. من هنا في الأعلى، يبدو الأمر كَبَدَن سفينة قديمة مقلوبة. حين يحل الليل، سأنزل أنا و«كورّا» لننام في ملاذه. لا أعرف إن كانوا سيمسكونني أم لا، لكن الأمر ليس مهمًا، فأنا أعرف أن فصول ربيع أخرى آتية.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة | سُر مَن قرأ

قائمة «فوربس» و«إل بايـيس» لأفضل كتب 2020

telegram @t_pdf

تعيش أنخيلا مُنعزِلة، أو ربما مُتحصِّنة، في بيت عائلتها في إحدى قرى الجنوب الإسباني بعد أن قضت شبابها الذي لم يخلُ من المغامرات في لندن. يعتبرها أهالي البلدة مجرد امرأة مجنونة تسكن مع كلبيها هذا البيت الذي يلتقي فيه زمنان: الحاضر والماضي. كل ما لدى أنخيلا هي أشباحها وذكرى الحب الذي عاشته بحلوه ومره في العاصمة الإنجليزية، لكن تتبدل الأحوال حين تعثر هي وصديقها إبراهيما على جثة أغنى رجال القرية وهي تتدلى مشنوقة من فرع شجرة جوز، إذ تبدأ أنخيلا في نبش الأسرار العائلية القديمة، التي تكشف لها ما فعله الموت والحياة بعائلتها وبلدتها الموبوءة بِدَاء الانتحار، وتُقدِّم لنا قصة حزينة ومثيرة عن الحرية وقدرة الإنسان على المقاومة.

رواية مكتوبة برشاقة، وبأحداث متلاحقة، قالت عنها صحيفة "لا بانجوارديا": «رواية كُتبت بغضب وتمرد فريدين». وجاء في مجلة فوربس أنها «رواية ذات أثر طويل».

**أولجا ميرينو/** كاتبة إسبانية من مواليد برشلونة عام 1965. عملت مراسلة في موسكو لصحيفة «إل بيريوديكو دي كتالونيا» خلال حقبة التسعينات، فاختبرت انتقال النظام السوفيتي إلى اقتصاد السوق، ومن هذه التجربة انبثقت روايتها الأولى: «أرمدة حمراء» التي حققت نجاحًا نقديًّا كبيرًا. بعدئذٍ بخمس سنوات، أبدت مجددًا اهتمامها بالتحوُّلات الاجتماعية والماضي القريب في روايتها الثانية «نِعال من ورق». وصلت روايتها «الغريبة» إلى القائمة القصيرة للنسخة الرابعة من جائزة ماريو بارجاس يوسا للرواية. وتعمل حاليًا في صحيفة «إل بيريوديكو» الإسبانية.

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET
ISBN 978-977-821-234-1
9 789778 212341